بين تِلال الحنين

بدور زكي محمد

الكتاب: بين تِلال الحنين
المؤلف: بدور زكي محمد

رقم الإيداع: ١٤٧٨٤ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-614-2
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

بين تِلال الحنين

رواية

بدور زكي محمد

إلى مَنْ غاب من أهلي وأحبابي:

رسائلُ حنينٍ ليتها تصل

حَنِين

بين الأسى والأمل تمتدُّ مسافةٌ لا يبلغها النَّظر، ولا تُدرك مآلاتُها إليه، فما بين لقاءٍ ووداعٍ، لهفةٍ وسكون، تُبحر النُّفوس إلى ما لا نهاية، ويتخاصم الخيال، فمِن مُوحِشٍ يزري بآمالنا، إلى ما يُبهج النفس ويأخذها إلى ضفافٍ تُزْهِرُ الأحلام فيها، صِورٌ تلهو بنا وتسلمنا لحالةٍ من الرضا بكل ما نحن عليه، بلا اعتراض أو طموح.

وفي ذكرى الغائبين تتجاور مباني الأسى فيختلط الأحباب بالأغراب في أُلفةٍ لا يصنعُها إلا الموت. فكمْ من قريبٍ نأينا عنه، وتباعدتْ بنا السُّبل، فإذا به يحضر بعد غياب فيصبح عتابه مسموعًا موجعًا! وكم من حبيبٍ هجرناه سنينَ وحين عاد بنا الحنين؛ كان القَدَرُ قد أسرعَ إليه!

في رحلتي بدروب الأسى، قصص ملوَّنة بالصداقة والعشق، بالنسيان والذهول، بترجيعةٍ غاضبةٍ تقول: لماذا لم نسامح؟ سؤال يعذِّبنا في كل مَرةٍ يطوف علينا غائب؛ قريب أو حبيب، يعاتبنا فلا نقدر أن نجيب أو نصالح. في قصص الأهل ما يُجري الدمع ويُرهق العاطفة، فقد ألقت بنا المنافي بعيدًا، وما عَلِمنا كيف سارت بهم الأحوال.

ولما طالت الهجرة جاء مَنْ يُخبرنا برحيلهم دون أن نسمع أنينهم على فراش المرض، أو نقدِّم لهم شرْبة ماء تُطفئ أشواقهم لحياة رغيدةٍ لم يحظوا بها.

ولعلكم ستُبدون بعض التَّردّد حيال العنوان؛ لكني أطمئنكم، فمشاهد الأسى لن تُغطي فصول روايتي، فستجدون المحبّةَ في منازلها العالية وظلالها الوارفة، وأزعم أنكم ستجدون ما يمتعكم بين سطورها، ولربما التقيتم بأحبابكم وأنتم تتابعون من رويتُ قصصهم، فذكرياتنا تأبى غيرنا سكنًا كما النَّدِيم الحاضر في الخاطر حين يأخذ الزمن أُنس المجالس، وما أغانينا سوى أصداء لما في النفوس من لوعة طال انحباسها، وحنين لمنازل هجرناها.

وإني لأعجب من تقلُّب الشعور، وما يعاودني من أسى على مَنْ رحل ولم يكن بيننا ما يوجب الود، وأحسب أن الغياب الأخير يُوقظ الإحساس بالآخر، يقظة هي كالمرض، كالحُمى التي لا تحلو لها الزيارة إلا في أواخر المساء، حين يلفُّ الظلام سماءنا، فتحضر الأرواح وتبدأ قصة العتاب.

وبعد، فإن شخصيات روايتي هذه لا تبتعد عن تاريخها في معناه، لكني لوَّنتها بما يجسِّده الخيال، وأغريتها بأن تسير في دروب لم تمر بها في حياتها، فكما تعرفون أن الحقيقة بلا جناحين، والواقع باهت دون احتيال بريء تُمليه سلاسة الرَّاوي، والتطلُّع لرضا القارئات والقُرَّاء.

لذلك ألتمس السماح ممن رَويتُ بعضًا من قصصهم، لأني

حلَّقت بعيدًا عن آفاقٍ عاشوها، فبعض الجنوح يُشبه الألوان في اللوحة الباهيّة، وبعض الخيال ما تهبه الذكريات؛ حُلوها ومُرُّها.

لندن

سبتمبر ٢٠١٩

اِعتـراف

هذا ما عرفتُه من أوراق «سلمى»، التي سطوتُ عليها في غفلةٍ منها، واحترتُ بأمرها وما انتابني من شعور بالذنب، فقد أبحتُ لنفسي ما ليس لها، وأطمح في أن تعذروني بعد أن تعرفوا قِصَّتي، وأي امرأة ألقتْ بها الصُّدفة في طريقي... راق لي حُسنها، وكان لصوتها فعل النَّسيم في ليالي الصَّيف، لا أدري حقًا ما صنع بي لقاؤها، كل ما أعرفه أنني لبثتُ زمنًا أتمنى رؤيتها، أنتظر مرورها ولو في حلم.

على أني أعاهدكم بأني لن أكشف سرًا، ولن أدعكم تكرهونني وقد يشفع لي أن هذه الرواية ما كانت لتصدر لولا أن وضعتُ لمساتي على صفحاتها، ومنحتُها كل اهتمامي، وكم حيرَّتني صاحبتها بندرة التأريخ لأحداثها، لكني أحسب أن زمنها كان بين الخمسينيّات والألفين، وما بينهما من وقائع أليمة، وحروب تناهبت قلب العراق.

شيء ما دفعني للتسلّل إلى ماضي تلك المرأة التي شغلتْ مني البال والخيال، وعلَّمتني درسًا لن أنساه.

عابر سبيل

(١)

أطياف وأوجاع

هذا أوّل ما قرأته في أوراق سلمى...

وسأطلعكم على التفاصيل، آملاً أن تغفر لي فضولي وتغفروا لي أنتم أيضًا، فأنا سأحتفظ بضمير الرَّاوي لشدّة ما شعرت به من ميلٍ عجيبٍ وغير مفهوم لهذه السيدة، أو ربما لنشوة الإحساس بأني مؤلف؛ وهذا ليس اِدعاءً، فقد بذلتُ سخي الوقت في حلِّ رموزِ خطّها الجميل والمضطرب في الآن نفسه، وأعدتُ كتابة كل التفاصيل بكلماتٍ واضحةٍ، كما سمحتُ لنفسي باختيار عناوين مناسبة انتزعتُها من النَّص، فكأني شاركتها في كل ما كتبتْ، وأعجب كيف تبينتُ المعاني، وفهمت السِّياق، بل كيف عالجتُ بعض حروفها الفاترة!

أتخيل أنها ستشكرنّي لأني حمَّلت عنها عبء هذا الفصل من روايتها، فإن أعادت قراءته سأكون أنا الرَّاوي لأوجاعها، وما رسب في أعماقها من ملامة.

عابر سبيل

كان يجلس مهمومًا في حديقة الدار، حين أقبلتْ سلمى وقَدَّمت له الشاي المعطر، لم يشكرها كعادته، لكنه بعد حين قال لها بصوتٍ منكسر بأنه لم يُسرف في الشَّراب نهار أمس، وتساءل معاتبًا؛ لماذا تَكثُر العيون الغاضبة من حولي؟ ما الذي يجعلكم بعيدين عني، فلا تدركون ما أعانيه من أوجاع المرض، وخذلان الأصدقاء؟ أشعر بأني بقايا إنسان، لا أملك لنفسي شيئًا، ولا يحتاجني أحد.

ظلَّ يشكو حتى انسابت خيوط الدمع على خديه الضامرين.

انتاب سلمى شعورٌ بالذَّنب واقتربت منه معتذرَةً عما بدر منها بالأمس، لامست رأسه وقبَّلته، ثم أخذت بيده لتوصله إلى غرفته، فقد كان يعاني من ألم في ظهره. قال لها إنه سينام ساعةً وطلب منها أن توقظه إذا طالت نومته. ابتسم لها وكأنه لم يعُد يذكر ما كان يرهق نفسه، فعانقته وبادلته نظرةَ رضا لم تشعر به من قبل، وخُيِّل له أنها قد فارقت أحزانها، ومسحت أخر دمعة، لكنها والساعة إلى جانبها تعلن بدء يوم جديد، أدركت أن طيف الراحل هو الذي زارها، أجهشت بالبكاء وعاودها حنين لماضٍ لم تكن فيه سعيدة.

الساعة جاوزت العاشرة، وسلمى مازالت في طريقها لعملها، وحين وصلت سارعت إلى مكتبها، وحملت ملف البحث الذي استغرق منها قرابة شهرين، لتسلِّمه إلى مديرة مركز البحوث الاجتماعية، الذي كانت تعمل فيه، ثم انهمكت بعملها حتى

جاوزت وقت الغروب، وهو ما لا تطيقه وتكاد تختنق إن لم تبارح مكانها، فحين تميل الشمس عن الديار وتنسج السماء ثياب الظلام، يتراءى لها أن كل شيء سائر إلى العدم، وأن لا جدوى من عمل وكفاح لا ينتزعان النفس من أحزانها.

سارت إلى بيتها بخُطى متثاقلةٍ وكان بودها لو تواصل المسير إلى ما لا نهاية كي لا تكون وحدها في الدار، ما انتبهت للمارَّة وهي تنتحب وتحدِّث نفسها بصوت مسموع حتى اقتربتُ منها وسألتُها:

– سيدتي هل أستطيع مساعدتك؟ أنتِ تنتحبين، فهل آذاكِ أحد؟

نظرتْ إليّ بامتنان وكأنها تعرفني من قبل، قائلةً:

– أشكرك أنا بخير، لكني أبكي راحلاً لم يفارقني طيفه، وقد زارني بالأمس، ولا أعرف هل جاء ليعاتبني، أم ليقول لي إنه نادم على ما سبَّبه لي من حزن؟

لم أجرؤ على السُّؤال، فللحزن مهابة، وخشيتُ أن أتطَّفل عليها، فقد بدتْ وكأنها تُخاطب السماء، لكني خِفتُ عليها فرافقتُها إلى محطة القطار وتمنيتُ لها ليلةً هانِئة.

ها هي في دارها تحاول أن تشغل نفسها بمشاهدة فيلم لا تعرف قصته، ويا للمصادفة، فالقصة عن رجل أحبَّ زوجته بكل صدق وأمضى معها سنوات من السعادة، لكن المرض حرمه من صُحبتها، فقد أُبتليت بعِلَّة النسيان المُفرط، وما عادت تعرفه ولا تُميِّز أبناءها. استمر الزوج المُحب على

زيارتها، ولأعوامٍ طويلة لم يشعر بالملل، فحين تسأله: مَنْ أنت؟، يُذكِّرها بكل تفاصيل حياتهما. كان يقول لابنته: إنها لا تعرفني، لكني لا أذكر حياتي إلا معها، وكم كنت سعيدًا بقُربها.

تساءلت سلمى حين ألقت برأسها على الوسادة: هل كان بوسعي أن أعتني بـ«ماهر» كما فعل بطل الفيلم مع زوجته؟ وهل كان بيننا من الحب ما يُغري بالصبر؟

ولطالما تمنَّتْ لو لم يتعجل الرَّحيل، لو فتح لها قلبه فأصلحت ما بينهما من فتور وجفوة. وألحَّ عليها السؤال: هل أحبَّها فعلاً لتضَّحي وتنسى نفسها؟ أكان بوسعها أن تنتشله من عُمق كآبته؟...

أسئلة تناهبت نُعاسها، وسَلبتها نشوة الغفى، فراحت بذكرياتها إلى ديارها الأولى، إلى المكان الذي التقت فيه لأول مرة بالرجل الذي صار زوجها وأنجبت منه ابنها الوحيد... في صباح يوم شتائي كئيب من شهر شباط، تضطرّ لمرافقة أبيها إلى مكان تزوره لأول مرة، كي لا تتركه وحيدًا مثقلاً بأحزانه وفجيعته بفقده أعزّ أصدقائه ورفيق دراسته «رأفت أمين» في جامع «الشيخ عبد القادر الجيلاني»، طال وقوفهما، وكاد أن يمسّهما بردٌ شديد يشغلهما عما جاءا من أجله، لولا أن تلطفت الشمس فزاد الدفء من الإحساس بالألم... هناك شعرت سلمى بالحرج لأنها المرأة الوحيدة بين جمع من الرجال، كثير منهم كان ينظر إليها باستغراب وربما باستياء. لم يطلب أحدٌ منها أن تضع غطاءً على رأسها، ربما لأنها بقيت في ساحة الجامع.

في نهاية مراسم الجنازة، أخذت سلمى بيد أبيها وسارا معًا باتجاه باب الجامع، لكن صوتًا قريبًا استوقفهما، مناديًا: أستاذ كريم، تفضل معي لأوصلك إلى بيتك، وتقدّم إليه مصافحًا، ومدَّ يده إلى سلمى، التي خمَّنت أنه ربما كان أحد تلاميذ أبيها. كان ذلك الرجل هو «ماهر عبد المعين»، أستاذ الاقتصاد في جامعة «الكِندي».

في الطريق إلى بيتهما اجتهد الرجل في التعريف بنفسه وباهتماماته، و ما إن تحدث عن فترة سجنه وهو في عمر مبكر، حتى عرفه الأستاذ، وقال: الآن تذكرتك، ومازال ذلك اليوم حاضرًا في ذهني، حين أقبل عليك رجُلا أمن واقتاداك إلى خارج الصَّف، ولمَّا اعترضتُ؛ هدَّداني بكلمات قاسية، أجل عرفتك، أذكر أني اِتصلتُ بعائلتك، وناشدتُ أحد الأصدقاء من ذوي النفوذ في وزارة الداخلية، كي يُفرِجوا عنك.

بعد هذا اللقاء، تواطأت الصُّدف لتجعل سلمى في طريق ماهر؛ مرة في مقهى الجامعة، وأخرى في جمعية القلم، وثالثة في حفل تخرج صديقتها سناء... أحاديث وأخبار تبادلاها بقدر من السلاسة والاتفاق بالرَّأي، ما دعاهما للتحدُث أكثر والانتقال إلى المواعدة... و ما إن مرّت بضعة أشهر حتى انتهى الأمر بينهما إلى الزواج، ولكن دون أن يعرف كل منهما شخصية الآخر من الداخل، على الأقل من وجهة نظر سلمى، فغالبًا ما نفتقد في مجتمعاتنا إمكانية اكتشاف المشتركات الأساسية بين الطرفين، وبالطبع فإن العيش المشترك قبل الزواج يعتبر من المحرمات؛ إلا ما ندر.

سلمى كانت مبهورة بشخصيته، قُدرته على الإقناع حتى مع أصعب المخالفين، إخلاصه لما يؤمن به من نظريات، عِفة نفسه أمام مغريات الحياة، والأهم ما كان يبديه من تبجيل للمرأة، وغير ذلك من الصفات التي تسمو بالرجل بنظرها... ولكن، هل يمكن أن ينتج عن كل ذلك زواجًا ناجحًا؟... هكذا تساءلت سلمى مِرارًا كلما لاحت لها بادرة خلاف معه، وصعُب عليها أن تتقدّم خطوة نحوه.

في البداية تصوَّرت أن أصدقاءه الذين التقت بهم في مناسبات وطنية ومحاضرات، هم المُقرَّبون إليه، وكانت قد ارتاحت لأحاديثهم، ووجدتهم مرحين متفائلين، إلى جانب تواضع مُحبب وبساطة في شخصياتهم، فأمّلت نفسها بأن تقضي أوقاتًا طيبة بصُحبتهم، لكنها اكتشفت بعد فترة من الزواج، أن ماهر لا يهتم بتوثيق علاقته بهم، ونادرًا ما يلتقيهم، بينما يحتفظ بصداقة راسخةٍ وقديمة مع عائلة رجل الأعمال «فاضل معروف»، وبشكل ما أرادها أن تندمج بأجوائه، وتصحبه في زياراته شبه اليومية لهذا الصديق.

مرة سألته: متى نردّ الزيارة لمجموعة الأصدقاء الطيبين؟... لم يحدِّد موعدًا وظل يؤجل ويؤجل، وصادف أن رأت أحدهم الذي دعاهما مِرارًا، وحين سألها سكتت وابتسمت، فقال لها مازحًا: ننتظر زيارتكما بعد الطلاق.

كانت سلمى بطبعها مُجاملة، ولديها طاقة على الصبر، فنزلت عند رغبة ماهر في أن ترافقه دائمًا كلما زار دار صديقه فاضل، والحقيقة أنه رجل طيب ودود، مُقل في حديثه، لكنه

مسلوب الإرادة، فزوجته هي التي تُقَرِّر كل شيء، فتقاطعه كُلَّما حاول أن يُعبِّر عن رأي ما، بيدَ أنها لم ترِث مالاً أو عقارًا من أهلها، لكنها فقط تُجيد العبثَ بثروة زوجها الغني، وتتباهى بعطاياها لمن حولها، وهذا ما ضايق سلمى، لأن الكرم بدافع التدخل بحياة الآخرين، يصبح صعب الاحتمال.

وكلما نبَّهت ماهر بأن الأفضل له أن يعتمد على إمكانياته، محافظةً على صورته كمناضل نزيه؛ سخر منها وذكَّرها بأن ما يتقبله من صديقه فاضل وزوجته ليس بدافع من الطمع، بل ليقين ترسّخ في فكره بأن ما بينهم من صداقة قديمة، جعلهم أُسرة واحدة، وأن ما ورثه السيد معروف لا يزري بتاريخه النضالي... وعلى ما يبدو لم تقتنع سلمى بمرافعته، لكنها لم تشُكْ بصدقه.

وفي يوم كان قد دعا رفاقه القدامى، احتفالاً بكاتب مصري كان سجينًا في عهد عبد الناصر، واستعاد حُريته في زمن السادات، وسبق لماهر أن التقاه في موسكو خلال سنوات الدراسة، ونشأت بينهما صداقة وثيقة. وبينما كانت سلمى تستعد لهذه المناسبة بفرح ولهفة، بخاصة وأنها قرأت كثيرًا لذلك الضيف، وما كُتب عنه، وكانت مبهورة بكمال أسلوبه الأدبي، وروايته الأخيرة «درب الهاوية» التي توقَّع فيها ما يشبه هزيمة حزيران، وكانت سبب اعتقاله. وفي غمرة انشغالها بإعداد عشاءٍ يليق بالضَّيف، زارتها مدام «معروف»، كما تحب أن تقدّم نفسها للمجتمع... جاءتها قائلةً بلهجة مُتعالية:

– لا تتعبي نفسك، فالعشاء سيكون في بيتي، وقد اتفقتُ مع ماهر، فبيتك صغير لا يصلح للاحتفال بالضيف الكبير.

صعد الغضبُ إلى رأس سلمى فما تمالكتْ نفسها، وراحت تمعن النظر بوجه السيدة المتطفلة، حتى قالت:

- لقد تجاوزتِ حدودكِ، كيف تسمحين لنفسك بتجاهلي إلى هذا الحد؟ أنتِ تفسدين حياتنا، وسأريكِ وجهي الآخر.

فوجئتْ مدام معروف بثورة سلمى، فهي لم تعتد منها إلا المجاملة والردود الهادئة، وفي الحال اتصلت بماهر وأخبرته بكل شيء. وعندما حلَّ الغد أعلن عن أول عاصفة بين الزَّوجين لا تحتمل نهايتها إلا الفراق.

ولكن قبل ذلك تعالوا معي لتستمعوا إلى خطاب سلمى الذي أعجبني. فالزَّوجة الغاضبة، كانت قد أضمرت أمرًا ربما ستتفقون معها على تنفيذه. لم يتوقع ماهر أن تحضر سلمى إلى بيت المرأة التي أهانتها، لكنها جاءت، وبكل ثقة وجلست إلى جانب حامد وسليم، وكلاهما رافقا ماهر في السجن لمراتٍ عديدة، لكنهما تقاعدا عن النضال بسبب خلافات مع حزبهما وصارا يُركِّزان على عملهما؛ أحدهما طبيب، والآخر موظف في وزارة العدل، وكانا يتوقعان أن يدعوهما صديقهما إلى بيته، إلى مكان حميم كي يسترجعا معه ذكريات أعوام طويلة... قطعت سلمى صمتهما وهمست:

- كنتُ أتمنى أن أستقبلكما في بيتنا، لكن هذه المرأة أقنعت ماهر بأن يكون حفل العشاء عندها، وأحضرتْ عازفًا على العود، ولا أعرف ربما ستغني لنا، لكني سأفسد سهرتها.

قامت سلمى لتتوسط الحاضرين وتلفت انتباههم، إلى ما ستقول، ثم توجَّهت إلى الضّيف المصري بعد أن عرَّفت بنفسها وصِلتها بماهر وقالت:

– يُسعدني أن تكون بيننا، أُبارك لك حُريتك وعودتك لعائلتك، وأتمنى أن تواصل كتاباتك.

شكرها وشدَّ على يدها، ظانًّا بأن ما ستقوله مزيد من الإطراء لشخصه، لكنه لم يبدِ ارتياحًا لما أضافته فيما بعد، ذلك لأنه صديق قديم للسيّد معروف. فقد اِلتفتت إلى الضيوف وواصلتْ:

– كنتُ آمل أن أستقبلكم في بيتي، لكن مُضّيفتكم الكريمة أرادت أن تُبهجكم بأثوابها الجديدة، وألوان الطّعام التي يُعدّها خدمها المساكين، فسلبتني حميميَّة اللقاء معكم يا رفاق زوجي القدامى، لذلك ألتمس منكم أن تعذروني. أما أنا فسأعود، لداري وأجلس بصُحبة كتاب، وأتمنى لكم وقتًا طيبًا.

نزل حديثها كصاعقة على رأس سيدة الحفل، لكنها تداركت غضبها بقهقهات مصطنعة، وقالت:

– أنتِ أختي الصغرى سأسامحك، ها ها ها.

كان ماهر يغلي في أعماقه، لكنه انتزع ابتسامةً هي أقرب إلى لغُصَّة، كي يبدو الأمر كما لو كان مزحة صبيانية من سلمى.

أما باقي الحضور فكانوا بين شامت صامت، ومدعٍ بالاستياء من «وقاحة» سلمى، هكذا قال محيي سعيد، وهو صحفي محترف يكتب للمدام قصصًا قصيرةً، تنشرها باسمها في

صحيفة محلية

في ذلك المساء كان على سلمى أن تواجه قرارًا صعبًا، أن تبتعد عن ماهر، وربما سيكون هو البادئ لأنها تحدَّته وأحرجته أمام ضيوفه وصاحبة البيت العتيدة، فقد أفسدت فرحتها، وصغَّرتها في عيون الحاضرين، ولم يغب عنها استياء بعضهم مما قالته، فالكثير منهم مناضلون سابقون، مواظبون على زيارتها وتذوق ما تجود به موائدها الزاهية بما لذَّ وطاب من الطعام والشراب. كما أن السيّد معروف لا يبخل عليهم بالمساعدة كلما ألمَّتْ بهم حاجة، فهم ما بين خارج من السجن مُحبط بلا عمل، أو مُتعب من طول سنوات الاختفاء، غير قِلّة منهم مازالوا يحتفظون بعلاقات تتيح لهم التفاؤل.

حاصرها القلق فعزّ عليها المَنَام حتى أشرق وجه الصباح. وبينما كانت تُفكِّر بما سيحمله الغد؛ عاد ماهر مثقلاً بمشاعر الغضب، ليبدأ بينهما حوار مُرٌّ، عصف بأشهر الوفاق، أنقل لكم بعضًا منه...

سألها بنبرة استياء عالية:

- كيف تجرَّأتِ على إهانة سيدة لها أفضال علينا؟

- أفضالها عليك أنت، لقد نفدت طاقتي على الصبر، ولم أعد أحتملها.

-كيف كنا سنعيش من دون مساعداتها؟

-كما يعيش أصدقاؤنا، ببساطة.

- عليكِ أن تعتذري لها.

- هل جُننت؟

- سأكون أكثر جنونًا لو لم تفعلي.

- ما خَطبُك، هل تحبها؟!

- أحبها كأخت، وصديقة مخلصة؛ رعت أمي في غيابي، وساعدت أخي وأقربائي، فسؤالك إهانة لي، كما أن تجاهلك لمكانتها وما يكنّه لها رفاقي من الاحترام، فيه أنانيَّة مقيتة، ثم ألا تعلمي أن زوجها من أقرب أصدقائي؟

- غريب! ما الذي يجمع بينكما، هو لا يكترث بأحاديثك السياسية والفلسفية، ولا أظنّه مهتمًّا إلا بحال السوق والأعمال، وهو مُغرم بقصص «أجاثا كريستي» وأفلام «جيمس بوند»، كما يبدو عليه الملل من نقاشاتك الطويلة. يؤلمني أن أراك بلا أصدقاء، غير هذه الأُسرة، ومن يَعيش على كرمها. أمس سمعت همسًا يشير إليك: «برجوازي»، فهل أنت حقًا هكذا دون أن أعرف؟

-حاذري، أنتِ تتجاوزين كل الحدود، وتفترين عليّ، ألا تتذكرين كم من الديون علينا أن نسددها، أنا «برجوازي»!، كيف تسمحين لنفسك بترديد هذه الوضاعة؟

- أنتَ تجفل من وقع الكلمة، لكنك تعيش معناها وأنت غافل.

- كفاكِ استهزاءً، اذهبي إليها الآن فهي في حالة صعبة، لم تكُف عن البكاء منذ أمس.

- وهل بقيتَ معها حتى الصّباح؟

– كنتُ مضطرًا بسبب حماقتكِ، وكان معروف معنا يحاول تهدئتها.

– مسكين، لا عمل له سوى إرضاءها. فلن أعتذر لها، هي من يجب أن تعتذر عن تدخُلها بحياتنا.

– وهل تعتبرين كرمها تدخُلاً؟

– بالطّبع، عندما لا يكون لغاية نبيلة.

– وهل من النُّبل أن تهينيها بكل تلك الوقاحة؟ إنك لتشبهين امرأة لم تتلقَ تعليمًا في حياتها.

– تعلَّمتُ كثيرًا، لكني فشلتُ في درس النفاق.

– تتّخذين هيئة حكيمة، مع أنك تصرّفتِ كخرقاء.

– هبني كذلك، لكني راضية عن نفسي، فقد قلت كل ما عندي.

– ولماذا لم تتذمري من قبل؟

– أخطأتُ بحق نفسي حين أسرفتُ في مجاملتك، ما كان ينبغي أن أصبر حتى يفيض كأسي.

– يا لكِ من ضحيَّة بائسة.

– مِنْ حقي أن أقول: كفى، هل هذا كثيرٌ عليَّ؟

– لا، مِنْ حقكِ أن تواصلي جنونك، ولكن عليكِ أن تتحملي عواقب ما فعلتِ.

– لا عليك، فكَّرتُ بكل شيء قبل أن أقتحم حفل صديقتك التَّافهة.

من المهم هنا أن أُنبِّه إلى أن ماهر كان رجلاً مهذبًا، لا يطلق

العنان لغضبه ككثير من الرجال، وأنا لم أنقل كل ما دار بين الزوجين، فقد أتعبني تشابك الكلمات ولم أفهم الكثير منها. حافظ الزوج على هدوئه على الرغم من غيظه الشّديد، بينما سيطر على محاورته نفاد الصبر والضيق، ربما بسبب فارق العمر، فالأكثر شبابًا أسرع في الاستجابة لثورة الشعور بالظلم.

غادرت سلمى الغرفة، وتركت ماهر في حالة من الغضب والاستياء، فصار يُشعل سيجارة إثر أخرى، ويقول كلمات لا رابط بينها هي أشبه باللعنات المتفرقة، متأكدًا أن سلمى لا تسمعه، فقد نزلت إلى الطابق الأرضي واستلقت على الأريكة في غرفة الضيوف. بدت مستسلمة لقدر يُوشك أن يعصف باستقرارها وأسلمت أجفانها لرقدة تخالطها الدموع.

كان عليها أن تُسرع بالذهاب إلى عملها، لكن شيئًا من الحب دفعها لتُطلَّ على زوجها بنظرة وداع لم تشك في أنه واقع، وكان قد تهاوى على سريره دون أن يغيِّر ملابسه بعد أن مسَّه التعب من طول محادثة مضنية مع مدام معروف.

تساءلت سلمى بصوت حزين، وكأنها تهمس لنفسها: ماذا لو لم تظهر تلك المرأة في حياتها، أكانت ستحظى بالهدوء وتنعم بالألفة مع شريكها؟

تَذَكَّرتْ رحلتهما الأولى بعد الزواج، كانا في غاية الانسجام والبساطة، كثير من الحب جمعهما دون أي تكلّف، حتى أن ماهر قال لها: إنها المرّة الأولى التي أشعر فيها بسعادة حقيقية، مع أني عرفتُ نساءً كثيرات لم يمنحنني مثل هذا الشعور.

تنهّدتْ وأطلقتْ حسرةً مسموعةً فيها شيء من المواساة: يا لها من أيام حافلة بالرضا والأمل.

تَذَكَّرتْ ما طلبه منها ماهر حين كانت تستعد لرحلة شهر العسل، أراد أن تضع في متاعها مسجلاً وبضعة كاسيتات لأغاني تشاركا في الاستماع إليها وترديدها. وتزاحمت في خاطرها مشاهد مُحببة؛ جلسات على شاطئ البحر، وأحاديث يفوح منها عطر المحبة... لكن الذّكْرى شيء، والحب حين يصبح ذكرى شيءٌ آخر، لذلك لم تُفاجأ سلمى بما كتبه ماهر، حين عادت في المساء ولمحت رسالة منه، صِيغت بأسلوب معدني مُسرف في الجفاء، يخبرها عن نيته بالانفصال عنها، وأن الطريق بينهما تراكمت فيه أحجار من صُنعها.

لم يُحزنها قراره لأنها أدركت منذ فترة لم تستطع تحديدها أن قرار زواجها منه لم يكن صائبًا، ولم تسبقه معرفة عميقة بشخصيته وطريقة حياته، فالمشتركات بينهما كانت عامة، أما العاطفة فقد فتُرت مع قلّة الاهتمام من جانبه. ولكل ذلك لم يصدمها قراره، بل وجدت فيه طريقًا للخلاص من رتابة أيامها، ومن صُحبة أصدقاء لم تخترهم؛ لكنها ولسبب لم تتبينه في تلك اللحظة من الشعور بالهزيمة، تردّدت عن حزم حقائبها وفكَّرتْ أن تنتظر لتتحدث مع زوجها علّ نفسه قد هدأت، وعافه الغضب.

انتصف اللّيل ولم يَعُد، وحين هاتفته في اليوم التالي قال لها:

– لا سبيل للتفاهم قبل اعتذارك للسيدة التي أهنتِها.

وكأي امرأة تحرص على كرامتها لم تَعُد تحتمل مزيدًا من التجاهل والظلم، فغادرت بيتها الذي أحبَّتْه وعيناها معلقتان بكل رُكن فيه؛ بستائره التي تعبت باختيارها، بلوحة لـ«فائق حسن» تبدو فيها غجرية حسناء، كانت تتوسط غرفة الضيوف، تمنت لو تأخذها معها، لكنها هدية من صديق ماهر... في خُلق سلمى عِزة وزُهد، وميزان عدل لا يفارق أفعالها، لذلك لم تشأ أن تأخذ معها أي شيء لم تبذل فيه مالاً أو جُهدًا، هكذا قالت وهي تتخيل من يحاورها وسط بيت غارق في السكون.

جالت نظراتها الحيرى في كل الزَّوايا، وهل تستطيع أن تحمل الجدران التي تزَّينت بلمساتها، ولاحت لها ذكرى عزيزة على قلبها، يوم زارتها العمّة «وجيدة» وأهدتها سِجَّادةً حريريةً ثمينة، هذه ستأخذها معها بكل تأكيد؛ لكنها التفتت إلى ركن عزيز عليها في غرفة نومها، هناك وضعت خزانة ثمينة أهدتها لها عمتها فوزية، كيف ستحملها؟ يا لها من تحفة مرصوصة بالذكريات، حُلوها تبدَّد، ومرُّها مقيمٌ.

وفي تلك اللحظة المشحونة بالأسى، تذكرتْ جلسة في بيت السيد معروف، كان الحديث عن رواية «تولستوي» الحرب والسلم، وحين قالت إنها استمتعتْ بقراءتها وشاهدتْ الفيلم المأخوذ عنها؛ بادرتها سيدة البيت بسؤال يفتقر لأدب الضيافة: أحقًا قرأتِ الرواية؟ لعلّك شاهدت الفيلم فقط، ثم ضحكت باستهزاء... لم يُعقِّب أحد على كلامها، وما بدا على ماهر من الاستغراب لسؤالها الوقح، بل أنه بادلها بابتسامة ذات مغزى.

ارتجفتْ يدها وهي تهِمُّ بإغلاق باب الدار، واستدارت لتلقي نظرةً أخيرةً على أشجار النارنّج في حديقتها وقد أثمرتْ، كان تُبهجها حين تَتَفتَّح أزهارها ويضَّوع عطرها الزَّكِيّ. كل ما في البيت يحدِّث عنها وعن أمنياتها بأُسرة سعيدة، ليتها تأخذ كل ما تُحبه، لكنها لم تحمل سوى ثيابها وكُتبها وسجادة وجيدة.

توجَّهتْ إلى بيت عمتها فوزية، ونامت ليلتها الأولى بعيدة عن الرجل الذي تخيَّلتُه مصدرًا لسعادتها. فمن قلب الأحزان يُولد فرحٌ لا يَجرُأ على الصرخة الأولى للوليد.. هكذا كانت العمّة وهي تحتضن سلمى، ولكن كيف تُصرِّح لها بأنها سعيدة بما حدث بينما ابنة أخيها ظلّتْ تائهةً بين بقايا حب وجرح كرامة.

وتمرُّ الأيام والأشهر ومازال حبل المودَّة مقطوعًا بينهما إلا من محادثات قليلة يؤكد فيها ماهر على أن البيت بيتها، وأنه مستعد للسَّكن عند أهله، هي حاولت أن تُصلح ما انهدم لكنه لم يُصغِ وأصرَّ على شرطه، ولم يتوقّع أن تضطره الظروف إلى أن يتمنّى لو تعود إليه.

يقترب العام من نهايته، وتزداد غيوم السياسة حتى تغلق الآفاق، والنظام يحكم قبضته على رقاب الناس، وما أغلقه من السُّجون عاد ليفتح أبوابها ويلتهم الحُرِّيات والأمن.

يشعر ماهر لأول مرة بالوحدة والجزع ويفتقد سلمى، ولا يشك باقتراب كابوس السجن بعد أن طال رفاقه القدامى، وها هو إلى جانبهم، في سجن مُظلم ومستقبل مجهول، وما من أحد يعرف أخبارهم. ولشدّ ما كان مؤلمًا أن تضطر أخته

المريضة للبحث عنه، وتتحمل إهاناتٍ من خدم النظام، وسخرياتهم... بينما أسرعت مدام معروف لتغادر بغداد برفقة زوجها وأولادها، ولم تبذل أي جهد للسؤال عن ماهر، مع أن لديها أقرباء يستطيعون المساعدة.

(٢)

أحلام العمَّة فوزية

ما زلتُ أُقلِّب في أوراق سلمى، وأعبُر صفحاتٍ كثيرة كي أكتشف قصصًا جديدة، حتى وصلتُ إلى حكايةٍ شُغِفْتُ بها وأبكتني. ولعلكم ستعجبون -أو تستاؤون- من مواصلتي الرواية عنها، لكني بكل صدقٍ أشفقتُ عليها، وقدَّرت أنها لن تكتب هذه السطور من دون أن تبكي.

عابر سبيل

عندما بلغَتْ عامها الحادي والعشرين تَسَلَّمَتْ فوزية وظيفَتَها مُعلمةً في مدرسة ابتدائية، فكان عليها أن تغادر أحلامها في الدراسة الجامعية، وتَقْنع بنصيبها من العِلم، وما جلب لنفسها الرضا والشعور بالمسؤولية أن عائلتها كانت محتاجة إلى مُرتبها.

صدر قرار تعيينها في مدينة بعيدة، لم يسبق لها أن زارتها، ومع أن والدها كان مُحافظًا، لم يُمانع ذهابَهَا، فالحاجة قاهرة... وهكذا بدأت تستعد لرحلة غريبة وشاقة.

في ليلة السفر جلست في غرفتها الصغيرة إلى جانب الراديو الذي كان أثمن مقتنيات العائلة، تستمع إلى مطربها الأثير «فريد الأطرش»، في شدوه الحزين، وتكتم دموعًا ما لبثت أن سالت على خديها عندما انساب «لحن الخلود» في روحها التائهة ومسَّها شوقٌ إلى كائنٍ لا تعرفه، ثم سكت الصوت الرخيم على وقع خطوات قريبة، فلم يشأ أبوها أن يتركها في عُزلتها، فجاء إليها ليُلقي عليها بعض النصائح، لكنه فوجئ بكمِّ الصور المُعلَّقة على الجدران، وكلها كان لمطربها المحبوب، فتساءل بغضب:

– منذ متى وأنت تضعين هذه الصور؟ ألا تستحين؟ ما الذي يبكيكِ يا حمقاء؟

وصار ينزع كل صور فريد ويمزِّقها مُتمتِمًا:

– يا لضياع العقل والأخلاق! أهذا ما ستُدَرِّسينه لتلميذاتك؟

لم يُبالِ بتوسلاتها وترك جدران غرفتها عارية من كل ما تُحب، فزاد حزنها وتخيَّلت نفسها مجرَدة من كل ما عليها، تائهة في صحراء قاحلة، كأن تلك الصور كانت عالمها الصغير وخيمتها الدافئة.

في الصباح حملت حقيبتها وخيبة أَمْسِها من دون أن تُودِّع إخوتها، تركتهم في نومهم، وتحملت يقظتها الموجعة، تُرى أي ذنبٍ في أن تحب الغناء وتعشق صوت فريد؟

تذكَّرت أخاها عدنان وحديثه السقيم عن طيش الشباب، وكيف وبَّخ أختها المتزوجة حين قالت إنها تحب عبد الوهاب، قال لها: «يا له من استهتار! تحبينه وأنت متزوجة؟!».

سخرَتْ من كل ذلك، من عقول تخاف من كلمة حب، وتحذر من نغمة تمس القلب.

أكثر ما كان يشغل فوزية البيت الذي ستسكن فيه، بيت عمها الغني، ذو الطوابق الثلاثة. أولاد عمها تسعة، ولا تذكر متى رأتهم أخر مرة، ربما في عامها العاشر، تُرى هل سيحسنون استقبالها؟ خمَّنَت أنها يمكن أن تسكن في الطابق الثالث كله، فلا أحد يشغله كما أخبرها والدها، وهذا ما حصل فعلًا، أمَّا «لماذا؟» فالمفاجآت بانتظارها. لِيَكُنْ، فهذا كرم لم تتوقعه، شيءٌ من الفرح لامس بساطة روحها، فالآن بإمكانها أن تزين جدران غرفتها بكل صور المطربين.

ما الذي جعل سلمى تتذكَّر عمتها؟ لعلَّه النغم الحزين، وشرفةٌ مقابلة لشُبَّاكها، جلست فيها سيدة ثمانينية، تحتضن

مسجلًا صغيرًا، تضعه قُرب أذنها، تُرى هل كان فريد يغنِّي لها «بتبكي يا عين على الغايبين»؟

كأنه حلم طويل، رأت نفسها في ذلك البيت الشرقي، وشجرة الأترج (الكبّاد) تتوسطه، والجِرار الفخارية تصطف في زاوية ذات سقف، وهذا جدها بعمامته الخضراء، ينادي فوزية كي تُطعم القطة الجائعة، كم كان حنونًا، لكنه مسكون بالتقاليد وظُلمات من الأفكار.

شردت سلمى وراء غيمة تُوشك أن تُلقي بأثقالها لتُنعش مزيدًا من رماد الذكريات، رأت فوزية في أول يوم من عملها في «مدرسة أمّ سَلَمة»، المكان الذي فتح لقلبها نوافذ على الحياة، وأتاح لها فرصة حُبٍّ نادرة، وفي أجواء الجنوب الساحرة، وأهواره المعانقة للسماء، عرفت جمال الصحبة والمحبة، رقّة الأشعار ودفء الحديث.

كان ذلك بعد لقائها بـ«صُهيب» زميلها في المدرسة، الذي منحها كل اهتمامه منذ اليوم الأول لقدومها، ومع توالي الأيام وشراكة العمل تآلف قلباهما وأزهرا بحلو الوعود. طابت أوقاتهما وصار لهما منزل تحت ظل شجرة وارفة الظلال، يَأويان إليها قبل طلوع النهار، يطيب لهما الحديث حتى تشرق الشمس وترسل في شعاعها بشائر يوم جديد، وتُنذر العاشقين بأن يعودا إلى بيتهما سالمين من أعين الرُّقباء.

هكذا ظلَّ الحال، وظنت فوزية أنْ لا نهاية لسعادتها. أما صهيب فلم يبخل عليها بالوعود وأقسم لها ألَّا يفارقها...

فلماذا لم يدُم ما بينهما؟ وتواطأ الأقربون والأبعدون كي يفرِّقوا بينهما؟ أتراه اختلاف الدين؟ أي دين ذلك الذي يُنكر الحب بين الناس؟ أَوَ لَيْس الإله واحدًا لكل البشر؟

ويا له من حنين يعبر كل الأسوار، لكنه يصطدم بصخرة التقاليد! أجل لا بُدَّ من الفراق، ولكن ألا يستحق العاشقان لحظة وداع؟

قالت له:

يوم أحببتُك أغمضتُ عيوني
لم تكن تعرف ديني
فعرفنا وافترقنا دمعتينِ (*)

كلمات طالما ردَّدتها فوزية وهي تنعَى حبها الذي منحها جناحَيْ فراشة، وحلَّق بها في سماواتٍ غير مرئية إلا لقلبها النابض بالأمل، حُبها الذي أغنى فؤادها مع أن الحبيب مرَّ كنسمة تناهبتها الرياح.

يا لفوزية الطيبة! تَذكَّرتها سلمى وأذِنَت لخيوط الدمع أن تنسج حُزنًا طافحًا بالملامة، تُرى ما الذي قدَّمتهُ إلى عمَّتها، وهي التي غمرتها بحبها وكرمها؟ ولو كان للأشياء أن تتكلم لقالت كل قطعة أثاث في بيتها كيف استقرت في زواياه الصغيرة. فبعد انفصالها عن ماهر، لاحقتها شماتة العائلة، ولم تجد صدرًا حنونًا غير عمتها التي استأجرت لها بيتًا وانتقلتْ

* من قصيدة للشاعرة العراقية «لميعة عباس عمارة».

لتعيش معها، فأي قدر موحش أبعدها عن بلادها فلم تكن إلى جانبها في لياليها الحالكة؟ لماذا تورَّطت في الزواج بماهر فصار عليها أن تترك بلادها؟

لكن مهلًا، هي ليست حالة خاصة، ففي الشَّتات مئات آلاف الغُرباء، حتى ممن لم يتعاطَ السياسة في حياته، إنه قدَر البلاد وخارطة الحروب، بل سخرية التاريخ من آمالنا التي لم نحصد منها غير فرقة الأهل والأحباب.

وتمضي الأعوام عَشرةً وسلمى في غُربتها، لا تعلم شيئًا عن عمتها الحنون، ولا عن باقي أهلها، حتى وصل إليها هاتف من شقيقها تمنَّت لو ترفَّق بها ولم يقل شيئًا.

لنعُدْ إلى فوزية، ففي قِصَّتها بعض ما يُبهج القلب، فبعد عودتها إلى مدينتها، ومواجهتها لعاصفة عائلية بسبب قِصَّتها مع صهيب، أسدلت ستارًا قاتمًا على قلبها، فما عادت تحلم أو تمنِّي النفس بأي باعث على الفرح، حتى ملابسها مرَّت عليها أعوام بدون أن تُجدِّدها، وغزا الشيب سواد شعرها، ولكن كل ذلك لم يؤثِّر على نظرة الناس إليها، فالمَلاحة وخفة الظل ميَّزَتَا طلَّتها.

رفضتْ كثيرًا من الخُطَّاب، ما أثار حفيظة والديها، فأجهزا عليها بالسؤال، وأصَّرت أمها على أن تكشف عليها طبيبة العائلة، وعلى الرغم من الإهانة التي لحقت بها، فقد نزلت عند رغبة أمّها ووافقت على الكشف. وعندما زَفَّت الطبيبة خبر عُذريتها، تورَّد وجه الأم، ولاح الفخر على مُحيا الأب. ومنذ ذلك الحين تُوِّجت البنت التي صانت نفسها أميرةً على البيت.

ومن باب السخرية أظهرت فوزية امتنانها لاحتفالية الشرف، وذلك العشاء الفاخر الذي أعدَّته أمها وخالتها.

ويمضي العمر بها بطيئًا مُوحشًا، وتبلغ عقدها الرابع، بِلا بارقة مِن وَصلٍ بمن تحب، فينضب الخيال، وتشِحُّ العاطفة ولا شيء غير العمل والبيت، وهذا كان يرضي أهلها ويولد القناعة لديهم بأن قطار الزواج قد فاتها.

لكن الحياة في تقلباتها تضعنا أحيانًا على أبواب مصادفة تهدينا حُبًّا بسيطًا وجميلًا. ففي يوم مشمس رائق النسيم، سافرت فوزية لتفَقُّد مزرعتها في ضواحي المدينة، وكان عمها الغني قد كتبها لها في وصيته، اعترافًا منه بفضلها في رعايته بعد أن هجره أبناؤه العاقّون، وفيما هي تتحدث مع الفلاحين، شردت عيناها صوب شاب ألقت الشمس على سُمرة وجهه مسحة من حُسنٍ قلَّ نظيره، وما كان يدرك كم من السحر تخبئه عيناه العسليتان، وكم من القلوب تهفو إلى نظرة منه. حين لاحظ انشغالها بالنظر إليه، حيّاها عن بُعد وأوشك أن يتوارى، لولا إشارة من أبيه بأن يأتي للسلام على الزائرة مالكة الأرض.

اقترب «حمدان» وألقى عليها التحية ثانيةً بدون أن يرفع نظره صوبها. كان يصغرها بخمسة عشر عامًا، وإن بدا أكبر من عمره بحُكم عمله الشاق، فإخوته يدرسون في المدينة، وهو وحده يساعد والديه في خدمة الأرض. لازمه الخجل وهو يصغي لحديث أمه عن أخلاقه وأدبه، وأنه أفضل أبنائها، غير أن سوء الحظ رافقه ففقد زوجته، وهي تتمنى له ابنة الحلال

التي تُسعده، قالت ذلك وأرسلتْ ابتسامة مُلَغَّزة لم تخطِئها فوزية، ما زاد من حرج الشاب فتلوَّن وجهه بحُمرة زادته ألقًا، واحتار كيف ينهي المشهد، فتعلل بمشاغله وودَّعهم، وما زالت العيون ترقبه.

بعد هذا اللقاء واظب حمدان على زيارة فوزية، وصار يحمل لها سِلال الفاكهة من محصول أرضها، مدفوعًا برغبة والديه.

في البداية لم يكن مرتاحًا لهذه المهمة، لكن مُضيِّفته جعلته يشعر كما لو كان في بيته، فأَلِفَ المكان وأحب المدينة، وتعلَّم كيف يتخلص من خجله ويبادل سيدة البيت نظراتها الودودة. لم يكن ذلك سهلًا فقد تطَلَّب منه شهورًا، ومنها صبرًا طويلًا على نداء عاطفتها، وحين أوشكت أن تصارحه بما يجيش في صدرها من شوق إليه، أجابها بنظرة ملكت منها الفؤاد، تردَّدَتْ لكنه قال: «ماذا ننتظر؟ لماذا لا نتزوج؟!».

كانت لحظة واعدة تساوي عمرًا قضته فوزية في انتظار الأجمل في حياتها. وهكذا اجتمع شمل الحبيبين من دون أي اهتمام بما سيقوله الآخرون.

وما إن عُرف خبر زواجهما حتى هاج الإخوة والأخوات، وثارت ثائرتهم، وليس على لسانهم سوى أن أختهم فضحتهم وتزوجت فلَّاحًا، ولم يتورعوا عن وصفها بالعجوز المتصابية، مع أنها ما زالت جذّابة تلفت الأنظار. يا لهم من أوغاد يلبسون ثوب العائلة!

لم يكن لفرحها مثيل، وقد أطلعَتْ حبيبتها سلمى على كل

التفاصيل المبهجة، كيف تسعد في أيامها مع زوجها، وأي نور يسطع من جبينه في كل صباح، وكم من وعودٍ وورودٍ يهديها إياها في كل نظرة. صادق هو معها، محبٌّ يَنشُد رضاها. ولَشدَّ ما أحزنها ألا يدوم ما بينهما، وأن يغيب عنها شهورًا طويلة في جبهات القتال.

كانت تموت كل يوم كلما أعلنوا أسماء القتلى، وكلما ناحت جارة على ابنها أو زوجها، وكم علَّلت نفسها بعودته، لكنه لم يعد، بل عادت بقاياه، ولم تميِّز منها غير خاتمه الذي أهدته إياه.

يا لِحظها العاثر! أيكون عمر سعادتها عامين فقط؟ ولمن ستمنح عمرها الباقي؟ وكيف ستلقى الشامتين من أقربائها؟ لم تقبل تعازيهم، إلا من ابن اختها زينب، وكانت تغدق عليه من مالها ومحبَّتها حتى إنها شجعته على الزواج بصديقته قبل أن يكمل تعليمه، وتعهدت بدفع كل ما طلبه أهل العروس، ما أغضب أختها، فلم يكن الشاب قد تجاوز العشرين من عمره.

كل ما تمنَّته نفسها الظامئة أن تميل برأسها وتلقي بهمومها على صدر حنون، أصوات تنوح في أعماقها، تلهج بِاسم سلمى، تناديها فلا تسمعها، تكتب إليها وتأمل أن توافيها، لكن الرسائل لا تصل في زمن الحروب، فالرقيب يلهو بالبريد ويحجب ما يريد، وليس بوسع الحزانى غير صبِّ الدمع...

– آه يا ابنة أخي الغالية، ليتك تسمعينني فتعودين لنتقاسم الهموم، ونرضى بقدرنا.

هذه الكلمات كانت أخر ما كتبته العمَّة قليلة الحظ، ولم يمهلها الوقت لإرسالها، فقد فاضت منها الروح قبل أن تطوي الرسالة.

وما علمت سلمى بما كانت تقاسيه عمتها إلا بعد انقضاء سنوات على رحيلها.

(٣)

أُمِّي التي لم أعرفها

بقيتُ منشغلاً بسلمى راغبًا في معرفة كل شيء عنها. خبَّأتُ أوراقها حين لمحتها تدخل المقهى، وصرتُ أنظر إليها بشوقٍ ظاهر، وخشيتُ أن تلمح نظرتي الشاردة صوبها، لكنها عرفتني وأقبلتْ تحييني، سألتني:

– هل عثرتَ على دفترٍ ضاع مني يوم التقيتني قُرب محطة القطار؟

أجبتُ بِـ«لا»، وتردَّدَت لاءات في مسمعي: «لا لا أنت كاذب».

وخزة من ضمير جعلتني أستقيل من الرواية، وأترك الحكاية لسلمى، فالكلمات عن أمها.

عابر سبيل

يوم تركتُ بيت زوجي وذهبتُ لأعيش مع عمتي، جمعنا همومنا وصرنا نقلِّب الماضي بحلوه ومُرِّه، سألتها عن أُمّي، ولُمتها لأنها لم تقُل لي الحقيقة منذ صغري، وأذعنت لرغبة جدّي وعمتي الكبيرة التي أقنعتني بأمومتها فصرت أناديها (أُمي) في السنتين الأوليين من عمري، قبل أن تنتقل إلى مدينة أخرى بحُكم عملها معلمة.

اعتذرت فوزية وقالت إنها أشفقت على أختها التي فشلت في زواجها، وكانت مولعة بي وتوّاقة للأمومة التي لم تحظَ بها.

علمتُ منها كل التفاصيل عن سيرة والدي في أوائل شبابه، وعشقه الأول الذي لم يُكتب له الحياة، ثم زواجه السريع بأُمّي. كان يهوى ابنة عمه، ولم يكن قد بلغ عامه السادس عشر، يكتب لها أشعارًا ورسائل تتوهج بالعاطفة، غير هيَّاب من عيون الرُّقباء، مُخلصًا في مشاعره، لا يحسب أن لِحُبه نهاية. لكن الأمور لم تجرِ كما كان يرغب، فحين أفضى لوالدته بسر حبه، وطلب أن تخطب له ابنة عمه «نجاة»، تولَّتْ عنه غاضبة، وقالت:

– أتريد الزواج بابنة الحيَّة؟ يا لك من ولد عاق! ألا تعلم كم تكرهني أمُّها؟

ليس هذا فحسب، فقد لقي من أبيه أشدَّ تعنيف، ما جعله يتوهَّم أنه ارتكب عملًا دنيئًا، فانكفأ على نفسه، وصار يذرف الدمع، ويعاف الطعام، حتى نَحُل عوده وما عاد يقوى على

المشي إلا مُتكئًا على عصا. ولأجله اجتمعت العائلة وقررت أن خير دواء لحالته العصيبة، أن يبحثوا له عن عروس تنسيه حبيبته.

وهكذا وقع الاختيار على والدتي. كانت صبية جميلة، ممشوقة القدِّ، زاهية الملامح، تلوح كالفجر بشعرها الأشقر الوهّاج، وحيدة أمّها وسلواها. كانت على أعتاب عامها الثالث عشر حين أقبل الخُطَّاب على دارها، جدّي وعمتي الكُبرى جاءا يطلبان يدها لأبي.

اغتمت الأم لأن الزيارة نذير بفراق وحيدتها، وهي صغيرة لم تذهب قط إلى المدينة، كما أنها لا تعرف حياة البيوت المغلقة، فقد تربت في بيت ريفي مفتوح على بستان أبيها الصغير، كانت تعشق الحرية ورائحة القَدَّاح، تعلمت كيف تتسلق نخلة الدار وترمي الرُّطب على حصير، سمَّتها أمّها «فرحة»، ولم تشأ أن تفارقها، لذلك لم توافق على الخطبة، لكن جدّي ألحَّ عليها وذكَّرها بمرضها، وما سيؤول إليه حال ابنتها من بعدها، وطلب إليها أن تفكِّر ريثما يعود بعد أيام.

تساءلت الصبيَّة عن مُراد العَمة والجد، فشرحت لها أمها وحاولت أن تقنعها بفكرة الزواج، واقترحت عليها أن تزور بيت الخطيب، وهو من أقربائها البعيدين.

ابتهجت فرحةُ، فهي لم تذهب إلى المدينة منذ زمن بعيد. وهناك كان أبي ينتظر عروسه الموعودة بملل وعدم اكتراث، غير أنه فور أن رآها عقدت الدهشة لسانه، وصار يتمعن في

جمالها وبهاء طلعتها، لم يقوَ حتى على السلام، وظل منبهرًا بفتوتها المزهرة. أما هي التي ألِفت فضاء الريف وشربت عفوية الحياة هناك فقد بادرته بالسلام، وحَيَّت الجميع بكل محبة، فيما كانت العمات يستطلعن كل تفاصيلها وألوان ثيابها، ويستغربن جرأتها، وهن اللواتي ألِفن طاعة التقاليد.

كانت فرِحةً مُشتاقةً إلى كل شيء جديد، تَوَّاقةٍ لتغيير حياتها، تحلم بالذهاب إلى المدرسة، فلم تَكُن أمها لتسمح لها بأن تسير مسافات طويلة بين البساتين لتصل إلى المدرسة الوحيدة في القرية، وما كان بوسعها أن ترافقها بسبب مرضها.

أَنِسَت فرحة لترحاب أهل الدار، وثناء عمتي الكبيرة على حُسنها، ووعدتها بأن تجهِّزها بأحلى الثياب، وبفستان عُرس لم تلبسه فتاة من قبل. ولم تكتفِ العمة بذلك، بل أمّلتها بأن تسجلها في المدرسة التي تُعلِّم فيها، وهذا أكثر ما جلب لها السرور، وخُيِّلَ إليها أن حلمها سيتحقق بعد الزواج، وسُرَّت بكل ما شاهدته في البيت الشرقي، بحوض الدار والأسماك الملونة، وصارت تلعب مع القطط الثلاث.

كان أبي يراقبها ويدنو خطواتٍ منها، فيما كان الكبار في غرفة الضيوف منشغلين عنهما بالحديث عن متطلبات الزواج. ومع أن الصَّبِيَّة لم تفهم ما يعنيه وجود رجل في حياتها، وأن تُساكنه في غرفته، لكنها بدت راضية وموافقة، ووعدتها أمها بأن تزورها كل أسبوع.

وهكذا ارتاحت القلوب ولاح للعاشق الشاب أنه نسي ابنة

عمها، وسيحظى بعروسٍ تشرح قلبه.

وما هي غير أيام حتى عُقِد قران الشابّين، وصارت العروس الصغيرة واحدة من عائلة كبيرة ذات تقاليد غريبة عليها.

أول ما كان عليها أن تفهمه هو توزيع العمل في البيت بينها وبين العمَّات، وهي في فتوتها وصحتها لم تبالِ بكثرة الأعباء التي أُلقيت عليها، لكن ما أحزنها هو طول بقائها في البيت، فليس لها أن تخرج من الدار إلا بصُحبة جدتي أو عمتي الكبيرة، وكان أبي قد سافر إلى بغداد للدراسة في «دار المعلمين العالية»، ولم يكن مهتمًّا بالبقاء معها، ففي إجازته الصيفية يظل مشغولًا مع أصدقائه، وربما أجد له العُذر فلم يكن مهيَّأً لدور الزوج في سن السابعة عشرة. والحقيقة أن أمي لم تشقَ لغيابه، لكن ما لم تستطع احتماله وتركَ في قلبها حسرة، مشهد يتكرر كل يوم: العمَّات الثلاث يتناولن الفطور الذي تعدّه، ويُسرعن إلى المدرسة، وهي تراقبهن وتتذكَّر وعود عمتي، فلا هي علَّمتها القراءة والكتابة على أصولهما، ولا استجابت يومًا لطلباتها المتكررة بأن تَفِي بوعدها. وفوق كل ذلك لا أحد يأخذها لزيارة أمها المريضة.

كثيرةٌ هي التفاصيل، لكن الأهم أن الزواج لم يَكُن موفَّقًا، فقد عاد أبي إلى عشقه الأول، وصار يكره أمي ويتحكم بها، فهو مَيَّال إلى التسلط، ومع هذا يدوم الزواج كَسَيْرُورة حتمية لِنهج التخلُف، وَوَهْمٍ لدى كبار البيت بأن دَيْمُومته تقتل الحب الأول. ثم يُولد أخي عَمَّار وأنا من بعده، ليكتمل شقاء أمي وقلَّة حيلتها.

وإذ يشتد الخصام بين الزوجين، يزيد المرض على جدتي وتُضطر أمِّي إلى البقاء إلى جانبها فترة طويلة. وبعد عودتها تُفاجأ بأن أبي قد طلَّقها، وعليها أن تعود إلى أهلها بدون ولديها.

في ذلك الحين كنت رضيعة في عامي الأول، لذلك أصرَّت على أن تأخذني معها، لكن أبي رفض، وهدَّدها بأن يرميني من السطح. كان متجبِّرًا ولم يجد أحدًا يردعه عن طيشه، فماذا تفعل الغريبة الشابة غير أن تعود لأمها مقهورة، محرومة منا؟!

وتمضي الأشهر على «فرحة»، قاسيةً موجعةً، بعد رحيل والدتها، كيف لها أن تعيش بدونها، وأن تُسكت الأنين في صدرها؟! الليل يفزعها وأطياف الراحلة لا تنفك عنها، فماذا تفعل؟ فكرت أن تذهب إلى عائلة طليقها لترى ولدَيْها، علَّهم يرأفون بها، وربما يَقبلون أن تعيش معهم وتربِّينا، فقد علمت بزواج أبي بزميلة له في التعليم، وأنه ما عاد يهتم بنا.

ويا للوعتها حين رأتني وسمعتني أنادي عمتي: (ماما)! حاولَتْ أن تضمني فابتعدتُ عنها، وأخي الآخر كان قد نسيها، لكنه ظَلَّ يحدِّق بها بعينين متسائلتين. المشهد بالغ القسوة، فبعض النفوس أقسى من الحجر.

عادت أمي إلى قريتها، لكنها فوجئت بزيارة خالي الذي لم تره منذ أعوام، جاءها بدعوى استحقاقه المزعوم في تِركة أمّي، وهي لم تكن تعرف بأنها هي الوارثة الوحيدة، ثم أخذها لتعيش معه، فليس مسموحًا لمطلقة شابة أن تعيش لوحدها.

قرَّر الخال أن يزوِّجها أحد أصدقائه، وكان رجلًا كبيرًا له أولاد

كُثر... لم تعترض، فقد كان ميسورًا حسن الأخلاق، ودودًا. كان شرطها الوحيد على الزوج أن يأخذها لتعيش في بغداد، كي تكون قريبة منّا وتزورنا بين حين وآخر، من دون أن تخبرنا بأنها أمّنا، وهذا ما اشترطه أهل أبي.

عمتي الكبيرة كانت تعطف عليها، وتشعر بالذنب لأنها أخلفت وعودها معها، ولم تساعدها في محنة طلاقها.

وفي يوم فاض الحنين بأمي، وثقُل عليها أن تراني أنادي عَمَّتي: (حبيبتي ماما)، وكنت حينها قد بلغت عامي الثامن، بكت وتكسَّر صوتها وهي تنتحب وتقول:(أنا أمك وليست هي). تَسَمَّرتُ في مكاني ودارت عيناي بين الاثنتين، فيما اقترب منها أخي وظلَّ صامتًا.

كانت في البيت سيدة كبيرة ترعانا وتسهر على راحتنا، وهي التي قامت على تربيتي، لجأتُ إليها وسألتها: (من أُمّي) فأشارت إلى فرحة.

وفي تلك اللحظة ارتاح السؤال الذي كان يشغل عقلي الصغير؛ كيف يكون أبي أخًا لأمي التي هي عَمَّتي؟ حينها أقبلت على أمّي وسألتُها:

– لماذا تركتني أنا وأخي؟

لم تجب، وصارت تبكي وأنا أراقبها بحزن، ولا تعرف سنوات طفولتي كيف تُجبَر الأمّ على مفارقة أولادها.

لا بُدَّ لي أن أعتذر إلى مَن يقرؤونني عن طول روايتي، لكنه الشغف الحزين بذكرى أُمِّي، ولكم أن تطلبوا الاختصار.

سأتجاوز كثيرًا من الآلام التي عبرتها، فقط أسألكم أن تفكروا معي، كيف لأرملة شابة ليس لها سند من عائلة أو مال، أن تواجه الحياة وهي تحمل ستة أولاد، أكبرهم في الخامسة عشرة؟ أجل لقد مات زوجها بعد أن عاشت معه عمرًا من المودة والصفاء. وكما يحصل غالبًا فقد انقَضَّ عليها الورثة من أبنائه، وأخذوا كل شيء ولم يتركوا لها غير الفتات، ولم تشفع لها وصيّة الراحل لها بِثُلث ثروته، فقد امتدت يدٌ وأخفتها، وصار عم الأولاد وصيًّا عليهم، وأكل مالهم.

وهكذا وجدت نفسها تشارك الورثة دارها التي اقتحموها، وعليها أن ترضى وتتعايش معهم، إلى أن يشتدّ عود ولدها البكر، ليعينها على المعاش.

لم أكن أعرف أي شيء عن معاناتها، وهي لم تشأ أن تشغلني بمشكلاتها، غير أنها هاتفتني ذات يوم، وكنت وحدي في الدار، وطلبَتْ أن أزورها، فقد صار عندها بيتها الخاص. دُهشتُ من قولها، فسألتُها: (أين كنتم تعيشون إذًا؟) لم تجب، لكني فهمت من نبرة صوتها أن السؤال كان ذا طعمٍ مُرّ، فأنا لم أزرها بعد وفاة زوجها إلا مرة واحدة بصحبة عَمَّتي. رجتني ألا أتأخر فلديها مفاجأة.

وهناك في بيتها الصغير المرتَّب، فاض الحنين في كل أرجائه، وتحدَّثَت البساطة لغة طالما اشتقت إليها، فلا عُقَدٌ ولا تقاليدُ لا معنى لها، أنِستُ لكل التفاصيل، للموقد الصغير المُذَّهب لا تنطفئ ناره، فشاي أُمِّي لا يبرد على مدار اليوم، للريحان تقطفه أختي الصغيرة، وتشمُّه، لشجرة البرتقال تقف

وحيدة بحديقة الدار...

كان يومًا بهيجًا لم أعتده من قبل، أنا التي تربيت بين الكبار، بعيدًا عن إخوتي وأخواتي، وافتقدتُ المرح واللعب مع الصغار. وكانت المفاجأة، إنهم يحتفلون بعيد ميلادي، يا لطيبة قلوبهم وصفائها، ولكن مع السرور الذي شاع في نفسي، استيقظ الوجع القديم، وصورة أمي في يومٍ خرجت عن صمتها وقالت: (أنا أمّكِ).

أتساءلُ أحيانًا كلما تذكَّرتها؛ لماذا لم أزرها إلا نادرًا؟ ألم يكن ليُفرح قلبها أن أتفقدها بين الحين والحين؟ لماذا عجزتُ عن إدراك ذلك، ولم أفكّر أو أحاسب نفسي؟ لا أدري، لكني أحاول أن أعبر على كل الأسئلة، وأعود إلى عمق الذاكرة، إلى مشهد أسعد سنواتي الخمس، حين رأيت أول إخوتي منها، كانت حديثة الولادة، تحفُّ بها جاراتها اللواتي جئن لتهنئتها بالوليد. أذكرها بثوبها الأخضر الزاهي تزينه قلادة ذهبية تثقل عنقها الرشيق، كانت سعيدة، فزوجها رجل طيب، مُحب لها وحريص على رضاها، وقد بالغ في حفاوته بنا أنا وعَمَّتي وأخي، وجلب لنا كثيرًا من الحلوى والهدايا.

صورة أخرى لن أنساها، ليلة قضيتها في بيتها بين إخوتي وأخواتي، وقد بلغوا عتبة الشباب، إلا اثنين منهم كانا طفلين. سهرنا وطال الحديث حتى مالت جفوننا وغفونا، كنت سعيدة وأمي لم تفارقها البسمة، وكادت ملامحها تنطق بأمنية قديمة: (ليتكِ عشتِ معي). بعد ساعات من النوم المريح، أفقت على صوتها الرقيق وهي تدعوني إلى الفطور. يوم نادر في حياتي،

حتى الطعام كان له مذاق طيب لم أعهده، فكأن الزمن يرجع بي ويعيدني إلى حضن أمي.

اليوم وأنا أطوي العَشَرة تِلو العَشَرة من عمري، يزيد إحساسي بالماضي ويأخذني الحنين إلى بيت أمي، وأتخيل ضفائرها التي خطَّها الشيب، صُورَتَهَا وهي تحتضن أحد إخوتي وكان عائدًا من جبهات القتال، وتعلمون كيف تنقطع أنفاس الأمهات وهُنَّ بانتظار عودة أبنائهنَّ.

أمّي لا نظير لها في صبرها وكفاحها، قوية، جريئة، لكنها تعشق الورد، وكم جلبَتْ لنا -أنا وشقيقي- من باقات ملونة، تفوح بعطر الجوري، كنا نأخذها منها ونلهو، ولا نعرف أنها أمُّنا. ولعلَّ روحها الجميلة تسكن في قلب كل وردة.

(٤)

لا لونَ لهُ... لكني أراه

ألتمسُ العُذر من القارئات والقرَّاء، لأني قدَّمت هذا العنوان على ما يليه في الأصل، ذلك لأنه أعجبني وحيَّرني، فقد بدا لي مزيجًا من غَرابة وغموض. تُرى كيف لها أن تراه؟ لعلَّها رؤيا أو دبيب في الخيال.

سأترك الضمير لها مرة أخرى، فالمشهد صعب.

عابر سبيل

كلما حَلَّ الغفو بين أجفاني، وارتاحتْ الأنفاس في صدري، يومض خاطرٌ يعبث بالسكون من حولي، يحرِّك الأشياء فوق طاولتي، يوقظني فأُرسل النظر وأبحث عن يدٍّ لامست باب غرفتي، أزيح الستائر لعَلَّني ألمح خيالًا لمسافر ضلَّ الطريق، يذهب نُعاسي، فأسمع صوتًا بعيدًا يناجيني، يسألني إذا ما كنت أسمعه أو أراه، يقترب مني وتفصح عيناه عن انتظار طويل واشتياق، عن لهفة وخوف من المسافات، تتراجع منه الخُطى ويوشك أن يغيب، لكني أراه، ويزداد الوضوح بقدر البعد. ترهقني دهشة الإحساس بالقرب، باكتمال وجوده، أفتش عن ملامحه، وأتساءل (هل كان بيننا لقاء، مودة وعهد، وهل افترقنا؟).

أعلم أني ذقت أوجاع الفراق، لكن من هو؟ ولماذا جاءني الآن؟ يُحيِّيني ولا يمد يده، أحاول أن أتذكَّر، هل رحل وعاد لي طيفه، لكنه يُقبل فيعانقني، أسأله:

– لماذا اختفت ألوانك؟

لا يروقه السؤال فيجيبني:

– أليس في القلب ألوان لمن نحب، أم تراها الأعوام والرمال؟ ولعلّه الرحيل، وأنا لا أعرف إن كنتُ قد رحلت عنكِ، فأجيبيني أنتِ.

أستحث ذاكرتي ويصيبني التعب، فما أقسى أن نقلّب

سنوات ماضينا. أحاول أكثر فيعشو النظر ويغيب مُحدثي وأنا يَقظَى. تزداد حيرتي وأكاد أجنُّ، فليس الذي أراه منامًا يهنأ منه القلب، بل حضور كما الشمس في ساعة المغيب، واهِنٌ مُرهَقٌ بالعتاب، قريبٌ وبعيد.

أُفكِّر في ما قالته عَمَّتي الكبيرة عن طفولتي، وعن الجِنِّي الذي كان يسكنني، أضحك منها، لكني أجاريها في نصيحتها بأن نذهب إلى دار العرَّاف، مع أن صديقتي حذَّرتني منه، وسَمَّته «صانع الأحلام الزائفة»، قلتُ: «لِيَكُنْ، أليس في حياتنا كثير من الزيف لا نجرؤ على مواجهة أنفسنا به؟».

بيتُ العرَّاف صغير وبسيط الأثاث، ليس فيه مقاعد، بل مفارش أرضية، ملونة ومشغولة باليد، وعلى الجدران نُقشت آيات من القرآن الكريم بخطٍ جميل، وبينما كنتُ منهمكة بقراءتها، نبهتني عَمَّتي بأنْ جاء دوري للقاء «الشيخ محجوب»، وعليَّ أن أدخل له وحدي، يا لها من ورطة، لكنها تجربة على كل حال. وها أنا بحضرته المهيبة، أشعر بالحرج من طريقته في النظر إليّ، وصمته، كأنه يستنطق ملامحي ليعرف ما أشكو منه.

استفتَيتُه في ما رأيت، وشرحتُ له تفاصيل رؤيتي لزائري المجهول... تبددَّ صمته ورمقني بنظرة يخالطها خبثٌ جميل، كان بهيَّ الطلعة، ملامحه الهادئة تدعو إلى البوح، هو لا يتعامل بالتمائم كما علِمتُ، ولا يبدو عليه أثرٌ من شيطنة الشيوخ وألاعيب الجنِّ، سألني:

– تقولين إنه عانقك، فكيف يكون بلا ألوان؟ ألا تعلمين أن العناق هو سيد الألوان؟ بل إنها لَتذوب فيه فلا يبقى سوى حضور الحبيب، لعلكِ نسيتِ حبيبًا قديمًا فأرسل طيفه ليُذكِّرك!

– كنتُ يقظى ولم تكن رؤيا!

جاهدتُ كي أقنعه، لكنه لم يكن يصغي، بل يبتسم كأنه يسخر مني وينشغل بتقليب مجمرته.

رائحة البخور أسكرتني وأسلمتني إلى دوار لذيذ يشبه أول النُّعاس فبقيت ساكنة، أسمعه ولا أفهم ما يقول، أراه ولا أراه، أشعر به قريبًا مني يُمسك بيدي، ويضمني إلى صدره، ثم يومض كالبرق ويغيب.

زال الخدر عن رأسي وصِرتُ أبحث عنه، وخِلتُ أن الروح الغامض الذي أرَّقني، جاء يتبعني، وبينما أنا في ذهولي، إذا به يظهر من جديد، ويسألني برفق بما يشبه الهمس:

– هل زال عنك الوهم؟.

– أجل.

... قلتُ له، فشدَّ على يدي، وودَّعني وفي عينيه أسف ودعوة إلى استضافتي ثانية.

أقبلتْ عَمَّتي متلهفة تسألني عما فتح الله للشيخ، وهل شفاني من عِلَّتي، سكَتُّ وأومأت لها بأن تطمئن، فتبسَّمت وصارت تتمتم:

– سبحان الله، واهب الحكمة لمن يشاء.

في طريق عودتنا إلى البيت، صِرتُ أُسايرها بمشيتها الوئيدة، وأستعيد ما سمعته من حكايات عن الشيخ العتيد، وكيف شفى نساءً يئسنَّ من الإنجاب، فإذا ببركاته تحلّ وتظهر عليهن أعراض الحمل بعد أقلّ من شهر على الزيارة...

حمدتُ الله على أني لم أستنشق من البخور ما يكفي للغياب الكامل، فبقيتُ صاحية لأستعيد لحظاتٍ فريدة.

بعد مشهد الأمس ما عادت الرؤيا، لكني تذكَّرتُ حُبي القديم فذهبتُ من دون إرادة مني لأسأل عنه، فوجدت الدار خالية، وما من أحد من الجيران يعرف إلى أي جهة رحل مع عائلته.

بقيت أستعيد ما قالته العمة وأضحك من طيبتها: «لا تحزني يا بُنيَّتي فقد ذهب عنك طارئ الجنِّ بفضل دعاء الشيخ»... قلتُ في نفسي «بل بفضل عناقه وهربه حين أيقن أني عرفت سرَّ حكمته».

آه من الجهل كم هو ممتع! فالأشياء تبدو أبسط وأقرب للرضا، ليته لم يهرب، لكان الوقت أجمل، يا له من وقور جبان!

(٥)

أطيب الرجال

أثارت سلمى فضولي بهذا العنوان، فمَنْ يا ترى يستحق هذا الوصف؟ وهل هو مَن استحوذ على قلبها؟

ولكن ماذا لو كان المقصود أباها، أو مجرد صديق؟

يا لخيبتي! كم سيمضي من الوقت لألتقط خيطًا يوصلني بحاضر هذه المرأة؟

عابر سبيل

تمادى الصمتُ في البيت الكبير بعد حين من النواح وانفلات الحزن في أكثر صوره وجعًا. كنتُ صغيرة، لا أعرف ماذا تعني كلمة موت، وكيف تطير الأرواح من مقارِّها وتُحلِّق فوق هامات الحَزانى، تُناجيهنَّ وتغريهنَّ بأن فراق الجسد لحظة أخطأتها يدُّ القدر، ستمر كأنها غيمة عابرة.

عجبتُ لتكاثر الزائرات على بيتنا، وكل واحدة منهن تشقُّ جيبها وتشهق بصرخة تدير رأسي الصغير، فأبكي وأختبئ في حضن عَمَّتي الكبرى.

وما لبثت أن وصلت تلك «الحيزبون» وناحت بصوتها المعدني:

– أين أنتِ يا غالية؟ لماذا رحلتِ قبل الأوان؟ آه آه...

حتى فقدَ جدِّي وقاره وصرخ بوجهها:

– ومتى كُنتِ تحبينها؟ اصمتي أو اخرجي من دارنا.

ثم أشار إليَّ بأن أغلق الباب.

كنتُ ألهو بلعبتي وأُحاكي جدي في مواساته لأخي الذي يكبرني بأعوام: «لا تبكي يا صغيرتي، جدّتك ذهبت إلى ربٍّ رحيم». أُقبِّلها وأضعها بجانب الجسد الساكن، ولا أفهم كيف ذهبت جدّتي الحبيبة وهي ما زالت نائمة.

كلهم كانوا في شغل عني فوجدت نفسي أبكي بحرقة ولا أدري لماذا.

كبرتُ وكبر معي السؤال:

– ما الذي منع جدي من الزواج بعد رحيل جدّتي السمراء سعدى، ولم يكن آنذاك قد بلغ الخمسين؟ أكان يحبها إلى درجةٍ تقبَّل معها الحرمان لسنوات طوال؟

صحيح أنه لم يكن وحيدًا في زحمة العمَّات وتنافسهنَّ في رعايته، لكن للوَحدة وجهًا آخر، فقد كنتُ ألحظ في نظراته حنينًا مكتومًا، ولعله اشتياق إلى لمسة امرأة لا يملك التصريح به، أو شوق إلى العودة إلى ماضي الشباب.

مرة سألته كيف يرى جارتنا الأرملة فضيلة، وكانت ذات حُسن وخُلق جميل، فأجابني:

– أعرف ما ترمين إليه، ولا أنكر مودتها ولطفها، لكني ما زلت بعد كل هذا العمر، أنام على أمل أن يزورني طيف «سعدى»، ولو سألَتْني «كيف حالك؟»، فماذا أقول لها إن فكَّرتُ في غيرها؟

زهدُهُ في النساء لم ينل من حُبه للحياة، فكان يُطيل البقاء في غُرفته، يُصلّي ويدعو لنا، وما إن يطوي سجادته حتى يعود إلى شغفه بالقصائد المُغنَّاة، ويبدأ البحث عن أُسطواناته الأثيرة.

لم أَشَأ التطفُّل عليه، فكنت أجلس قريبًا من شُبَّاكه المطل على الشرفة، بدون أن يراني، وأستمع لألحان عذبة: «الصَّبُّ تفضحه عيونه»، «يا فؤادي غنّي»، «رباعيات الخيَّام» وغيرها.

ولعلكم تذكُرون ما كتبتُهُ عن هذا الرجل الطيب، وعن سابق تمسكه بالتقاليد، وكيف وبَّخ عَمَّتي فوزية بسبب

ولعها بمُطربها (فريد الأطرش)، فما الذي غيَّره؟ أغلب الظن أن الفضل يعود إلى رجل غريب الأطوار، كان يُدعى الدرويش نيازي، قَدِم من ألبانيا في بداية العهد الاشتراكي، واستقر في كربلاء، لم يكن له سكن سوى زاوية متطرفة في «صحن الإمام الحسين»، وقد التقاه جدي في ليلة رمضانية، في أثناء تفقده ضيوفَ الحضرة الحسينية من فقراء وعابري سبيل. كان يحمل لهم كفَّارات عجزه عن الصيام، أكياسًا من الطعام والحلوى.

عندما زارنا لأول مرة، استغربتُ زيَّه المتواضع واكتفاءه بأقلِّ الطعام، وعرفتُ بعد حين أنه صوفي من مُرِيدي «الطريقة البكتاشية». كان بسيطًا لا نشعر بوجوده كأنه نسمة أو طيف، رداؤه الأبيض وعِمَّته البيضاء، أضفَتَا على محياه مزيدًا من الصفاء والبراءة. وقد سكن في بيتنا أيامًا عدَّةً بعد إلحاح من جدي، وكنت أرتاح لحديثه ونبرة صوته بعربيته المبعثرة اللطيفة، وتمنيتُ لو أجيد التركية مثل جدي لأتعرَّف إلى عالمه، وماذا يقول في مناجاته لربه.

مع مرور الوقت، أدركت أنه صار أكثر قُربًا من أطيب الرجال في عائلتي، فكانا يقضيان ساعات طويلة في القراءة والبحث، الخلاف لم يكن نادرًا خلال أحاديثهما، لكنهما يعودان للتآلف من جديد حول فكرة تجلب لهما سعادة مؤقتة، ثم يطلبان الشايَ أو كما يسميانه «خمرَ المؤمنين».

وشيئًا فشيئًا صار جدي يُحدِّثنا بلُغة جديدة، تغلب عليها الرقَّة، وبدا أكثر قبولًا لمن كان ينكر عليهم أفكارهم مِن الأصدقاء والأقرباء.

مرةً طلبتُ منه أن يترجم لي ما كانا يتغنيان به من أبيات شعرية، أمَّا كيف عرفت أن الكلام كان شعرًا، فمِن طريقة الإلقاء المهيب الذي كان يجيده الشيخ.

نزل جدي على رغبتي وصار يشرح لي، مع أنه كان يشكُّ في أني سأفهم، وأذكر أنه همس لي:

– أعترفُ أن صديقي الدرويش غيَّرني، كما تبدَّلت أحوال مولانا جلال الدين الرومي بعد لقائه شمسَ الدين التبريزي، عجبًا لهؤلاء الدراويش كيف يأسرون القلوب بلطفهم وأشعارهم!

لم أُضيِّع الفرصة وقلتُ له:

– قليلًا من التواضع يا جدي، أتقارن نفسك بمولانا؟

فأجاب في خجل:

– لا لا يا بنيَّتي، فقط استعجلتُ المثال، لأني سعيد بما طرأ عليَّ من وضوح في الرؤية وسعادة لم أعهدها من قبل.

– أخشى على صاحبك من مُقْبِلات الأيام، فربما تشمله إجراءات التسفير، فيتيهَ في أرض الله...

حاول أن يُسكتني والخوف بادٍ عليه، والدموع تكاد تطفر من عينيه، قال:

– لا قدَّرَ اللهُ.

قلبُ جدي صار يتَّسع للجميع، فيما غرقت عَمَّتي في عملها وهموم العائلة، وأصبحَتْ أشبهَ بآلة لا تكل من الدوران. كانت تتفانى في خدمة أبيها، لكنها لم تدرك رقَّة إحساسه وجمالَ

نفسه، ولطالما قطعت عليه تأملاته، ودخلت عليه بغيرِ استئذان وهو لم يُخفِ ضيقه من طريقتها لدعوته إلى الغداء أو العشاء، كانت تصرخ بأعلى صوتها:

– العشاء جاهز لا تتأخر؛ سيبرد الطعام.

مرةً في يومٍ صيفي، ضحكنا منها كثيرًا حين قدَّمتْ له عصيرًا مُثلجًا وقالت:

– اِشربه بسرعة قبل أن يبرد.

كنت أجد سعادة خاصة حين أكون مع جدي، أتخيَّر كتبًا من نفائس مكتبته، وأصغي إلى نصائحه وآرائه في موضوعات الكتب، إلا نصيحة واحدة بأن أتوقف عن الأسئلة الصعبة في أمور الدين. وكم كرَّر قوله:

– أستطيع أن أُجيبك عن كثير، لكني سأصل إلى منطقة اللا جواب فتدخلينَ في متاهة تُفقدك إحساسك بالأمان، فالتسليم راحة، والشك طريق بلا نهاية.

أجمل ما تحلَّى به هو الرضا، وربما ورثتُ عنه ذلك، وهو ما ساعدني على ألا أضع نفسي في مقارنة مع أحد، ومع أني أشعر بالندم على بعض مسارات حياتي، لكني لم أفقد الثقة بقدرتي على تقديم ما ينفع لي ولعائلتي.

تمرُّ السنون ويكبر أطيب الرجال وتزداد همومه، فلا أنيس له غير ذكرى رفيقه الشيخ، إذ لم تفلح جهودنا في مساعدته على البقاء، ورُحِّلَ إلى إيران. بقي جدي يذرف الدمع ويعاف الطعام، وكم رجوته أن يخرج من عزلته، لكنه لم يستجب وزادت حالته سوءًا بعد أن انقطعت رسائل الغريب المنفِي.

وبدل أن يلقَى الدعم من ابنه البِكر الذي عقد عليه الآمال، صار له خصمًا، وجاء يقترح عليه أن يمنحه وكالةً عامة ليبيع دار العائلة الكبيرة، ثم يشتري دارًا له وملحقًا يُسكِن فيه جدي وعَمَّتي فوزية، فباقي العمَّات قد تزوجن.

بالطبع رفض جدي وثارت عاصفة، وارتفعت الأصوات إلا صوت أطيب الرجال، فقد فاجأه عقوق ولده، وما سمعه من سِباب بلسان زوجته التي كان يظن بها خيرًا. كان ينظر إليه في ألمٍ ويقول له:

– شكرًا يا ولدي، أهذا جزاء تعبي في تربيتك؟!

لكن الآخر يتمادى ويضغط أكثر، فلم تستطع عَمَّتي أن تمنع نفسها من التدخُل، فصرختْ بوجه أخيها:

– اخرُج من البيت وخذ معك هذه الفاجرة، وإلا سأفضحك عند أقرب أصدقائك.

شعر الجاحد بالخوف على سُمعته كإداري معروف، وغادر الدار بلا رجعة.

هذا المشهد الأليم ظلَّ يحفر بذاكرة الرجل الطيب، المُحب لبناته وأبنائه، الذي لم يقصِّر في رعايتهم أو تعليمهم. وظلَّ معتكفًا بالدار، راغبًا عن الحديث مع عَمَّتي أو معي، حتى جاءت البُشرى بيد ساعي البريد؛ إنها من رفيقِه الدرويش، يُخبره بأنه بصحة جيدة، وقد رزقه الله برفقة من الزُّهَّاد، وجَدَ عندهم ما يَنشُده من الأمان.

ها قد أشرقت ملامحه ولم يعد يبكي صاحبَهُ، وصار يأمل أن يزوره ويجدِّد معه عهد الصداقة الذي لا ينقضي إلا بالموت.

كأن الحياة فتحت أمامه ألف باب، وأعادته سنينَ إلى زمن الشباب.

صورة الرجل الخمسيني (الشاب) لم تفارقه؛ حتى حين تقدَّمت به السنُّ، فكان أكثرنا رغبةً في السفر واكتشاف مُدن جديدة. وفي سفراتنا القصيرة في نواحي البلاد، كان يدعونا إلى تحضير كل ما نحتاج إليه من طعام وشراب وأدوات تسلية، أما المسجل الصغير وكاميرته الأثيرة ذات القوائم فَكَانا من أهم لوازم الرحلة.

مَرةً لامته قريبته المتدينة لأنه يحبذ الاستماع للغناء، سخر منها بأسلوبه اللطيف، قائلًا:

- كفاكِ يا حاجَّة، أتملئين المكان بدخان سجائرك، وتُحَرِّمين علينا سماع الأصوات التي أحبها الله؟ دَعِيكِ من هذا، واستمعي لشدو أم كلثوم في «سَلُوا قلبي»، أو إذا شئتِ «القلب يعشق كل جميل».

كان يضحك منها لأنها تستعيذ بالله من كلمة «عشق» كأنها من عالَم الجِّن. كما كانت تنتقده لأنه يحمل كاميرا ويهوَى التصوير، كانت تعيِّبه بذلك وتقول وهي تقلِّب شفتيها:

وهل أنت شاب أو سائح أجنبي؟ هذا لا يليق بك.

والغريب أن أبي وأحد أعمامي كانا يشاركانها هذا الرأي. أما أنا فكنت أُشجِّعه وأدافع عن مظهره، ولا أجد مشكلة بين السيدية (العمامة) التي تتوج رأسه وبين جهاز الكاميرا، وأتساءل لماذا يُفرض على كبار السن التقاعد عن مزايا الحياة، وما يهواه القلب؟ فمعظم معارفنا من النساء والرجال كانوا يحثُّونه على

الزواج، حتى بعد فترة قصيرة من وفاة جدتي، لأن المطالب الحِسِّية في الصدارة لديهم، فهُنَّ وُهُمْ لا يعبؤون بما في النفس من شوقٍ إلى كل ما في الحياة من بهجة تُنَاغي تطلعاتها إلى عوالمَ أكثر إشراقًا.

اليومَ، بعد سنينَ من فراق الأهل والأحباب، وتقلُّب الحال في البلدان، ما زِلتُ أجد راحةً في استذكار جدي ورحلاتنا في سنوات الطفولة والشباب، وأَعجَبُ كم تغيرت أحوال الناس! وكم أسرعت دواليب الحروب في تجريح أبدانهم وتطويع نفوسهم!

بهذا سأودِّع أطيب الرجال، على أمل العودة إليه في فصل آخر، فأنا أسيرة زمانه، زمان الأمنيات غير المستحيلة. جدِّي كان -وما زال- في قلب الذكريات، يخطر عليَّ كلما تحدَّث الناس عن مِثالٍ وخُلق جميل.

لكن قبل ذلك لا بُدَّ من استعادة مشهد طريف، حين كنتُ في بيته وصادف أن زارتنا أصغر عماتي ومعها طفلتها، وبينما كانت تُغيِّر لها ملابسها، غافلتها وصارت تركض كقطة شاردة، ودخلت غرفة جدي... تباطأنا في اللحاق بها كي لا نُفزعها، فإذا بها تخرج والعمامة فوق رأسها، صاح جدي: «أمسكوا هذه الملعونة»، فقد كان يحرص على نظافة عمامته.

ولكم أن تتصوروا المنظر: طفلة بلا ملابس تعتمر العمامة! تلك الجِنِّية كانت تصرخ في وجهه كلما دندن بأغنية «عمي يا بيَّاع الورد» وتقول له: «لا تُقَنِّي»، فلم يكن بوسعها نُطق حرف الغين.

(٦)

الأسمر المُستبِد

حين أُسهب في استذكار أطيب الرجال، أشعر بالرضا لأني أحتفظ له بأكبر حُب، لكني لا ألبث أن أستحضر صورة أبي، وهي مخالِفة تمامًا لطبيعة جدِّي المجبولة على حُب الحياة والثقة بمُقْبِلاتها، بدون تَطَيُّر أو شك. ولأجل ذلك آثرتُ أن تحضر سيرة ولده الأوسط الذي ظل يشعر بأنه ظُلم، فلا هو الكبير ذو المكانة المتميِّزة في العائلة، ولا هو الصغير المدلل الضعيف، والمحتاج إلى العطف والعناية.

كان أبي على قَدْر من الجاذبية، ذا سمرة مُحَبَّبة، واثق الملامح، نظرته تَنِمُّ عن ذكاء ومكر، مطبوعًا بالشك، ويحسب سوء الظن من حسن الفطرة، واسعَ المعرفة لكنه يهوى البساطة، ويطوي كثيرًا من مواهبه بداعي السخرية من الحياة التي لم يكن راضيًا عنها.

شيء من التمرد على المظاهر طبع شخصيته، ربما لأنه لم يحظَ بحبه الأول، ووجد نفسه مكبَّلًا بزوجة -لم يخترها- وهو لم يبلغ العشرين بعد، وولدَيْنِ لم يعرف كيف يكون أبًا لهما. لم يتسنَّ لنا -أنا وأخواتي وإخوتي- أن ندخل مكتبه، فغُرفته

مَعْبد للكتب العتيقة، وهو يخشى عليها من عبث لمساتنا، وما كان مسموحًا لابنة خالته وزوجته الثالثة والأخيرة، أن تُرتِّب إحداهما أغراضه أو تمسح الغبار عن مقتنياته من مخطوطات ومجلدات نفيسة. كان مسكونًا بالتراث، حافظًا للشعر وناظمًا له، ولعلَّ حرمانه من الفتاة التي كان يهواها، كان سببًا في اكتشافه لمباهج الأدب وعمارة التاريخ، ولو قُدِّر له أن يُوَفِّق بين نفسِهِ المتعالية بالعلم، وازدِرائِه لمن يسعون للشهرة، لكان من كبار الأدباء والمؤرخين، غير أنه اكتفى بِنُبل عمله مدرسًا للُّغة العربية، يفاخر بمئات التلاميذ الذين تفوقوا بفضله، ونالوا حظوة في مجتمعهم.

أحببتُ من طِباعه ميله إلى المِزاح، وكثيرًا من معاركه الهجائية مع بعض رؤسائه في الدوائر التعليمية. مرةً بينما كان يُلقي درسه، لاحظ المفتشَ وهو يقترب من الصف ويختبئ خلف النافذة، فطلب إلى أحد طلابه أن يُعرب الجملة التالية: «وقف الحمار خلف النافذة»! فثارت عاصفة ونُقل أبي إلى (قضاءٍ) بعيد.

ومرةً هجا مدير التربية بأبيات نارية بليغة، فوصل الأمر إلى الوزير، لكن هذا الرجل كان متذوقًا للأدب فأعجبته القصيدة، وأوصى بإلغاء قرار النقل بحق أبي.

وفي يوم سأل تلميذًا كسولًا عن معنى كلمة «خُرافة»، فأجاب: «مؤنث الخروف يا أستاذ»!، فردَّ عليه: «خروف أنت وأبوك»، فهاج التلاميذ بالضحك. وبعد انتهاء الحصة قال لهم: «اخرُجوا أيها الخِراف».

وبعد أن جاوز الأربعين من عمره -وهو ما زال يذكر حلمه القديم بأن يصبح محاميًا- صادف أن فتحت الجامعة المستنصرية صفًّا مسائيًّا لدراسة الحقوق، فاستبشر أبي وكان أول المسجِّلين. ومما رواه لنا أن «خير الله طلفاح» - خال صدام حسين - كان يدرس في الدورة نفسها، وأنه كان يُتحف الطلاب بأحاديثه المتنوعة، ويُضحكهم بنكاته، وكان يتندر على اسم جده الغريب «عبد السطيح».

إن مقاعد الدراسة غالبًا ما تُغري بالشغب، حتى لو كان الطالب قد جاوز أربعة عقود، وهذا ما حصل لأبي، ففي حصة قانون المرافعات الجزائية، ذهب الأستاذ إلى تحديد المحكمة التي تنظر في موضوع الجريمة، فإنْ وقعت في جانب (الكَرْخ)، تكون من اختصاص شرطته، وإن ارتُكبت في (الرصافة)، كان لهذه المنطقة أن تنظر في وقائع الجريمة. إلى هنا الموضوع واضح، لكن أبي شاء أن يأتي بسؤال غريب، فقال:

- ولكن يا أستاذ لَم تَقُل لنا لمن يكون الاختصاص إذا وقعتْ الجريمة على الجسر بين الجانبين».

لم يتوقع المُحاضِر سؤالًا مثل هذا، فاشتاط غضبًا وأجاب بعصبية:

- يكون الاختصاص لمن حضر أولًا من شرطة الجانبين!

لم يكن لأبي أصدقاء كُثر، وقد انحصر نشاطه خارج البيت في المدرسة صباحًا، وفي مقهى الحاج حَمَد في المساء، ومن رواد ذلك المقهى البسيط تشكلت مجموعةٌ حوله، تُكِنُّ له حُبًّا كبيرًا، بل هو أقرب إلى الولاء، وهو بدوره لم يبخل عليهم

بالنصيحة أو المعلومة الصحيحة من المجلدات التي يحملها كل يوم ويقضي ساعات في قراءتها. وهم يحترمون طقوسه في القراءة، فبعد أن يطوي كتابه، ويضع نظارته السميكة في محلها، تتوالى عليه الأسئلة. بعضهم كان فطنًا يجيد فن السؤال، لكن البسطاء منهم كانوا كُثُرًا، وهم يحظون بتقدير أبي، ولم يسخر منهم يومًا. وفي مرة قصده أحدهم وكان مهمومًا، سأله عن خَطبِهِ فقال:

– زوجتي وابنتي تُلِحَّان عليَّ كي أشتري لهما تلفزيونًا، وأنا أخشى أن يعاقبني الله.

ضحك الأستاذ وقال:

– ولماذا العقاب؟

أجاب الرجل:

– سمعتُ شيخًا يروي حديثًا عن الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، يقول فيه: «يأتي زمان يكون في كل بيت شيطان له إرْيَل»!

كتم أبي ضحكةً كادت تشقُّ حنجرته، وسأله:

– وهل كان الرسول يجيد اللغة الإنكليزية؟

جفل السائل وقال:

– لم يكن يعرف غير لغة القرآن.

– إذًا اطمئن يا أخي. فإن هذا الحديث وَضَعهُ كذاب ابن كذاب، لأن (إرْيَل) كلمة إنكليزية. اذهب واشتَرِ لأهلك ما يريدونه وأسعدهم به، ولا تصدق بِدَعَ الشيوخ.

طابت نفس الرجل وصار يُكثر من الصلاة على النبي.

ودَّعَه أبي بابتسامة، وأَجَّلَ ضحكته المدوِّية لحين وصوله إلى البيت.. حين روى لنا ما جرى.

تَعوَّدَ ربُّ البيت الأسمر أن تكون له الكلمة الفصل، وساعدته أمُّ أولاده السيدة فضيلة في أن يستبد أكثر، فقد كانت مسالمة، تتلافى المجادلة، وربما آمنت بأن الرجل هو الأساس، وأن لا ضير في خضوع المرأة إلى إرادته، لكنها لم تكن راضية تمامًا، ولولا طبعُهُ الحنون لما استطاعت أن تُواصل معه. بعض نسائنا مغلوبات على أمرهن، لكن أُخْرَيَات كثيرات تربين على فكرة أفضلية الذكور على الإناث، فمنحنَ أبناءهن المكانة العُليا، وسخَّرن بناتهن لخدمتهم... هكذا كان حال كثير من العائلات وما زال.

لم يكن أبي راضيًا عن زواجي بماهر، بسبب توجسه ممن يتعاطى السياسة، والخوف من منعطفاتها، وبُحكم تأثره بشعارات عبد الناصر ونفوره من الشيوعيين، لما اقترفه بعضهم مِن جرائمَ بحجة الدفاع عن النظام الجمهوري، ثم إن شخصيته المحافظة ما كانت تستسيغ دعوات المساواة بين النساء والرجال، التي ميَّزت خطاب الشيوعيين، واجتذبت كثيراتٍ مثلي. ولذلك قاطعني ولم يكفَّ عن انتقاد جدِّي وعَمَّتي فوزية لأنهما وافقاني في اختياري.

والحقيقة، ما كان له أن يعيق قراري، لأني تركتُ بيته قبل زواجي بماهر بفترة طويلة بسبب نزعته إلى التحكُم في كل

تصرفاتي، ولطالما أبدى تذمره من تعلُقي بجدي ومقارنتي بينهما. وما كنت أعجب له، أن جدي المُعمَّم، كان سهل القبول لأفكار غيره، ولا يرى في المرأة الراشدة قصورًا يستوجب السيطرة عليها، فيما يرى أبي نفسَهُ وصيًّا عليها في كل شؤونها.

كنتُ في بداية زواجي، ولم يتوفر لي من الوعي ما يكفي لمراجعة التاريخ وتبيُّن أوجه القصور في مسيرة الحزب الشيوعي، لكن علاقتي بماهر ساعدتني على تجاوز مرحلة التناغُم مع المبادئ وتبيُّن كثير من الحقائق، التي عكست الاستبداد الأيديولوجي، والوقوع في شَرَكِ تقديس المقولات على حساب ضرورات الواقع.

ومن خلال ما كان يهمس به لقلَّةٍ من رفاقه، مِن انتقادات لسلوك قيادة الحزب في ذروة صعودها الجماهيري بعد ثورة تموز، وما رافقه من فوضى وتوتر في العلاقة مع قاسم، تكونت لديَّ رؤية لما كان يحدث آنذاك، أزعم أنها متكاملة. لذلك حين أسترجع مقولات أبي، ومواقِفِه من بعض الأقرباء، أجده على حق في كثير من أحكامه على الشيوعيين، مؤاخذتي عليه كانت تنصرف إلى ميله إلى التعميم.

ففي إحدى الأمَاسِيِّ زارتنا قريبتنا المتزوجة بضابط شيوعي بارز، هو الأكثر وسامة بين أنسباء العائلة، كان محطَّ أنظار القريبات مِن المراهقات، وهدفًا لغَيرة زوجته التي لا تَمَلُّ محاصرته بنظراتها، وزجرَهُ كلما مال بِلِحَاظه صوب هذه أو تلك. أما عَمَّتي فكانت تراه طاووسًا يختال بحُسنه من غير ما يثير الإعجاب لديها. وأنا كلما أتذكَّر ذلك المساء تحزُّ في نفسي

صورة أبي مستلقيًا على سريره، غير قادر على الحركة بسبب كسر في ساقه، كان يتألم لكنه يجامل ضيوفه، فيما محاوره المغرور يستفزه في طريقة تناوله لأحداث مروعة، وبشكل خاص ما حدث في الموصل بعد وصول قطار «أنصار السلام» في بداية آذار من العام ١٩٥٩م، كان أبي يسأله ببساطة:

– كيف يكون السلام شعارهم، وفي الوقت نفسه يسقط قتلى وتحصل انتهاكات؟

فيأتي الجواب:

– لم نقتل أحدًا، بل قَتل بعضُهم بعضًا، كان صراعًا محليًّا...

يثور أبي وتهتز ساقه الموجوعة، وتتوسل زوجته إليه أن يهدأ فلا يستجيب.

وفي الأثناء أشارت ابنة الخال إلى زوجها بأن يغادر، وأتحفت أبي بغليظ القول، فعاجلها باللعنة: «إلى جهنم!».

بعد هذا اللقاء العاصف، غاب الضابط الأنيق عن قائمة زوَّارنا، ونشرت زوجته دعوة الكراهية لبيتنا لأكثر من عامين، لكن أبي كان ذا مروءة، فلم يتردَّد في مساعدتها حين اجتاح أوغاد الحرس القومي دارها، وساقوا زوجها إلى «قصر النهاية». في ذلك الوقت من العام ١٩٦٣م، لم يفكِّر أحد من أقربائها في نجدتها مع أطفالها الثلاثة، كلهم كانوا خائفين، إلا أبي، كان يحمل لها أكياس المؤونة ولا يأبه بالعيون الراصدة، وقد ساعدته مهنته مُربِّيًا، في أن يحسن التعامل مع الأغرار المنفلتين، فحين تَقدَّم منه شاب أرعن يحمل رشاشًا، ويحسب

نفسه قائد فيلق، نظر إليه بلطف وقال له:

– مرحبًا يا طارق، كيف حالك؟ ألا تذكُرني؟ ألست تلميذي المشاغب في «ثانوية الحرية»؟ ساعِدني يا بُنيَّ على توصيل حمولتي إلى المرأة المسكينة، فأنا مرهق وساقي تؤلمني، هيا هيا.

استغرب الشاب وهَمَّ بأن يقول: «ولكني لستُ بطارق!»، لكنه سكت وسار معه وهو يحمل عنه كل ما جلبه، وبدا مأخوذًا بشجاعة الرجل وتحديه لقانون الخوف. حاول أن يفكَّ ارتباكه فسأل: «ما اسمك يا أستاذ؟».

لم نكن نصدِّق كيف نجا أبي من مخالب وحوش «البعث» الصغار، هلَّلْنا لعودته وقامت السيدة فضيلة لتصلي صلاة شُكر.

ومن ذلك المشهد ترحل ذاكرتي إلى أَمَاسِيِّ الشتاء حين كنا نتحلق حول المدفأة، وننتظر في شوق عرض المسلسل المصري «بنت الحتة» الذي شغل الناس، وأخلى شوارع بغداد من المارَّة في وقت الغروب، وربما تسبب في حوادث مرور كثيرة. ولو أن مغامرًا فكر في تنفيذ انقلاب، لما وجد أنسب من ساعة العرض، فقيادة البلاد –على الأغلب– مشغولة بمطاردة (المعلم زكي) الذي خطف الشابَّة (إخلاص)!

كانت سنوات بهيجة لم ينقصني فيها غير مساحة أوسع من الحرية، كان يخشاها أبي، حتى إنه لم يسمح بالاشتراك في خدمات الهاتف، وكنا نستخدم هاتف جارتنا الحاجَّة وفيقة، وللضرورات فقط، لكني لم أبالِ فكنت أقضي الإجازة الصيفية

في بيت جدي، وأرافق عماتي إلى دُور السينما والمطاعم، وأسافر معهن في رحلاتهن المدرسية، وأحيانًا أفتعل المرض واتَّصل بعَمَّتي فوزية كي تأخذني إلى الطبيب، ثم أذهب معها إلى دار صديقتها الفنانة التشكيلية بهيجة. كل ذلك كان يغيظ أبي، ويردد عبارته الشهيرة: عماتُك أفسدنكِ وعصَّينك عليَّ.

ربما لم يكن أبي مستبدًّا، بل مبالغًا في حرصه، واقتناعه بأن الأنثى ضعيفة وبحاجة إلى الحماية فلأنَّها في وَسَط تتكاثر فيه الأطماع. وهو لذلك لم يسمح لي بحضور حفل أقامه رئيس الجمهورية -آنذاك- «عبد الرحمن عارف»، لتكريم الأوليات والأوائل في الجامعة، وكنت منهنَّ في الصف الأول... سألتُه باستياء:

- لماذا تمنعني؟

فقال:

- ستكونين محطًّا لنظرات السفلة من ضباط القصر.

عجبت وقلت:

- وهل سأكون وحدي؟ وأي جمال باهر في طلعتي سيقيد الأنظار إليَّ؟ أنا فتاة بسيطة المظهر، وهل كل الناس سفلة في نظرك؟

قطَّب حاجبيه وأجاب:

- كفى. لا تُناقشي».

موقف آخر فجَّرَ غيظي وأبكاني، فبعد امتحانات النصف الأول من الصف الخامس الإعدادي، بدأتْ مَدرستنا في

الإعداد للحفل السنوي، وكان اسمي بين المشاركات لتقديم نشيد «وطني حبيبي»، كنتُ في غاية السعادة، وإذا بأبي يبدأ تحقيقاته:

– من سيدّربكم؟ هل هناك رِجال؟

أجبتُه ببراءة – وليتني كذبتُ عليه –:

– نعم، سيُدِّربنا الملحن «محمود عبد الحميد».

استشاط غضبًا وقال:

– اللعنة، فنانون منفلتون! كيف يسمحون لهم بدخول المدارس؟!

ثم صار يردِّد كلمات «عزيز علي»:

– «انعل أبو الفن، يا بو أبو الفن!».

وختم برفع راية الرفض:

– لن تُشاركي.

يا له من ظُلم! انزويتُ في غرفتي وأضمرتُ أمرًا؛ سأُغادر إلى بيت جدي، ولن أعود... وهكذا فعلتُ.

مما كان يُبهجني في بيت أبي، حضور ضيف جميل، حظي بمحبة الجميع وأولهم أبي، كان يتسلق السياج من بيت جارتنا عالمة الآثار، ليقفز في حديقتنا ويحتمي بظلال الشجر، إنه القط الرمادي (سرجون) ذو العينين المائلتين إلى اللون البرتقالي، والشعر الطويل. ففي ساعات الظهيرة من صيف بغداد الحارق، لا أحد يفتقده، فالكل نيام وله أن ينعم بصحبة قطتنا (سميرة)، كما سمَّتها أختي الصغيرة. لكني اكتشفته

ذات يوم، فيما كنت أبحث عن خاتم أضعتُه في الحديقة، وفي الأثناء سمعتُ طَرقًا خفيفًا على الباب، كان الطارق هو العمّ «شيَّاع» بستاني الجيران، وحامل همومهم، وراعي قِطّهم المدلل. طمأنته على سلامة سرجون وساعدتُه على الوصول إليه. ولهذا الرجل مكانة كبيرة لدى الزوجين الجارَيْن، فكلما تخاصما وأوشكا على الفراق، أسدى لهما النصح أو لأحدهما، فيعودان كما كانا من الهدوء والوداعة. تلك العلاقة الفريدة التي ربطتْ بين فلاحٍ بسيط، وزوجين كانا على درجة عالية من الثقافة؛ كانت تستدعي احترام أبي لجارينا، مع أنه لم يكن يستسيغ طريقة حياتهما، واختلالَ التوازن التقليدي بينهما لمصلحة المرأة، فلم يكن يعجبه ذلك.

حديقة الدار الصغيرة، كانت ملجأً لي في ظهائر الشتاء المشمسة، وكان رفيقي جالب المسرات والأخبار لا يفارقني؛ الراديو؛ وكم كنتُ أقَدِّر فطنة المطرب والمثقف الأنيق «عزيز علي»، لأنه مع كل عبقريته، لم ينسَ أن يُغنِّي للراديو. ذلك المنقذ الصغير كان ذات ليلة بجانبي حين أخذتْني غفوة ماكرة حرمتني الاستماع إلى المقطع الأخير من أغنية «أم كلثوم». وصادف أن مرَّ أبي، وكان الباب موارَبًا، فدخل غرفتي وأيقظني بصوت حافل بالاستياء بعد أن أغلق الراديو وكاد يكسره بقبضة يده، وبغضب قال:

– يا لكِ من مُغفلة! بدل أن تحتضني كتابًا؛ أراكِ تعيشين في الخيال!

حاولتُ أن أردَّ؛ فلم يسمح لي، وغاب بعد أن صفق الباب.

سنوات من أول الشباب والحلم، وموطن الآمال الكبيرة، كلما عبرت بخاطري، تذكَّرتُ نفسي، كم كنتُ بعيدة عن الرضا! وفي أي علوٍّ كان سقف مطامحي!

في الوقت نفسه أتذكَّر مَشاهِدَ مغرقة في البساطة والجمال، وسأنقل لكم بعضها:

زوجة أبي سيدة متدينة وحريصة على صلاتها، ولديها اعتقادٌ راسخٌ أنَّ في الأمطار بَركةً، ولكن ليس كلها. وفيما الأيام تمضي من شهر نيسان، ظلَّتْ السيدة «فضيلة» تنتظر بشوق بشائر السماء، فالمطر في نيسان لا يشبه ما تجود به الخيمة الزرقاء، وقد أعدَّت كل ما في البيت من أوعية لجمعه كي نشربه في مُقبِل الأيام، فتحلُّ في أجسامنا العافية... وفيما كان جميع الناس يضيقون بغزارة المطر وتواصله لساعات طويلة، والطين يفترش الطرقات فيتزحلق المارة أو تتوحل أحذيتهم، وتبتل ملابسهم، كانت «أمُّ مَيْسِ» -كما كنت أدعوها- تتضرع إلى الله بأن يزيد من خيراته... أما أبي فلم يكفَّ عن السخرية من هذا المشهد المهيب.

واليومَ كلما استمعتُ إلى أغنية لـ«فاضل عواد» التي يقول فيها: (تبخل بمزنة مطر على الورد يا نيسان)؛ تذكَّرت ذلك الفيضان، وورد حديقتنا يستغيث ويتمايل عوده الرفيع ليسقط في بِرَكِ الماء بدون رحمة...

آه يا نيسان كم أُحبك! وكم قضيتُ في لياليك المقمرة، مُحلِّقةً في سماوات الأمل، ولكن أين؟! على سطح دارنا، حينذاك، كنتُ في حالة عشق، لم يُكتب لها الدوام - سأُحدِّثكم عنها فيما بعد.

صور أخرى من سنوات حياتي في بيت أبي، أجمل ما فيها أُختي «ليلى»، وكانت الأقرب لي، والأكثر ذكاءً بين أخواتي وإخوتي الباقين، وفي يوم سمح لها أبي بأن ترافقني إلى السينما لمشاهدة فيلم «سيد درويش»، فكان يومًا سعيدًا، فلم نكتفِ بالفيلم الصباحي، بل شاهدنا فيلمًا آخر. وعندما عُدنا كان ينتظرنا غضبٌ شديدٌ من أبي، وقرارٌ بألَّا تخرجَ ليلى معي أبدًا. وبعد زواجي لم أرها لسنواتٍ طِوال، بسبب الخلاف مع أبي، ثم جاء زمن الخوف والهجرة، فانقضت سنوات طوال... حتى التقيتُها في مصر، وقد صارت لها -كما توقعت- مكانة مرموقة كأستاذة في جامعة القاهرة. كنتُ أتأمل ما طَبعَتْهُ سنوات العذاب على محياها، وكيف تغيَّرتْ، صارت تضع غطاءً على رأسها يختصر نصف جمالها... قالت لي بحسرة إن ما مرَّتْ به من محنة الاعتقال، ووفاة أبيها مسمومًا في أحد أقباء الأمن؛ غيَّرا كثيرًا من قناعاتها، وانتزعا منها بهجة الحياة، فبدتْ لها مجرد معبر إلى عالم آخر تسودُه رحمة الله.

ذلك ما خبِرَتْه من رفقة السجن، نساء متدينات اعتدنَّ زيارة المراقد المقدسة، وأخريات متحزبات إسلاميات، ألقت بهن الأقدار في ظُلمةٍ لم تنجلِ عن بعضهن إلا بالموت، وكان من حظ ليلى أن شملها عفوٌ رئاسي.

اختصرنا الزمن بأحاديث كثيرة عن أبي وكيف كان يذكرني ويأسف لسنوات فراقنا، فهو لم يعد متسلطًا شديد المحافظة، وكان مهتمًّا بالبحث عن عنواني، وأن يسافر لرؤيتي ما إن تنتهي الحرب، لكنه -كما كان يقول- قلَّما تُفاجئنا الأيام بما يسُرُّ.

(٧)

حنين عابِر للبلدان

لعلَّكم تذكُرون ما حكيتُه لكم عن أطيب الرجال، وكم طال حُزنه في غياب رفيقه «الدرويش نيازي»، ولم يبلغه السرور إلا بعد أن علم بمكانه وتسلَّم أول رسالة منه. ومن يومها بدأ يُخطِّط لزيارته ليزيح عن قلبه زمن الفراق...

وقبل أن أقصَّ عليكم كيف سارت الأمور معه، تذكَّرت ما قاله عن ذهول العابد الزاهد يوم أبلغوه بقرار ترحيله من العراق، قال جدِّي مُعزِّيًا نفسه:

- أظن أنه سيحظى باهتمام الشيخ «مرتضى رجائي»، لكني أخشى عليه أن ينسى اسمه وعنوانه وهو في غمرة حزنه وشقائه، فما كان بالإمكان أن أكتب له شيئًا.

وما إن عبَرَ بخاطري اسم ذلك الشيخ الصوفي، حتى تذكَّرت عمي الأصغر، الشاب المدلل، وحكاية هُيامه بابنة الجيران، فللموضوع صِلة، وسأرويها لكم بلسان جدِّي:

(صادف أن أُصيب أصغر أولادي بمرضٍ شديد لم ينَلْ من بدنه؛ لكنه أعيا نفسه، وتركها نهبًا للشرود والضياع، وبدت حالته عصِيَّةً على العلاج، حتى اهتديتُ إلى طبيبٍ كان له

من الحِكمة ما جعله يُدرِك مكْمَن الداء، ففي أخر جلسة علاج نصحني بأن أنظر إلى ولدي بعين العطف وأن أُحقِّق له ما يتمناه. وهكذا فعلتُ، لأني أعرف ما يدور برأسه. ويبدو أن الحكيم وعده بأن يقنعني بمراده، فما إن أفاق من نومه الطويل حتى تجرَّأ وتوسَّل لي أن أخطب له ابنة جارتنا. لم يلقَ طلبه ارتياحي، وتذكَّرت بحزن قصة أبيكِ وعِشقه لابنة عمه، وكيف اجتمعنا على نكران ما أَلَمَّ به من وَلَهٍ وتِيْهٍ بمحبوبته، فتركناه محزونًا كسير الخاطر. أبوكِ لم يفوِّت الفرصة كي يُذكِّر الجميع بما اقترفوه بحقه، لكنه مدركٌ ما يعانيه شقيقه، وهو أضعف منه بما لا يُقاس، قليل الحيلة وقد أفسده دلالٌ علَّلناه بـ«أخر العنقود»، وكانت المفاجأة أن توجَّه إليَّ وإلى عمتك الكُبرى، وبلهجة شبه آمرة: «لا تتأخَّرَا. اخطُبَا له شيرين قبل فوات الأوان»! لم أصدق سمعي، وقلتُ معتذرًا: «هَلَّا سامحتنا يا بني؟» رد أبوكِ بحسرة: «آسفٌ لأني ذكَّرتكما بما لا تحبان، المهم سلامة أخي».

كان الشاب المُغرم يسترق السمع وقد دبَّت الحياة في جسده الناحل، فنهض من سباته وكاد يصرخ فرحًا حين همست له عمتك بما تمناه: «سنزور جارتنا في المساء، ونخطب شيرين، لن نتركك تموت من أجلها، وإن كنتُ لا أطيق دَلالها، ولا غطرسة أمها كأنها سليلة ملوك». قلت لها: «ما لَنا وأمها؟ هي فتاة طيبة، وما دامت تحبه فلا خوف عليه»، تنهدت ابنتي في إشارة عدم رضا، وردَّت بتثاقل: «سنكون عندهم بعد صلاة المغرب»، وأشارت إلى أخيها الذي غمرته الفرحة: «لن تكون

معنا حتى يتحسن حالك». لم يعترض لأنه كان قليل الثقة بنفسه، منطويًا، تَعوَّدَ أن تُلبَّى رغباته كلها بدون جهد منه، كما أنه لم ينجح في دراسته، ولا يجد الجرأة للحديث مع الناس، لكنه حين تيقن من موافقتنا، بدا -لأول مرة- واثقًا، قويًّا، ذكي النظرة، وقد غادرته بلادةٌ عاشت معه منذ بدء مراهقته، لا أدري هل هو الحب الذي أشرق في قلبه فصار يشعر بكيانه، وهل حقًّا يدرك ما يريد، أم أنه يلهو، ولا يعرف ما ينتظره من مسؤوليات.

حِرتُ في أمره ولكن لم يكن لديَّ خِيار. لم تكوني يا بُنيَّتي في سنٍّ تتيح لك فهم ما أصاب عمَّكِ من صحوةٍ أعادته إلى مائدة العائلة في كل وجباتها، بل إنكِ لم تُخفي تذمركِ من وجوده لأنه صار يأكل كثيرًا، ومرةً أكل ما تبقى في صحنكِ من فطائر حين التفتِّ إلى أخيك في لغوٍ اعتَدْتِه، وكنت أنصحك دائمًا أن تغلقي فمك عند الأكل، غضبتِ بوجهه وذهبتِ إلى المطبخ لتجلبي فطيرة، ولما لَم تجدي، عُدتِ وصرختِ بوجهه: «أنت تأكل كالدب!». هاج الجميع بالضحك، إلا أباكِ فقد وبَّخكِ بشدة. ومنذ ذلك الوقت حرصتِ على إكمال طبقك كلما حضر عمك...).

قاطعتُ جدي وقلتُ:

- أتَذَكَّر أنك كنتَ تستعد للسفر، أليس كذلك؟ كان عمِّي سعيدًا وصار يحبني ويجلب لي كثيرًا من الهدايا الصغيرة، وكلَّ مرة يُذكِّرني بأنه لن يأكل فطيرتي مرة ثانيةً. وحين اقترب موعد السفر وجاء عمي الأكبر مودِّعًا، لمحت في العيون ارتباكًا وعدم ارتياح لزيارته المفاجئة، لم أستطع تفسيره، الصورة في ذهني

مشوشة، أظنكم تخاصمتم وعَلَتْ أصواتكم، وأنا كنت خائفة، أليس كذلك؟

واصل جدي حديثه وأكدَّ لي ما رسخ في ذاكرتي، قائلًا:

- لم أخبر عمك الكبير بتفاصيل الخطبة، فقد اشترطَتْ والدة العروس أن نسافر إلى مدينة رشت في إيران للقاء أخيها الأكبر والفوز بمباركته للزواج. كانت سيدة جميلة مالكة لقرار زوجها، وهو الخاضع لسلطان جمالها، رجل فاضل، قليل الكلام وغير ميّال إلى المخالفة. لم أكن أعرف من يكون خال العروس، لكني حين سمعت بِاسمه، صرت أكثر تشوُّقًا إلى إمضاء السفر.

عند هذا الحد لم أقوَ على ردِّ فضولي وإن كنت شغوفة بحكاية جدي، ومتشوِّقة إلى معرفة نهايتها، سألته:

- ومَن يكون خال الفتاة؟

لم ينتبه لسؤالي وواصل السرد:

- كنت مأخوذًا بفكرة السفر إلى تلك المدينة الهانئة الجميلة، وقد زرتها في مطلع شبابي وكانت لي أيام فيها خِلتُها بداية لسعادة لا نهاية لها، وليغفر لي ولدي نسياني، فلَم يُهمِّني حينذاك أن يثمر مسعى الخِطبَة، بقدر ما أحسُّه في أعماقي من شوق إلى استعادة فرحة قديمة، فما للذكريات من ذنوب؛ فهي محض مشاعر تتملكنا في لحظات تساوي عمرًا. لو كنتِ معنا لتهت بين غاباتها، ولم نعثر لك على أثر، وربما ظهر لك دب أو ذئب فصرت لهما طعامًا لذيذًا، أتذكُرين ما فعلتِ في وادي العرائش حين ضعت منا وأضعت علينا يومًا ونحن نبحث عنك؟

قلتُ له بحُزن:

– أجل، أتذكَّر كيف فركتَ أذني، وكيف قرصتني عَمَّتي، ما زلت أتوجع من غضبكما! أكمل يا جدي.

– أحَارُ في وصف تلك البلاد، كأنها بعض الجِنان التي وعد الله بها خلقه، أيُّ سحر ضمَّنا ونحن في طريقنا إلى رشت! وقد أدركنا الظلام، ونالنا بعض الخوف من مسالك الجبال فصارت عمتكِ تبتهل إلى الله أن يكتب لنا السلامة، لكننا إذ سمونا بصعودنا لاحت لناظرنا حقول من الفضَّة الزاهية، بحيرات تُوصف بأنها جمعٌ من الأَهِلَّة، ولك أن تتصوري روعة المشهد فالقمر كان في تمامه، يضيء الوادي ويغمرني بإحساس لم أعهده من قبل، مزيج من الرهبة والانبهار، وتوقٌ إلى التوحد مع اسمه ذي الجلال والجمال. نامت عمَّتكِ على كتفي، فيما ظلَّ ولدي العاشق غارقًا في أحلامه، يُحدِّث نفسه ويسألني: «هل سيوافق خال العروس؟»، كنتُ أُجيبه: «وإذا رفض.. هل ستنتحر؟ لِعلمك، أنا لم أشدَّ الرحال إليه من أجلك، بل لأني علمت أنه صديق قديم، وقد شقَّ عليَّ فراقه». طال الطريق وطالت سكرتي بنفحة عشق قديم أَسَر مني الفؤاد وما زال ينبض في قلبي. لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة حين سافرتُ إلى «رشت» للقاء «الشيخ رجائي»، مبعوثًا من والدي كي أتلقى دروسًا في الدين وأنهل من واسع علمه، لكني فضَّلت أن أتأخر عنه ليوم واحد لأنعم بالتجوال في هذه المدينة الجميلة في كل ما فيها، مبانيها وشوارعها المحروسة بالأشجار الباسقة، رذاذ أمطارها إذ يُذكِّرني بجفاف بلادي، بحرها العجيب إذ تطِلُّ

عليه بلدان شتَّى، حُسن فتياتها وخطواتهن الواثقة. مدينة رشت تنام في حضن غابة فسيحة كما وصفها أبي. في يومي الثاني سرت متثاقل الخطى، متهيِّبًا لقاءَ الشيخ، وما ينتظرني مِن دروس صعبة. وبينما كنت أتتبع وصف المكان، وخارطته التي ضيعتني أكثر مما هدتني، رأيتها هناك تختال بحسنها، ويشِفُّ شادُورُها الملون عن قَدٍّ أبدع الله في صنعه، سرت وراءها منتشيًا بعطرها الذي ضوَّعَ مع النسمات إذ لاعبت خصلات شعرها الشاردة، اقتربتُ منها وسألت عن عنوان الشيخ مرتضى، فقالت «اتبعني»، ورمتني بنظرة تمنيت معها لو أذوب بين رموشها، يا للحظ حين يبتسم! قلت في نفسي ماذا لو رافقتُها إلى مقصدها؟ علَّ الله يكتب لي أمرًا معها.

تعجبت مما أفاض فيه جدي، كم غيَّرته السنون! ها هو يروي لي ما كان يطويه في قلبه، كم يسعدني الحديث معه! سألتُه:

– وهل بلغتَ أمانيك؟

– قد لا تصدِّقين يا ابنتي، فبعد أن استقبلني ربُّ الدار، وسلَّمته رسالة أبي وهداياه؛ تناولنا الغداء والحلوى، لاحظ مُضيِّفي كم كنت مُتعبًا فتركني لأرتاح بانتظار جلسة الشاي، وما زال الفِكر مني مشغولًا بتلك الفتاة، والسؤال يُعذِّبني، ترى هل سأراها ثانيةً؟ وبينما أنا كذلك، إذ بالباب ينفتح ويبزغ منه قمرٌ أضاء روحي الوَلهَى، عجبت مما رأيت، هل تنزل الأقمار، أم زاغ مني البصر وأصابني مسٌّ من شوق؟! إنها هي في رفقة أمها، جاءتا للسلام عليَّ ودعوتي إلى الانضمام إلى مجلس الشيخ وأصحابه المقرَّبين. تأخرتُ عن رد التحية وكتمت

أنفاسي وأنا شبه مذهول بفَجْر مُحيَّاها وما أشرق في وجهها من وعود تخيلتها، لكني تمالكت نفسي ونظرت إلى عينيها فإذا هما بحر رائق تسبح فيه أرواح هائمة، تُرى كم من شهيد قضى دون وصلها؟!

أفقت من غفوة ذكرياتي حين سمعت السائق يعلن قرب وصولنا، ويبدو أني أطلتُ المقام في نعيم الحلم، فقد بات الطريق مستويًا ولاحت بشائر الفجر، حتى الطريق تواطأ مع حلمي، كنت معها أمشي على السحاب، وها قد صحوت لأنزل على الأرض. المهم وصلنا إلى بيت الشيخ مرتضى رجائي، وفي الطريق أشبعتُ ولدي نصائح عن حسن التصرف والظهور بمظهر الرجال، لا كما اعتادَ من لا مبالاة وبلادة، وكانت جدّتكِ قد أفسدته بدلالها. لم تفارقني الذكريات طيلة رحلتي هذه، فبعد فرقة ثلاثين عامًا، شاء الله أن أعود إلى أستاذي الشيخ، ولكن كصديق وليس كتلميذ، وقد كان له الفضل في ما أنا عليه من معرفة وعلم، فهو الذي فتح عيني على كنوز الأدب وعلمني أن أحب لغتي، وأكتشفَ كم هي غنية.

سكتْ جدي ولاح في عينيه أسفٌ قديم فَبَدَا كأنه يعاتب الحياة، لكنه استرسل: شاء الله أن ينقطع ما بدأه معي معلمي في زيارتي الأولى، فلم تنقضِ سوى أسابيع قليلة على إقامتي في داره حتى وجدت نفسي مضطرًّا إلى العودة بسبب مرض أبي. كنت الأوسط بين أبنائه، والأحبَّ إليه، ولذلك لم يحتمل فراقي حين أدرك بما يشبه النُّبوءة، أنه مفارق لهذه الحياة.

جدِّي الذي سمَّيته «أطيب الرجال»، مُحدِّثٌ بارع، لا أملك حين أصغي إليه إلا أن أتخيل كل التفاصيل التي يستحضرها كأني كنت معه، في كل منعطف من الرواية تزهو ملامحه، ثم يغيب السرور عنها فيبدو كما لو أن عاصفة داهمته وضلَّ الطريق... سألتُه:

- لعلَّ الشيخ رجائي هو الذي أرشدك إلى مائدتك العامرة من كُتب الأدب، ولكن ألم تقل لي يومًا إن أباك أرسلك لتتلقى دروسًا في الدين، وإنه كان يكره الشُّعراء؟

- بَلَى يا ابنتي، لكن حكمة الشيخ هدته إلى ما كنت أحتاج إليه. فأنا لم أكن راغبًا في دراسة الدين، ففي تلك السنِّ من الشباب كفاني تديُّني البسيط للتمييز بين الخير والشر، والحقيقة كان بي توقٌ إلى الحب، وهذا ما أدركه مُعلمي، فأرشدني إلى أشعار الصوفية في الحب الإلهي الذي ينهل من دنيا العاشقين الفسيحة، ويبدو -لِحديث العهد به- كما لو كان مناجاةً للحبيبة، وكيف أراد الله لجمالها أن يكون وسيلة لمعرفة جماله، فالمخلوقات -كما يرى المُتصَوِّفة- مِرآة لقُدرته. أكثر ما حزَّ في نفسي فراق بيروز (ابنة الشيخ)، فقد لمستُ منها ميلًا، ورَسَتْ أحاديثنا قرب شاطئ آمن، لكن البوح تأخر وعاجلني السفر.

سألتُه وأنا أتابع موجات الأسى في عينيه:

- ولماذا لم تعُد؟

- حاولتُ، لكن الظروف حاصرتني، فقد فرضوا عليَّ زيجةً لم أُفكِّر فيها، فبعد وفاة أخي الأكبر في رحلة الحج، عزَمَتْ أرملته

على العودة إلى أهلها في بغداد مع طفلتها ذات العامين، لكنها وجدتْ نفسها أمام خيارين: إما أن تتنازل عن حضانة ابنتها، وإما أن تقبل بالزواج بي، ففي تقاليد مجتمعنا كثيرٌ من القسوة، تطيح بأجمل آمالنا، وتسلبُنا الإرادة، وهكذا سلمنا وقبلنا الزواج على كَرهٍ، ولكن مع العشرة الطيبة ألِفَ بعضنا بعضًا وتواددنا، وزاد من أُلفتنا ما اشتركنا فيه من حب الصغيرة وجيدة.

– كم تفاجئني يا جدِّي! أحقًّا أكبر عماتي ليست ابنتك؟

– نعم، وكما تعرفين فقد عاملتُها أفضل من كل بناتي. والآن سأحكي لكِ تفاصيل الخطبة وكيف كان لقائي بأستاذي الذي صار يعاملني كصديق: بعد أن بلغتُ الخمسين، وشارف هو على الخامسة والسبعين، كان يحلو له أن يجيب من يسأله عن سِنِّه بصوتٍ عالٍ: «أنا في الأربعين»... ثم يخفض صوته ويقول: «زائدةً ربُع قرن!»، على أن همة الشباب كانت تسري في عروقه، ولا ينفك عن القراءة والتدريس، وفوق ذلك كثير الولع بزوجته التي تصغره بعشرين عامًا...

قاطعتُ مُحَدِّثي لأسأله عن الفتاة التي أحبها.. «بيروز»، وكيف رآها بعد كل هذا العمر، لكنه لم يجب إلا بآهٍ ثم آهٍ من لعبة الأقدار! فعلمتُ أنها رحلتْ في عزِّ شبابها بعد إصابتها بداءٍ عُضال.

واصل جدي حكايته:

– حين دخلنا صالة الضيوف قابَلَنا الشيخ مرتضى كما لو كنا غيثًا من السماء بعد جدب طويل، عانقني ثم أخذ بيدي إلى صدر المجلس، وبعد أن هدأتُ في مقعدي وألقى فرَحُ

اللقاء طمأنينةً على قلبي؛ التفتُّ إلى أحد الجُلساء وحاولتُ أن أستعيد ملامحه، فإذا هو صاحبي الدرويش نيازي، وقد نال منه الزمن وألبسه رداء التعب، رفع ناظريه ليتبيَّن مَن الضيف، وبدت عليه الحَيرة من ضعفٍ أصاب بصره، كاد أن ينهض، لولا أنَّ راعيَ المكان أشار إلى ولده أن يُمسك بيده ويقربه منِّي.

عند هذا الحد توقف جدي عن نُثار الحديث وشجوه، وصار ينتحب من تزاحم الذكريات، فبدا للحظات كأنه لا يراني، ربما أراد أن يخلو إلى نفسه. عانقته وطبعتُ قبلة على جبينه، وحين وضعت يدي على مقبض الباب، التفتُّ إليه فكانت منه نظرة أبكتني، قال لي وهو يكفكف دموعه:

– لماذا تتركينني؟ دعينا نكمل حديثنا

كنتُ توَّاقة إلى معرفة مزيد لكن صوتًا قويًا تناهى إلى سمعنا، إنها العمة فوزية تعلن نهاية جلستنا، فالغداء جاهز ولا مجال للتأخُّر وإلا أصابنا صوت أشدُّ. اعتذرتُ لها لأني لم أساعدها، فمنذ الصباح وأنا أقرأ في رواية «الإخوة كارامازوف»، وقد بكيتُ مع الباكيات في مأتم الصبي «إيليا» كأني أُمُّه. قالت لي:

– لا عليكِ؛ سأحتاج إليكِ غدًا فقد دعوتُ زميلاتي المعلمات، وأمامك كثير لتساعديني».

يا لحماقة المصادفات! غدًا لديَّ موعد معه، ما العمل؟ لا سبيل للاعتذار إلى عَمَّتي فهي تمنحني كل عطف واهتمام، إذًا سأراه اليوم. سارعتُ لأهاتفه، ولم أنتبه لنفسي كيف ازدردت الطعام لأستعجل لقاءه في بيت أخته، صديقتي فريال، وكانت عَمَّتي تنظر إليَّ بدهشة، وتقول: «أراكِ لم تأكلي منذ عام!».

خرجتُ من الدار غير آبهة بمظهري، مُسرِعة والشوق يسبقني، فأنا أحتاج إلى وقت طويل معه، سيسافر غدًا في بعثة دراسية، ولا أعلم كيف ستسير الأمور بيننا.

وهناك حيث السكون إلا من أنفاسنا، شعرتُ لأول مرة بأني امرأة تجاوزت أسوار الخوف من الآخَر، نظراته منحتني فرصة لأعرف كم هو شغوف بي، كان به شوق يكاد يملأ المكان ويفيض، وكان بي مثله، تُرى هل نضيّع الفرصة كما تعودنا؟

دنا مني فطالت بنا لحظة القُرب، وتمادى الوصل لولا همسة الحذر... تساءلَ بحسرة:

- هل سيجود علينا الزمان بفُرصة أخرى؟ أراك ضنينةً وتزعمين المحبة.

لم أُجبه، وبقيتُ صامتةً أُتابِع لحن المغيب، والشمس يخبو من شعاعها لون النار، كأنها تقول لنا: وداعًا، فما أقسى الوداع!

عُدتُ إلى البيت، فوجدتُ عَمَّتي منهمكة في التحضير لوليمة الغد، لم تنتبه لمَقدِمي، فتسللتُ إلى غرفتي لأنعم بالخُلُوِّ إلى نفسي، وأستعيد ذلك العطر الذي انساب في كياني، وتمنيتُ رقادًا يجود بطيفه، ولكنَّ دُونَه الأرق ولوعة الفِكر... تُرى هل سيعود من أجلي؟

جنَّ الليل وتزاحمت الظنون في رأسي فدار في كل اتجاه، ولا أدري متى التقت أجفاني وعافني تعب الخاطر. وبين اليقظة والمنام سمعت همسًا وصوتًا حنونًا:

- أفيقي يا ابنتي، حان وقت الصلاة.

إنه جدّي، وقد تعوَّد أن يُوقظني، وإن كنتُ صراحةً لا أفهم لماذا علينا أن نستيقظ لنُصلِّي، ما دام ذِكر الله متاحًا في كل وقت... نهضتُ متثاقلة وفكَّرتُ في مَخرجٍ يُعيدني إلى فراشي، فقلتُ له:

– آسفة يا جدي، فأنا معذورة.

لكني نسيت حكمة قديمة تقول «إذا كُنتَ كذُوبًا، فكُنْ ذَكورًا». ضحك جدي وقال:

– قبل أسبوع تعذرتِ، هيا انهضي وتوضَّئي يا كسولة، وبعد الصلاة سأكمل لكِ قصة الأمس، هيا.

بعد فراغنا من الصلاة، أمسك جدي بيدي وطلب أن أساعده على جلب ألْبُوم قديم من رفٍّ عالٍ في غرفته، ففعلتُ، وبدأنا الحديث وقد زال نعاسي.

دُهشت لِما رأيته من طبقات التراب فوق الألبوم القديم، كأنه تُرك في مكانه لعِقدٍ من الزمان. جلبتُه وأنا أحاذر أن تثور حبَّات الغبار في عينيَّ، وضعتُه أمام جدي بعد أن نفضتُ ما عليه من ماضٍ مغبر.

مدَّ يده ليفتح أول صفحةٍ، فتجمدتْ أصابعه ونظر إليَّ بوحشة الحزن ليبدأ استذكاره الشجِيَّ، قال:

– أتعرفين يا سلمى لماذا تركتُ كتاب الذكريات كل هذه الأعوام، واخترتُ أن أُحدِّثكِ وحدك بما جرى لعمك في مشوار عشقه، وكيف انتهى إلى حالة من الكآبة هي أقرب إلى الذهول؟ أتعرفين لماذا أحدثك عنه؟

وصار يسرد بألمٍ مأساة ولده وكيف تخلتْ عنه خطيبته حين صادفتْ من هو أفضل منه وأكثر مالًا، ولضعف نفسه وانحسار أمله لم يحتمل، وظلَّ يقتات من أحزانه ويسرف في عُزلته.

بقيتُ أصغي إليه، حتى قال:

– لم أكُن غافلًا عما تمُرّين به من حَيرة وشرود هما محض مشاعر لا تحسنين إدراك كنهها في سِنِّك الغضة.

كِدتُ أسأله عن قصده، لكنه أشار إليَّ بالصمت، وتابع:

– أعرف أن زياراتك إلى صديقتك «فريال» ليست بريئة، ويؤلمني أن قلبك الطيب لم يكشف لك عن غَيرتها من تفوقك في الدراسة، فقد بعثتْ لنا برسالة تقول بأنك على علاقة بأخيها «سامر». لقد باحتْ لنا بسرِّك، وربما لغيرنا، وسواء صدقَتْ أم كذبَتْ، فأنت بِحاجة إلى نصيحة تكفيك شرَّ العبث والنِيَّات السيئة.

شعرتُ كما لو أن مطرقة هوت على رأسي، واحترتُ كيف أرد؟ كيف أنظر إلى جدي؟ فأنا لم أكذب عليه يومًا. سكتُّ وفي السكوت تسليمٌ وألمٌ وليس رضا. تنهدتُ بحسرة وسألتُ:

– أَلِأجل ذلك ستقصُّ عليَّ ما جرى لعمي وكيف ضاع منه حُبُّه وزَهِدَ الحياة؟

– نعم، أُريدكِ أن تهنئي بحياتك وألا تتورَّطي في علاقة حتى يشتدَّ عودك، وتكوني مسؤولة عن أفعالك، فما زلتِ صغيرة على شِراك الحب، أَوَتَحسبين أعوامك القليلة كافية لمعرفة الآخرين؟ تعلمين أن أبا سامر صديقي وموضعُ ثقتي، وطالما شكا لي سلوكَ ابنه وتعثُره في الدراسة، وقد قرَّر أخيرًا أن يقطع

عنه المصروف، وأجبره على السفر إلى إسطنبول ليعمل في متجر عمه.

قلتُ في نفسي: «يا لحظي العاثر فقد كذب عليَّ، وماذا لو كان يعبث بمشاعري ويتسلى؟! أنا لم أكن غبيَّة، لكنها فورة الصِّبا...».

كان جدي واثقًا بحقيقة وشاية صديقتي، رأيتُ ذلك في نظرته المُشفقة حين لاحظ انكساري ولون الندم الذي صبغ وجهي، حمدتُ الله لأني لم أتورَّط مع سامر ولم أسايره في كل ما أراد. قطع جدي شرودي ووضع يده فوق كتفي، قال:

- دعينا من حَسَد صديقتك وأخيها العابث، هيا لنُقلِّب صفحات هذا الكنز من الذكريات، انظري صورةَ جدتكِ في صباها، أليست رائعة؟ ألم أكن معذورًا حين أغلقتُ قلبي عن سواها من النساء؟

ابتسمتُ وأنا أرفع الصورة وأقبِّلها، فكم كنتُ أحبها، قُلتُ له:

- بَلَى يا جدي.

قضينا ساعتين ونحن نجول بين السنين، فأضاف جدي وفي عينيه فرحٌ قديم:

- هذه ضفاف من تاريخ طابت فيه أوقاتنا، وخلت مما يشكوه جيلكم من تقلب الأحوال، وتَسَيُّد أشرار الناس على أخيارها.

هكذا قال مُحَدِّثي وهو يشير إلى صورة جمعته مع الشيخين القريبين إلى قلبه «نيازي» و«مرتضى»:

– ها هنا مجلسٌ ضَمَّنا يوم احتفلنا بموافقة خال العروس على الخطبة، وفي هذه القرية الغافية على سفح الجبل أمضينا نهارًا طيبًا في ضيافة عائلة كريمة، والمكان ليس بعيدًا عن مدينة «جالوس»، فلم يشأ صديق العمر إلا أن يُحمِّلَنا هدايا لعماتك، أقمشة من الحرير الخالص الذي تشتهر به هذه المدينة. ومن المفارقات المضحكة أن ابن الشيخ هو الذي أقلَّنا بسيارته، ولم يكن مهتمًّا بخوفنا من التواءات الطريق الجبلي، بل ظلَّ يضحك منَّا، ولم نكتشف سِرَّ مرحه غير العادي إلا بعد عودتنا، فقد جاءني معتذرًا عما سبَّبه لنا من خوف، وأسرَّ لي بأنه كان تحت تأثير الشراب، واستحلفني بالله ألا أقول لأبيه فأعطيته وعدًا بالكتمان، والغريب في أمره أنه كان يقود بمهارة فلم نلحظ ما يثير قلقنا، غير أننا لم نألف الترحال بين الجبال.

بقينا على شرفة الذكريات حتى وصلنا إلى مشهدٍ يكاد يفصح عن جنَّة؛ وإن كانت الصورة بالأسود والأبيض...

– أيُّ مكان هذا؟! ولمن القَصْر الذي في جواركم؟

أجاب جدي:

كرَمُ صاحبي ليس له حدود، أخذَنَا إلى مدينة «رامسر»، وكانت في الأصل منتجعًا للعائلة المالكة، ولم يكن فيها غير قصر الشاه، ولكن قبل وصولنا بعامين فتحتْ أبوابها للجميع.

واصل جدي حكاياته بلسان بحَّارٍ تناءى به الموج فألقاه على شاطئ جزيرة مسحورة، كان مأخوذًا بجمال الأماكن التي زارها، برقّة نسيمها، أزهارها وثمارها، بل حتى حجارتها ورمالها، شممت رائحة البحر من حديثه عن شواطئ قزوين، وأبصرت

مدائن تنام على ضفافها، ومنازل في الأعالي يظللها الغمام، كأني في حلم، رأيت صفًّا من باسقات الشجر، تتشاجن أغصانها في المنتهى، وتهمس لشعاع الشمس بأن يمرَّ إن استطاع.

ولعلِّي تذكَّرتُ طريقًا أبدع جدي في وصفه، ذاك الذي يمتد بين البحر والقصر، ثم تعالى بي الحلم صوب الجبال فأرسلتُ النظر بعيدًا إلى صومعة زاهد، وتهادتْ إلى سمعي نغمة شجيَّة من دُعاءٍ يسيل على شفاهٍ عطشى. كان يُلملم أوجاعه ويحدِّث مولاه كأنه يراه، يقيم الليل ويحسبه نهارًا، فشمس العارفين لا تغيب، سمعته يناجي ربَّه ويسأله أن يطيل عمره ففي قلبه لوعة من قرب الرحيل، كيف سيفارق رفيقه بعد أن منَّ الله عليه وقرّب البعيد؟ نفسه تُحدِّثه بأنها لم تعد تقوى على حمل جسده الواهن، تقول له وقد تهيأت للعودة إلى محلها الأرفع: «ماذا تريد بعد أن أكرمك الله بلقاء صاحبك الأغلى؟ لقد جاءك من بلاد بعيدة وأمضيت معه أيامًا طويلة، هيا لنرحل إلى دار البقاء...».

يفيق المُريد من سكرة الوصال ويتحامل على عُوده الناحل حتى يصل إلى مجلس الشيخ مرتضى فيجلس إلى جانب جدي ويهمس بأذنه: «دعوتُ الله أن يمدَّ لي حبل البقاء حتى تعود إلى ديارك، لكنَّ وَجيبَ قلبي ينذرني بأن كتابي في الدنيا آن له أن يُغلق، في سنينَ مضت، وبعد أن يئست من لُقياك نذرت أيامي لذكر الله، فما لمست في قلبي ميلًا إلى مباهج الحياة، وكم ألحَّ عليَّ الشيخ الجليل بأن أنعم بصحبة زوجة صالحة، وتلك امرأة في الجوار كانت تحنو عليَّ، لكني أبَيْت واحتميت

بعزلتي، أمَّا اليوم فأنا راغب في عمر جديد، فهل تراني سأعيش أكثر من يومي هذا؟».

بقيتُ أستعيد كل ما قاله جدي عن صاحبه بعد أن ذهبتُ إلى غرفتي ونمتُ على قلقٍ لساعتين، حتى أيقظني ذلك السؤال الأليم: «هل تراني سأعيش يومًا آخر؟»

ثم تذكَّرت تكملة الحديث...

جدي حاول أن يُطمئن الشيخ نيازي ويُزيح عن خاطره هواجس الخوف، ولذلك استأذنَ مضيِّفَه أن يبقى في بيت صاحبه بضعة أيام، فاستدرك نيازي وقال: «بل ليلة واحدة يا أخي الكريم»! وهكذا كان.

فكَّرتُ أن أُسرع إلى عَمَّتي قبل أن تقتحم عليَّ غرفتي وتُمطرني بالعتاب، لكنها بدت كريمة وتركتني أطيل النوم...

ويا لخجلي، فها هو أطيب الرجال يساعدها ويعدُّ الحلوى! آه كم يحبونني!

كان يومًا حافلًا مُحملًا بالتعب، فقد أكملتُ تنظيف صحن الدار ونصب المائدة الكبيرة، وفرشتُ عليها غطاءً نفيسًا من الأغباني الدمشقي الفاخر، ورتبت الصحون فوقها.

استأذنتُ عَمَّتي أن أستريح قبل أن تأتي ضيفاتها ويحين موعد تقديم شراب الفيمتو الشهير وتبادل المجاملات التي تكثر في استقبالات النساء، وأنا حقيقةً لا أجد نفسي في مثل هذه الجلسات، وإن كانت لا تخلو من سيدات لحديثهنَّ حلاوة، ويبدين آراءً تستحق الإصغاء، وبخاصة السيدة «أمينة» مديرة

المدرسة الابتدائية التي تعلَّمتُ فيها؛ كانت على درجة متميِّزة من الثقافة وشيء من التدين البسيط، ومما سمعته عنها أنها أقنعت عَمَّتَيَّ وجيدة وفوزية بالمشاركة في المسيرة التاريخية يوم عيد العمال في العام ١٩٥٩م، وكم ساور القلق جدِّي حين انقضى الليل وبان الفجر من دون أن يسمع خبرًا عن ابنتيه، لم ينم ليلتها، وبان عليه الاستياء حين عادتا قبل الظُهر، لكنه كتم غضبه إكرامًا لمرافقتهما التي كان يحترمها فأحسن استقبالهن من دون عتاب.

كنتُ أرتاح للست أمينة وأصغي إلى نصائحها، ويشدّني كمال هيأتها وثقتها بنفسها. وبعد أن مرَّتْ السنون، وجرت مياه غزيرة، وفاضت أنهُر الحياة بكثيرٍ من الآلام، وقليلٍ من الفرح؛ ما زلتُ أذكر نصيحتها التي أهملتُها:

– إيّاكِ يا ابنتي أن تتسرعي في اختيار شريك عمرك بدون حُبٍّ حقيقي ومشتَرَكات معقولة تكفل دوام العلاقة.

كان ذلك في معرض تهنئتها لي بالشهادة الجامعية.

سكت جدي عن الكلام ورفع ناظريه إلى صورة مُعلَّقة على الجدار، تجمعه بصاحبيه، وصار يبكيهما وأنا أحاول التخفيف عنه، وحين أدركه التعب وحان وقت رقاده، ناولني الألبوم وقال:

– تصفحيه يا بُنيتي وانظري كيف كان جدك في خمسينياته، وتأملي صور المدائن التي زرناها، وأي جِنان حللنا في ربوعها.

(٨)

ظِلال الطفولة في البيت المسحور

وعيتُ على صورة عَمَّتي «عديلة» منذ بلغتُ الرابعة من عمري، كانت بهيَّة الطلعة، وافرة الحُسن، يفيض وجهها وِدًّا وابتسامًا ، وطالما حاولتُ أن أعلو بنظري كي أراها، أتمسح بفستانها الأخضر، تحملني وتقول:

– ما أخفَّكِ يا صغيرتي، لماذا لا تأكلين؟

أجيبها:

– لأنك تركتِ الدار، ولا أعرف أين ذهبتِ، هل خطفك ذلك الرجل الشرير؟ أنا لا أحبه.

تطلق ضحكة عالية، وتقول:

– لم يخطفني أحد، بل تزَّوجتُ.

وتبدأ في شرح المعني الذي التبس على عقلي الصغير، ثم تأخذني في حضنها. كنتُ أناديها «ماما»، وما أكثر أمهاتي من العمَّات بعد أن انتزعني أبي من حضن أمي! وكم بكيتُ ليلة زفافها وأنا أتعلق بثوبها الأبيض الزاهي قبل أن يرفعني عمي ويبعدني عنها لتذهب مع عريسها! ولا أدري ما الذي أغراها بالزواج به وبينهما قُرابة ربع قرن، فما كان يتحلى بميزة

في الشكل أو القوام، ولعلَّ الذي أثقل ميزانه عندها، مكانته المرموقة، ومُقامه الطويل في باريس طالبًا للدراسات العليا في القانون، ما سيفتح لها أبواب الحلم بأن تكون زوجة لرجل عصري، يأخذها إلى مباهج الحياة الأوروبية. غير أن الحقَّ لا بُدَّ أن يُقال، فقد كان طيب القلب، يُكثر من المزاح، كريمًا، وأذكر أنه جلب لها كثيرًا من الهدايا، وحاول أن يستميلَني بلعبة غالية الثمن، لكني لم أقبلها، وكلما زارنا في بيت جدّي كنت أنزوي في غرفة عَمَّتي وأشمُّ رائحة ملابسها القديمة وأبكي.

أكثر ما كان يواسيني هو صوت عَمَّتي «مليحة» حين كانت تُغنِّي لـ«أسمهان»، فقد حباها الله برقَّة الصوت وجميل الصبر، فلم تكن تشتكي على الرغم من كثرة ما يُلقي عليها الأهل من أعباء بعد أن تسلمت أمانة ربَّة البيت من جدتي الراحلة.

في ليلة شتائية كئيبة كنت وحدي معها، وبينما أنا مشغولة بألعابي، إذ بصوتها ينساب إلى مسمعي كنغمة ناي مسحور، وكتغريدة طائر مشتاق إلى إلْفِهِ، اقتربتُ منها فسكتت وقالت:

– أنتِ خير مستمعة، فلا أحد يُصغِي إليَّ ويحسُّ بي مثلك يا صغيرتي.

واصلتْ بعد أن طبعتْ قبلة على خدي.

لم تكن تُغنِّي بل ترسل الصوت الشجيَّ إلى ذُرَا الإحساس، بدت لي هائمة في عالم آخر وهي تُردِّد: «يا طيور غني حبي وانشدي وجدي وآمالي...»، و يا لعذوبة صوتها! لا أدري هل كانت تحب، فلطالما راقبتها وهي تحدث نفسها وتحاور

شخصًا بعيدًا، تعلمت منها هذه العادة وظللت لسنين طويلة أختلي بنفسي وأصطنع حوارات مع مَن أحبهم.

لم تدُم صُحبتي للعمة مليحة، فقد شاءت مملكة الزواج اللعينة أن تأخذها مني هي الأخرى، فحين جاء الخاطب «يونس» ذو الشاربين المضحكين، والعينين المتراقصتين، كنت قد بلغت السابعة، وتعلمت أن أحتمي بعُزلتي وأحاور ألعابي، ومما سهل الأمر عليَّ أن صِهر العائلة الجديد كان مرحًا خفيف الظل، يجيد رواية النكتة، ولديه قصص عجيبة تثير الخيال، علمت لاحقًا أنها محض أكاذيب طريفة، منها أنه كان في رحلة مدرسية، ولم يتجاوز عُمره آنذاك الخامسة عشر عامًا، وقد تاه عن المجموعة بعد أن رأى غزالًا فأراد أن يُمسك به، وصار يركض والغزال يسابق الريح، حتى تعب وجلس على الأرض ليستريح، وبينما هو غافل عن الوقت والمكان، سمع عواء ذئاب، وتراءت له سِعلاةٌ بحجم جبل، لها فم كأنه فتحة بركان، يتطاير منه الشرر، كل هذا ولم يخف، بل شعر بقوة خارقة تطير به في الأعالي، وأطلق صوتًا كأنه الرعد، فإذا بالسعلاة تتلاشى كدخان ويتوقف عواء الذئاب.

كذبة أخرى تفتقت عنها عبقرية السيد يونس، فهو لم يترك مجالًا لأحد للشك في روايته أن جده الأعلى رأى السماء تمطر ضفادعَ رمادية بحجم القطط، وكيف عمَّ الفزع الشوارعَ وصار الناس يتدافعون من الخوف والضفادع تنقض عليهم.

يا له من أفّاق، لكنه كسب رضا العائلة ونجح في تسليتي، فحين سمعتُ بقرب سفر عَمَّتي في رحلة شهر العسل، بكيتُ

كثيرًا، لكني توقفت فور أن همس بأذني:

- لا تبكي يا بُنيَّتي، فبعد أن نرجع سأجلب زوجين من الأرانب، وتأتين إلينا لتلعبي معهما.

والغريب أنه صدق لأول مرة، فبعد سنتين من زواجه بعَمَّتي، امتلأت حديقة داره بعشرات الأرانب، حتى وصل عددها إلى سبعين، وحين سأله رجل ساذج يلتقيه في المقهى: «ماذا تفعل بهذا العدد من الأرانب؟» أجابه بمنتهى الجد: «زوجتي لا تشرب إلا من حليب الأرانب! وقد وصفه لها حكيم».

ما علينا منه الآن فهناك قصة أكثر تشويقًا في مشوار طفولتي، وستعجبون من تقلب أحوالي وما كان يخفيه ذلك القصر الكبير المتربع في قلب المدينة المبهجة، ناحية (الكحلاء) ذات الطبيعة الخلَّابة. فلأول مرة أرى بيتًا بهذا الطراز والفخامة، وكدت أضيع بين طوابقه وسلالمه العالية، وقد شاء الحظ أن نحتلَّ -أنا وعَمَّتي فوزية- الطابق الثالث منه، لنكتشف أسرار الحكايات التي حيَّرت كل مَن عاش في دار العم فواز، الأخ غير الشقيق لجدي، ذلك الشيخ الوقور والإقطاعي المَهيب، الذي أصرَّ على استضافتنا، أنا وعَمَّتي فوزية بعد تعيينها معلمةً في الناحية.

كنتُ ألعب وسط الدار الفسيحة الباهرة بجمال تصميمها وشرفاتها ذات الأقواس، وأكثر ما راقني فيها نوافذها المطرزة بقطع الزجاج الملون، وهديل الحمام في أعالي الدار، غير أن صوتًا غريبًا تناهى إلى سمعي في أواخر الليل سرق النوم من عينَيَّ وأغراني بترك سريري، أحسست بشيء ما يجذبني نحو

الغرفة المهجورة، إذ انفتح بابها فور أن طرفت أجفاني، فإذا بي أرى في ما يشبه الحلم، سربًا من كائنات عجيبة تشبه الأطفال لكنها بأجنحة بيضاء ترفرف كما الفراش، وما إن اقتربتُ منها حتى تلاشت مع أنفاسي المتصاعدة، ليس خوفًا بل انبهارًا، وربما أخذني المشهد بعجائبيته، فقد صحوتُ لأجد نفسي مستلقية على الأرض قرب الغرفة المسحورة، والغريب أني لمحت قفلًا كبيرًا على بابها، يعلوه الصدأ، حينذاك شعرت بالخوف وعدت إلى فراشي بدون أن تلحظ عَمَّتي غيابي، شعرت ببرد شديد يتسلل إلى ضلوعي، وصرت أرتجف وأدنو منها حتى أيقظتُها ففزعَتْ من صُفرة وجهي وما كنت أهذي به من كلمات غير مفهومة، وأشير إلى الباب. لم تنم عَمَّتي ليلتها وظلت في حَيرة من أمري، تسألني ولا أقوى على الجواب حتى هدَّني التعب ورحت في غيبوبة.

في الصباح فوجئت باجتماع غريب في غرفتنا، العم فواز وزوجته الطيبة تماضر، بناته وأولاده، كلهم كانوا ينتظرون أن أستيقظ ليطمئنوا، حينذاك علمت أنني كنت محمومة وفي حالة سيئة، وهذا ما كانوا يسمونه «حُمى الخوف». قصصتُ عليهم كل ما رأيته فلم يستغربوا، بل ضحكوا منِّي وقالت ربَّة الدار:

– ربما كنت تحلمين يا بنيتي، لا شيء يدعو إلى الخوف.

غير أن حفيدتها –كانت أكبر مني بسنتين، طفلة ماكرة تعودت أن تدسَّ أنفها في شؤون الكبار– أشارت إليّ بأن أتبعها كي نلعب، وهذا ما راق الجميع كي يتحدثوا بحُرية عن سِرِّ الغرفة المسحورة من دون أن أسمعهم.

أخذتني نجلاء بعيدًا وهمست بسؤال أفزعني:

– هل رأيتِ الجنَّ؟ هل تستطيعين رسمهم؟ تعالي إلى غرفتي.

أطعتُها لأنها صدّقتني، فأنا لم أتخيل، ولم تكن رؤيا، شاهدتهم ملء البصر. حسنًا سأرسمهم وأجعل الجدة تماضر تراهم، ولنسمع ماذا ستقول. وبدأت أستجمع كل موهبتي وأستعيد سحر المشهد، حتى وجدت صعوبة في التقاط أنفاسي، وتصبب عرقي، حينذاك خافت نجلاء وطلبت أن أتوقف، لكن الصورة اكتملت معي، وهذا ما أدهشها فقالت:

– إنهم هم، كما وصفتهم جدَّتي وقد سمعتها تُسِرُّ إلى جارتنا عنهم، كانت خائفة، لكن الجارة طمأنتها وقالت: «إنهم من الجنِّ، لكنهم صالحون فلم يمسُّوا أحدًا بأذى من قبل».

بقيت نجلاء تشاغلني بقصص غريبة سمعَتْها من الخالة «وَفْرِيَّة» التي تقوم على خدمة البيت، فيما كانت تحكي للجدَّة عن مخاوفها. اقترحت نجلاء أن نذهب إليها ونسألها عن تلك الكائنات العجيبة لنُرضي فضولنا وحماقتنا.

كانت منهمكة في إعداد وجبة الفطور حين فاجأناها فسألتنا:

– هل أنتما جائعتان؟

قلتُ لها:

– لا يا خالة.

وهمستُ بأذنها:

– جئنا نسألك عن الجنِّ، أمس رأيتُهم عند الغرفة المهجورة، هل تعرفين شيئًا عنهم؟ هل هم طيبون أم أشرار؟ أخبرينا فلن

نقول لأهلنا.

صرختْ وَفْرِيَّة، وتعوذت من الشيطان الرجيم، وبان عليها الخوف والشرود، ثم همست:

– اكتمي يا صغيرتي ما رأيتِ حتى لا يصيبك مكروه، إيّاكِ أن تتبعيهم، وإن ظهروا لك أغمضي عينيك.

وبدأت تُردِّد المُعَوِّذتين وترجونا أن نتركها في سلام.

وقبل أن نغادر المطبخ انتبهتُ لوعاء كبير كان فيه قليل من سَمن، فإذا به يزداد حتى امتلأ بدون أن تمسَّهُ يَدٌ، أشرت إلى نجلاء لكنها سحبتني من يدي حين أدركَتْ أن وَفْرِيَّة المسكينة في حالة من الفزع الشديد:

– هيا لنخرج، لا بُدَّ أنَّ في الأمر سرًّا، سنعرف كل شيء من دون سؤال، سنقف وراء الباب ونسترق السمع، هيَّا.

لا أدري لماذا طاوعتُها وأنا ما زلت خائفة، أهو نزق الطفولة، أم رغبة في تقليد نجلاء التي تقول عنها أمها إنها نصف مجنونة؟!

ما زالت عائلة العم فواز في غرفتنا، لكنهم أفشلوا خطتنا وأغلقوا الباب، لم نيأس واقتربنا من النافذة بحذر من دون أن يرانا أحد، ها هي عَمَّتي تُقدِّم الشاي والكعك، «آه كم تؤلمني حنجرتي، ليتني أشرب الشاي معهم، كم أنا جائعة!»، هكذا قلت فجاءني الجواب من نجلاء: «يا لكِ من جبانة! اخرسي ولنستمع إلى ما يقولون».

وصل إلينا الصوت واضحًا من الجدَّة تماضر، وسمعنا منها عجبًا روَّعَنا، وبدون أن نشعر دبَّ الفزع في أطرافنا واصطكت

أسناننا، وصار واضحًا لنا لماذا سكتت الخالة وَفْرِيَّة، فالمسكينة مربوطة من لسانها، لا تقوى على التصريح بما مرَّتْ به مع نَفَرٍ من الجِّن! فمنذ أشهر قليلة لوحظ اختفاء بعض الأواني والملاعق، وثلاثة من مفارش الأَسِرَّة، بالإضافة إلى خواتم ثمينة، ما أثار استياء ربَّة الدار، وجعل وَفْرِيَّة في موضع الشبهة، سألوها فحلفت أيمانًا غليظة بأنها لم تأخذ شيئًا، ولما لم يصدقوها صبَّت لعناتِها على الجِّن وأخبرتهم بما كان يحصل من تبديل لأماكن الأشياء في المطبخ، وغُرف النوم، وغير ذلك.

سخروا منها ولم يلتفتوا إلى توسلاتها، أمهلتْها الجدَّة إلى اليوم التالي لتغادر البيت الذي خدمته منذ أول شبابها. ثم جاء الصباح نذيرًا بما لم يتوقعه أحد، كانت وَفْرِيَّة تئن من الألم وقد تورم خدَّاها وازرَقَّت شفتاها، كانت تشير إلى الطابق العلوي، وترسم إشارات غريبة غير مفهومة، حينذاك تأكد للجميع أن في الأمر سِرًّا.

وحقيقة ما حصل حسب روايتها فيما بعد، أن اثنين من الجِنِّ طافا عليها في منامها وأمسك كل منهما بطرف فمها وشدَّه إلى جهته، وتوعَّدَاها بأشدِّ العواقب إن هي كرَّرت لعناتها على أهلهم. وما إن أفاقت حتى وجدت نفسها على تلك الحال، ولم تجرؤ على إيقاظ مَن في الدار. يزداد وضعها سوءًا فيحضر الطبيب لمعاينتها فيفاجأ بأنها لا تستطيع فتح فمها، وأن بها حُمى، يأمر لها بتحليل للدم ويصف لها ما يخفض حرارتها.

حينذاك كشف العم فواز لزوجته تماضر عما كان قد سمعه من جارهم بأن الدار مسكونة، لم يصدِّقه في حينه، وفكَّر أنه

ربما كان راغبًا في شرائه. وبعد ما حدث لوَفْرِيَّة، عاد إلى الجار وسأله، فقصَّ عليه حكاية الغرفة المهجورة، وما كان ينبعث منها من أضواء غريبة، ومشاهد عجيبة، ونصحه بأن يغلقها بقفل كبير.

ظلَّتْ وَفْرِيَّة تعاني الآلام وتبتهل إلى الله أن يُعينها ويُذهب الشرَّ عنها، وامتلأت الدار بقارئي القرآن، وتعالت تلاوة المعوذتين في كل آن.

وفي ليلة حلمَتْ وَفْرِيَّة بأن يدًا مباركة امتدت إليها ومسحَتْ فمها، وسمعَتْ همسًا يبشرها بعفو الجِنِّ عنها، فانطبعت البسمة على شفتيها. تمنَّت أن يصدق الحلم، وتلمست وجهها فإذا الورم قد زال وتحرك لسانها، وما عادت تتألم. وهكذا صدق وعد الجِن.

حرصنا على التقاط مزيد من الأسرار، لكنا رأيناهم يهمُّون بالخروج من الغرفة، بعد أن قالت الجدَّة تماضر، بصوت حنون وهي تربت على كتف عَمَّتي: «أوصيكِ بقراءة سورة (يس) كل يوم، وحبذا لو علَّمتِ سلمى أن تقرأها، ولا تنسي المُعَوِّذَتين».

نزلنا بخفّة وبسرعة، وتوجهنا إلى المطبخ فقد هدَّنا الجوع، وبعد كل ما عرفناه لا بُدَّ أن نعتذر إلى الخالة وَفْرِيَّة عمَّا سببناه لها من خوف وذهول. لم نجدها هناك فخشِينا عليها وأسرعنا إلى غرفتها، فوجدناها تصلي، قلت لنجلاء: «لننتظرها حتى تفرغ من صلاتها»، وافقتني وطلبت أن أبقى في مكاني ريثما تعود بهدية للخالة تطيب خاطرها.

ها هي تكمل صلاتها بالدعاء وتلتفت إليَّ بنظرة ممزوجة

بالدهشة والخوف:

– ما لك يا بنيتي، ماذا تريدين؟ ليس عندي ما أقوله».

وقبل أن أجيبها عادت نجلاء ومعها علبة الحلوى التي اشترتها لها أمها، قبَّلتها على جبينها وقالت:

– هذه هدية لكِ.

لم تَقْبَلها وَفْرِيَّة وقالت بحسرة:

– فيما مضى اتهمتني جدَّتك بأني سرقت، فلا أستطيع قبول أي شيء حتى تستأذنيها.

بكت نجلاء وبكيت معها، وقلنا معًا:

– سنخبرها، لا تردِّينا، فكلانا يحبك وجئنا لنعتذر إليك.

شكرتنا واحتضنتنا بكل محبة ثم أخذتنا إلى المطبخ لتُطعمنا.

هدأتْ النفوس من هواجس الجنِّ، وارتاح الجميع لفكرة التلاوة الجماعية لسورة (يس) التي اقترحها شيخ مُقرَّب من العائلة، وفي يوم ما زلت أذكره بكل وضوح، جلسنا في باحة الدار الفسيحة، يتقدَّمنا الشيخ عبد الله والعم فوَّاز، وكنا مع ساكني الدارَيْن المجاورتين لنا، وبعض أقربائنا، يصل عددنا إلى خمسين من النساء والرجال والأطفال، وقد جلستُ مع نجلاء بين عَمَّتي والجدّة تماضر، وأذكر أن شيئًا من الخوف أَلَمَّ بي، ذلك أن الشيخ عندما رآني رمقني بنظرة غاضبة، لا بُدَّ أنهم أخبروه بمغامرتي الليلية مع الجنِّ.

يا له من بيت عجيب لا يفارق خيالي! ففيه أنِستُ لصحبة نجلاء واللعب معها لساعات طويلة، وعرفت مَسَرَّات كثيرة برفقة عَمَّتي فوزية، كم أحبتني ودلَّلتني، وإن لم يخلُ الأمر من توبيخ وعقاب كلما خالفتُ تعليماتها. أكثر ما انطبع بذاكرتي جلسات المساء في الشتاء، وطعم الشاي والحلوى، وصوت المغني البعيد: «مسافر زاده الخيال، والسحر والعطر والظلال، ظمآن والكأس في يديه...».

كم أنا ظمأى لنفحة من وجودِكِ يا مَن بذلتِ كثيرًا من أجلي، ولم تكرمني الأيام حتى أكون بخدمتك! ترى أما للسفر من نهاية؟ في غربتي حلمتُ بلقاء معك، فلماذا استعجلتِ الرحيل يا غالية؟.

(٩)

جُملة عابرة

دعوني أخبركم قليلًا عن حالتي، ورجائي أن تعذروني، فقد بلغتُ من ضلالي درجةً ما عُدت أطيق نفسي عندها، ولا أجد لي مخرجًا مما أنا فيه من حَيرة.

عابر سبيل

يومٌ جديدٌ يؤرِّخ لخيبتي بين إحساسي بالذنب وخوفي من البوح، بين تعلُّقي بسلمى وخواء عقلي من أي فكرة، أو كذبة تُحسِّن موقفي. اليوم أنا عازم تمامًا على مصارحتها والاعتذار، بل والتضرُّع إليها من أجل أن تغفر لي.

وقبل أن يحصل ذلك ربما ترغبون في أن تعرفوا عني قليلًا، فقد دَسَستُ أنفي في ما يُفترض أنه لا يعنيني، لكنه صار الآن يعنيني بكل وضوح، وما يوازي شعوري بالعار كسارق، شوقي إلى رؤيتها والحديث معها، وما بذلتُه من جهد كي تبدو أوراقها في هيئة رواية جاهزة للطبع، ألا أستحق الشكر في رأيكم؟

بهجة اللقاء تغريني وتعينني على كل ما ستقوله. سألت أمّي أن تُكثر الدعاء لي كي لا ينعقد لساني، وهي لم تبخل عليَّ حين علمَتْ بصدق نيتي.

لم أشعر بالوقت حتى هلَّت تباشير الفجر، وسمعتُ صوت الأذان من هاتف أمي، فنومها ثقيل وتخشى السهو عن الصلاة، كنت أمازحها دومًا بالقول:

- إنَّ الله توعد الرجال وليس النساء في آيته: «فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون...».

كانت تجيبني بسخرية قائلة:

- أنت تُفلسف الأحكام على هواك، والفلاسفة لا يدخلون الجنة.

زارتني بالأمس وتكرمت بالمبيت عندي بعد أن أخبرتها بما نويته من إعادة الأوراق إلى صاحبتها، هكذا هي، لم تكن لتقبل

بأي تصرف معيب حتى لو صدر من أقرب الناس إليها، ولا تحترم من ينام على ذنوبه. ومع تشدُّدها تجملت شخصيتها بالعاطفة والرحمة، فقد عرضت عليَّ أن توصل الأوراق إلى سلمى من دون أن تذكُر عني شيئًا، كي تُجنِّبني الحرج والشعور بصغر النفس.

من لا يعرفها يحسبها سيدة قوية، لم تعرف الحب في حياتها، ذلك أن عملها مديرةَ مدرسة ثانوية كان يحتِّم عليها أن تكون حازمة شديدة في قراراتها، وهذا هو الحال في بلادنا، لكنها في الحقيقة لم تتصَلَّب في رأيها يومًا إلا في الأمور التي تمسُّ الأخلاق، والأمانة في مُقدمتها.

وفي ظني أن ما تتمتع به من استقلالية وثقة عالية بالنفس مَرَدُّه إلى استقرارها العاطفي، فقد عاشت حُبًّا كبيرًا مع أبي، ملأ نفسها بالكبرياء، وعلى ما أذكر من سِنِي طفولتي ومراهقتي أن أبي هو من كان يحمل السلام والوفاق للعائلة، وكلما عاودتني صورته، تُقْبِل بتلك الملامح الحزينة الراضية، كان زاهدًا في احتياجاته، متسامحًا، فهو لم يشْكُ يومًا من تلميحات والدتي بأنه لم يُكمل تعليمه، وتكرارها «قصيدتها» في غيابه بأنها أكثر ثقافة منه، ومع أنه استمر في تَلَقِّي إشاراتها بسماحة وتظاهُرٍ بعدم الاهتمام، لكني كنت متيقنًا من أن مظاهر السعادة التي كان يُبديها، إنما تُخفي وجعًا دفينًا، وما يؤلمني حين يعبر بخاطري، أنني لم أشجعه كي يفتح قلبه ويزيح عن نفسه الهم، لا أدري لماذا، هل لضعفٍ في شخصيتي، أو لعدم نضوجي آنذاك؟

على كل حال وبعد مُضي سنين على رحيله، أقول إني فخور بأمِّي لسهرها على تنشئتي ونبذها فكرة الزواج، لكن خَصلة فيها جعلتني أبتعد عنها في سكني، وهو ما لم تغفره لي، لم تفهم خصوصيتي كرجل، وجعلت من محبَّتها لي طوقًا في عنقي، فكرتُ أن الزواج سيحرِّرُني من سيطرتها فتزوجتُ ابنة خالتي لأضع حدًّا لتدخُّلِها في حياتي. وكأي شاب يحظى بالقُرب من فتاة جميلة، أحسستُ بالرضا يملأ كل كِياني وخُيِّل إليَّ أني بلغت السعادة، وكذلك كانت شريكتي، بدت مُقبلة على الحياة، راغبة في صُحبتي.

لكن الحال لم يدم؛ تغيرت مشاعرنا وما عاد لكلينا أجنحة نطير بها فلا تَغلبُنا الرياح، وسُرعان ما أدركنا أن ما بيننا ليس حُبًّا، بل رغبة متنكرة (*)، وما إن خلعت قناعها حتى انطفأ وهجها.

وكما قدَّرتُ فقد رفعت أمِّي مظلتها عن رأسي، وصرتُ أكثر حرية في قراراتي، وشعرت بأني أحبها أكثر، ولأني عشت بعيدًا عنها، بدا لي أنها تغيَّرت تمامًا، وما علمت أن الفضول لم يغادر طبعها، حتى صدمتني بسلوكها الغريب. أرادت أن تعرف مَنْ المرأة التي شغلتني حكاياتها، فتسلَّلَتْ إلى غرفتي وعبثت بأوراق سلمى، وما إن قرأتْ بعض إضافاتي حتى أقبلت عليَّ

* الوصف مستلهَم مما ورد في رواية (عندما بكى نيتشه) للكاتب الأمريكي «إيرفن د. يالوم» على لسان الفيلسوف الألماني «نيتشه»، وقوله: (الحب شهوة متنكرة).

غاضبةً، وصرخت في وجهي:
– هي إذًا من تحبها، ومِن أجلها لا تردُّ زوجتك، أُمَّ ولدك وابنة خالتك؟!

كادت تمزِّق الأوراق لولا أني أسرعت وانتزعتها من يدها وقد طار صوابي، ورفعت صوتي لأول مرة:
– هل سأبلغ الخمسين من عمري حتى ترفعي وصايتك عنِّي؟

دمعت عيناها وفاض منهما الندم، لم تقل شيئًا وجرَّت قدميها بصعوبة لتغادر وهي في أشدِّ حالات الحزن. تركتُها من دون أي كلمة تُطيِّب خاطرها.

لم أكن متسبِّبًا في فشل زواجي، فكلانا تسرَّعَ، واستجبنا لرغبة الأهل وتشجيعهم، كان ينقصني النضوج، وهي ضاقت بسُلطة أبيها ككثير من الفتيات، ثم تورَّطنا في ولدٍ لم نُدخله في حساباتنا، هي أمٌّ فاضلة وأنا أحتفظ لها بكل تقدير، لكني لا أحبها، وأظنها لم تعد تفكر فيَّ. وكما تعلمون، فإن أي اثنين حين ينتهي بهما الحال إلى جُمل قصيرة، وصمت طويل، تكون الجفوة بينهما قد أخذت مداها وصار البُعد أسلم لكليهما حتى لا تجفَّ رُوحاهما تمامًا.

أما عن ولدي فلستُ مُقصِّرا في حقه، وأحرص على أن أراه كل يوم وأطمئنَّ على حالته النفسية، هو طفل سعيد ولا يشكو من فراقنا.

هذا ما قلتُه لأمِّي في الغد، حين زُرتها لألتمس عفوها عني لِما بدر مني بالأمس. عُدت إلى داري وأنا في حالة من السرور

والرضا، لا أدري لماذا، هل هي لمسة الأم وصوتها الذي يفيض حنانًا، أم لأني سألقى سلمى غدًا، المرأة التي ملأت أيامي بحكاياتها؟

قلبي يرتجف فرحًا وخوفًا كلما دنت ساعة المواجهة، لكنها أبطأَتْ، وأتعبني الانتظار حتى يئستُ، وفي طريق عودتي إلى داري، لمحتُها، تجرُّ الخُطى وتحمل يومًا مثقلًا بالعمل، بدت شاحبةً مهمومةً، لكنها أقلُّ حزنًا. ضوء الشارع كان ضعيفًا لم يُتِح لها تبيُّن لون الملف الذي ضمَّ أوراقها. حيَّيتُها فردَّت تحيَّتي بلطف، وسألتني عن اسمي، سَرَّني سؤالها، فقُلت بخفة من ينوي الهرب:

– أما أنا فأعرف اسمك، أنتِ سلمى.

وما إن نطقتُ بهذه الكلمة حتى انتفضتْ وصاحت:

– هل وجدتَ أوراقي؟

– نعم.

لكني لم أَقْوَ على مصارحتها والتوى لساني، يا ويلي! كيف سأشرح لها بعد أن بُحْتُ بِاسمها؟!

سأترككم الآن كي ألتقط أنفاسي، وأكمل معكم مشوار حكاياتها.

(١٠)

كَنز العمَّة وجيدة

عندما عُدتُ من المدرسة في ذلك اليوم النحس، تمنيتُ لو أُلقي برأسي فوق الوسادة فلا أصحو إلا بعد عام، أكون فيه قد نسيتُ ما انتابني من حزن على رحيل صديقتي رُقيَّة.

وجدتُ الدار خاليةً على غير العادة، فأسرعتُ إلى غرفتي وتهالكتُ على سريري بدون وعي، وما هي إلا غفوة عابرة حتى صحوتُ على صوت عَمَّتي وجيدة، كانت تنتحب بصوت يفطر القلب، أسرعتُ إليها فوجدتها غارقةً في دموعها، تندب حظها وتصب اللعنات على من كان زوجها.

- ما الخبر؟ وما الذي استجد من أمره؟

سألتُها وأنا أحضن رأسها وأتوسل إليها أن تهدأ، لم تُجِب لكنها أشارت إلى ورقة مُلقاة على الأرض، تناولتُها وقرأت، إنها وثيقة طلاق من المحكمة الشرعية.

يا للنذالة! يُطلِّقها بعد ثمانية عشر عامًا من التظلُّم لدى القضاء! إنه مطمئن إلى أنها لن تتزوج بعد أن تجاوزت الأربعين، يا لخِسَّته! وأي ظلم تستبطنه الشريعة الغرَّاء، شريعة الفقهاء!

قالت لي بلُغتها الباكية:

- أتعرفين لماذا فكَّر في الطلاق؟ هو مريض ويحسب أنه مُشرف على الموت، ولذلك يخشى أن أشارك زوجته وأولاده في الإرث، اللهُمَّ اجعل عمره طويلًا وعذابه كثيرًا، اللهُمَّ بَدِّد ماله ولا تبلغه آماله، إلهي يا خير منتقم، لا تذره يهنأ بحياته، فقد أذبل منِّي الشباب، وحرمني أي فرصة للسعادة.

صمَتُّ إزاء جلال حزنها وثورة نفسها، تركتُها تزيح عن قلبها ثقل السنين، ثم بكيت لحالها فصارت تحدِّق بي وتبتسم بمرارة قائلة:

- جئتِ تواسينني أم تزيدين من حزني؟

ضحكتُ وصرت أكفكف دموعي وأحضنها. وفجأة أبعدتني عنها وأضافت بنبرة تحذير وبكل جد:

- اسمعي جيدًا، لا تتزوجي إلا بشرط العصمة في يدكِ، هل فهمتِ؟

- نعم.

والحقيقة أنني لم أفهم شيئًا، كل ما كان يهمني أن أشاغلها لتتوقف عن التفكير في ذلك الرجل اللئيم، فاقترحت عليها أن نقيم حفلة ندعو إليها جميع صديقاتها المعلمات، وبخاصة أختُه التي كانت سببًا في الزيجة العثرة، وبذلك نغيظُهُ ونفوِّت عليه الزهو بالشماتة...

- وستتألقين بينهن، فما زلتِ جميلة والحياة أمامك وقد تخلصتِ من قيد الزواج.

لم تَرُقْهَا الفكرة وضحكت مني قائلة:

- أتمزحين؟! أيَّ حفلة؟ لو كان طلقني قبل عشرة أعوام، ربما كنت سأفرح، أما الآن فلا، فقد ذهبت لمعة الشباب وضاع شوق الحياة في دروب الصبر.

تذكَّرتُ ما تخفيه عَمَّتي في الغرفة المهجورة منذ سنين: جهاز عُرسها الثمين. كان جدي يصفه بأنه كنز، ويحثها على الاستفادة منه، لكنها آثرَت دَفنه كي لا يُذَكِّرها بمهرها، أو ثمن كِيانها المجروح بالحقيقة، وأيُّ حقيقة أكثر دناءة من أن تُعامَل الزوجة كما المملوكة المستباح جسدها بكل الصور؟!

لم أُبالِ بردة فعلها، وانتهزتُ فرصة غيابها، فاستأذنتُ جدي وتسللتُ إلى موضع الكنز، ويا لروعة ما رأيت! مزهرياتٍ وأوانيَ من الفضَّة الخالصة محفورة بالخط العربي، فناجين قهوة مطلية بالذهب، كؤوسًا من الكريستال، ولوحة خلَّابة نُقشت عليها أشعار عُمَر الخيَّام. لم يكفِني ما رأيت فتطلعت إلى لوح خشبي محاط بإطار من الفضَّة، عُلِّق في صدر الحائط، وبخط جميل سابح بماء الذهب، كُتبت عليه سورة الفاتحة! يا لذلك الأفَّاق! أراد أن يوحي إلى عَمَّتي بأنه من أهل التقوى ليجاري تَدَيُّنها، كان يجيد الاقتناء بلا إحساس بما يقتني.

أطلتُ النظر في ذلك المتحف فوقع نظري على كيس من المخمل الأحمر، زاد فضولي وحسبت أن ما يضمُّه هو لبُّ الكنز، فتحته فهاج لمعان الذهب في عينيَّ، أيُّ جمال! أشكال رقيقة من أزهار وورد، تتوسطها نقطتان صغيرتان كما الأزرار، لم أستطع عدَّها لكثرتها، تُرى هل نثروها على رأس العروس إيذانًا

باكتمال التملُّك؟ وفي لحظة تذكَّرتُ ما قالته عَمَّتي مرَّاتٍ وهي تندب حظها: «تغطيت بالذهب لكني تَعَرَّيت من السعادة»! إذًا هذه القطع الثمينة كانت تزيِّن غطاء سريرها، وقد غُرزت في نسيجه بأناقة كي تغري مَن تحتها بلُزوم الرضا.

قلت لنفسي لا وقت للتأمل، عليَّ أن أسرع، وبدأت عملًا شاقًّا بنفض الغبار عن كل الأشياء الراقدة منذ زمن طويل، وأَصعبُها السجَّادة الكبيرة، تمنيت لو كان شقيقي معي ليساعدني، لكنه سافر إلى بيروت في رحلة جامعية. أكثر ما أتعبني تلميع المزهريات الفضيَّة بمادة ذات رائحة قوية، وعلى غير طبعي الكسول، أنجزت عملي بنجاح.

لم تكن مهمتي سهلة فقد تولَّد في خاطري سؤال محيِّر، إن سألته أيقظتُ وجعًا قديمًا، وإن كتمتُه ضاق به صدري:

- تُرى هل أُجبرت وجيدة على زواج مثقَلٍ بالذهب والفضَّة؟

ومن دون أن أحرِّك شفتيَّ بالسؤال، لمح جدي نظرة منِّي تفيض أسًى واتهامًا بينما كنت أغلق الباب، فقال لي:

- هل آلمكِ أن تعرفي سبب شقاء عمتك؟ ما رأيتِ كان مؤخر صداقها، وقد أصرَّت على الاحتفاظ به نكايةً في زوجها، فتأخر طلاقها. لم يكن كريمًا، بل شديد البخل، أغراها بهداياه وبمظهره الجميل، ولم نكن نعرف عنه غير كل ثناء ومديح من جميع من سألناهم، حتى لو لم يكونوا على وَصل به أو يرجون منفعة ما، وهذا هو داء الناس عندنا، إن كان المَرءُ فقيرًا، عدَّدُوا معايبه، أما الغني فتُستر عيوبه، وهذا يُذكرني بمثل شعبي ذي دلالة: (حدثان يعرفهما كل الناس: موت الغني، ودعارة الفقير،

وآخران مسكوت عنهما: موت الفقير، ودعارة الغني). هكذا ضاع شباب عمتك بين نفاق الناس، فبَعد انفصالها عن زوجها سمعنا العجب عن سوء أخلاقه ونزواته الفاحشة.

طابت نفسي وارتحتُ لما سمعت، فجدِّي الذي أحبه ما زال أطيب الرجال.

خطَّة الحفل تحتاج إلى ترتيب، لذلك اتَّصلت بالسيدة ربيعة، وأخبرتها بطلاق عَمَّتي فَسُرَّت بالخبر فهي من أقرب صديقاتها، ولذلك رجوتها أن تدعوها إلى المبيت عندها لأبدأ في التحضير للمناسبة وأفاجئها.

سأثير فضولكنَّ قارئاتي وقُرَّائي حين تعرفون أن ربيعة هي شقيقة صالح طليق عَمَّتي، وكانت الأحق بأن تُسمى صالحة، فهي امرأة طيبة، ترمَّلت مبكرًا وتعيش مع ابنها البِكر، بعد أن احتال عليها شقيقها الفاسد واستولى على إرثها من أبيها، لذلك حلَّت القطيعة بينهما ولم يلتقيا منذ سنين...

تحدثتُ معها وأخبرتها بكل التفاصيل وموعد الحفلة فلقيت منها كل تعاون واستحسان.

الشتاء على أشُدِّه والوقت ظهيرةَ كانونَ الثاني، لعلكم تذكرون كيف عاشت بلادنا فصولها الأربعة، وشتاءها القارص، قبل أن يغشاها غبار الحروب، ويستبيح أجواءها دخان المتفجِّرات والمولدات، وما زلت أذكر في طفولتي تجمُّد الماء في الحنفيات، في أيَّام عانينا وجع أكُفِّنا حين ننهض صباحًا لنغسل وجوهنا. في ذلك الجو يلوذ الناس بدفء «المَنَاقل»،

ويحلو للصغار انتظار الكستناء والبلُّوط يُشوَيَان على جمرِها، وفي الجوار يلمع إبريق من الخزف الصيني فوق صرح «السَّماوَر»، وتستدعي الشهيَّةَ أطباقٌ من الكعك والحلوى. أراكم ستستعيدون ذكرياتكم مع الأهل، أو ربما نسيتم فظننتم أن رائحة السعادة الماضية شيء من الخيال.

بريق كنز عَمَّتي، الذي وُزِّعَ بعناية في غرفة الاستقبال، سيجلب الحسد، هكذا قالت حكيمة العائلة، المُعمِّرة خالة جدي، لكن لا أحد وافقها، بل على العكس، نريد أن يصل خبر الحفلة إلى ذلك الطالح، ويعلم بأن وجيدة تحتفل بالخلاص منه، وثَّمَ مَن سيخبره نكاية فيه.

الساعة الواحدة ظهرًا وضيفات عَمَّتي على وصول، كلنا في البيت بانتظارها بعد مبيت ليلتين عند السيدة ربيعة، لا بُدَّ أن تصل قبلهنَّ لترتدي فستانًا يليق بالمناسبة. ها قد وصلَتْ. دُهِشت لما لاحظتْهُ عليَّ من نشاط وترقُّب، سألتني:

– ما الأمر؟

– لا شيء، أنتظر صديقاتي! أرجوك عَمَّتي غيِّري ثيابك وتعالَي لنستقبلهنَّ، فمعظمهنَّ من تلميذاتك السابقات، هيا!

رمقتني بنظرة متسائلة وقالت:

– حسنًا، سأفعل. أرجو ألا تكوني قد بالغتِ في الحديث عنِّي.

اجتمعت الضيفات وكانت ربيعة أكبرهنَّ سِنًّا فبادرت لتشرح لهنَّ كل ما بيَّتناه من خطة الفرح، وفي هذه اللحظة كنت أضع شريط الكاسيت في المسجل لتصدح أمُّ كلثوم بأغنيتها التي

تحبُّها عَمَّتي وجيدة (افرح يا قلبي لك نصيب)، فالغناء ينوب عنَّا ويُصرِّح بما لا يكتمل معنا أحيانًا.

طال انتظارنا، وأوشكتُ أن أطرق باب عَمَّتي لأستعجلها، لكنها أطلَّت بردائها السماوي البديع، ومشت كعروس تتحاشى نظرات المُحتَفِين بها، ها هي تدخل غرفة الضيافة فتلوذ بصمت يشِفُّ عن آهات قديمة، آن لها أن تذوب في زفراتها الحَرَّى. غمزتني بنظرة شكر ملونة بظاهر الملامة ثم حضنتني وقالت: «إذًا فعَلتِها!».

كم أطربني أن تبدو وقد تحررت من حسرات الحزن وذلِّ الانتظار، حدثت نفسي وأنا أنظر إليها تبتسم وتُحيِّي صديقاتها بفرح ظاهر، «تُرى هل بقي في قلبها شيء من السعادة؟ وهل استطعتُ أن أوقظ لديها ولو شعورًا بسيطًا بأنها امرأة تحلم بعاطفة تملك كِيانها، وبيد تمتد إليها، ورجل يقول لها بصدق: أحبك؟».

غاب النهار وأوقد الليل شموعه، وها أنا إلى جانب وجيدة، نتسامر بصحبة رفيقنا الأثير.. الراديو، نستمع إلى أم كلثوم في أغنيتها «أمل حياتي»، تُنقل إلينا من سينما قصر النيل في القاهرة. كانت ليلة فريدة، وما زاد من سعادتنا إطلالة جدي علينا وبقاؤه معنا، مستمتعًا بالصوت الشجي، مستلقيًا على الأريكة، مُرْخِيًا أجفانه تارة ومباعدها تارة أخرى، حتى أيقظناه ومشينا معه إلى غرفته، فإذا به يقول لنا بكل ثقة: «أغنية رائعة حقًّا»، مع أنه لم يسمع منها إلا قليلًا. قبَّلنا جبينه وتمنينا له نومًا هانئًا.

أنا أُفضل النهايات السعيدة، لذلك سأحجب عنكم كثيرًا مما لا يسُركم من مجريات الأحداث الأليمة في حياة وجيدة التي لم تكمل عامها الستين، وانتهت حبيسةً في دار عَمَّتي الصغرى، مُقعدةً لا تقوى على الحركة من ثِقل جسمها وأوجاعها. كانت تنتظر زيارة جدي، فهو الأقرب إليها، تسأل عنه ولا يجرُؤ أحد أن يخبرها برحيله.

في زمان صحتها كان يحلو لها أن تُردِّد أغنية عفاف راضي «وحدي قاعدة في البيت، فكرت بحالي بحالي وبكيت، وبس والنبي والنبي دا حرام تنسونا بالسنة، والعمر كام سنة!»، تُرى ماذا كانت تُردِّد في عزلتها وقد هدَّها المرض، وما من أحد كان يهتم فعلًا بعلاجها مع أن أختها وزوجها كانا ينعمان بثروتها؟

حرام أن تموت النفس قبل الجسد، فقد ماتت وجيدة قبل موتها بفترة طويلة، وحين فارقتها الروح كان يوم خلاصها.

ينفطر قلبي كلما ذكرتها، ويا ليتني بقيت إلى جانبها، لكنت جنَّبتها كثيرًا من آلامها.

(١١)

وقفةٌ مع العابِر

مرةً أخرى أطلُّ عليكم، ولا أعدكم أن أغيب تمامًا، فكلما توغلتُ في تاريخ سلمى، وجدتُ نفسي قريبًا منها! لا أدري هل لأني على وشك اللقاء بها، وأحاول أن أثبت لها كم تعلقت بها، أم لأن بعض كلماتها يوجعني وينبض بتجربة يفيض منها ألم لا سبيل إلى الخلاص منه؟

هي لا تكتبُ، بل تطلق آهاتٍ متأخرة، ليتها أوجعتها من قبل، لكانت أشفقت على صاحبها.

ها أنا في قلب اللقاء، حائر مسلوب العبارة، أكاد أبلع لساني، وتسرع دقَّات قلبي، تذكرون أني اعترفت لها بأن مخطوطها معي، وبعدها توقف مني الكلام، فيما كانت تنظر إليَّ بملامح قاسية، فاسمحوا لي الآن أن أوافيكم بكل ما جرى، ثم نعود إلى حكاية سلمى الحادية عشرة.

عابر سبيل

مزيجٌ من شعورٍ بالفرح والخوف، أفصحتْ عنهما أنفاسي المضطربة، وأنا أشرح لها سبب احتفاظي بأوراقها، فيما بقيتُ أمسك بالملف الأنيق الذي نقلتُ إليه حكاياتها، بعد أن أعددتُها في فصول، تميَّزت بخط واضح، أزعم أنه جميل.

سألتني بنبرة اتِّهام واضحة:

– ما كان غرضك من السطو على كتاباتي؟ ما الذي أغراك وأنت لا تعرفني؟

أجبتُ بصعوبة ولكن بتصميمِ من يدفع عن نفسه تهمة غاشمة:

– عندما التقيتُك أولّ مرة، لم أتبيَّن لون عينيك، فدموعك والليل، حَجَبا عنِّي ملامحك، وها أنا أمامك مثقلٌ بالذنب، لا أجد الجرأة كي أتطلع إليكِ، أعينيني بعفوكِ كي أرفع رأسي وأُحيِّيكِ، أرجوكِ. في ذلك المساء، كنتِ مرهقةً حزينةً، رأيت في عينيك حُزن العالم كله، وتمنيتُ لو أرافقك إلى بيتك لأطمئن عليك، وحين غبتِ وتحرك بك القطار، لم يغادر سمعي صوتك وأنت تشكرينني وتتَّقين مزيدًا من دموع توشك أن تسيل، كأن المصادفة تواطأت مع رغبتي في التعرُّف إليكِ، فأَرْخَتْ يدك لتَسقط أوراقك وأعرفَ من أنتِ.

كانت تصغي إليَّ باهتمام وحَنَق، وحين سكتُّ لحظةً لأكمل بعدها، بادرتني بلهجة ساخرة كأن غضبها قد تبدَّد:

– واضح أنك تصورت أني سردت قصة حياتي، فتوصلت

إلى معرفة شخصيتي، إذًا لماذا احتفظتَ بأوراقي؟ يؤسفني أن أرفض مرافعتك الرقيقة، لا أنكر أني تأثرت، ولكن ليس إلى درجة تجعلني أسامحك، فحين يطاوعك فضولك للتسلل إلى ما يفكِّر فيه الناس، لن تجد مسافة كبيرة بينك وبين أي لصٍّ. وحتى لو اختلستَ النظر إلى امرأة وهي تخلع ثيابها -على ما في هذه الفرضية من خِسَّة- كنت سأجد لك عُذرًا من حرمان، أو تمرُّد على التقاليد، أما أن تبيح لنفسك الاطِّلاع على ذكريات أناس لا يخصُّونك بشيء، وبدون علمهم، فهذا فعل دنيء، لقد آذيتَني فوق ما بي من مجامع الأذى. أنا متعبة ولا أريد أن أسمع منك أكثر.

همَّت بالمسير فاستوقفتُها، وتعمدتُ أن أرفع صوتي:

- انتظري أرجوكِ، لا يحق لي أن أغضب أو أن ألومك على كل ما قُلتِه، فما أنا إلا لص.

ناولتُها الملف الجديد الذي ضمَّ أوراقها المزدحمة بالفوضى والخطوط المائلة، ومعها نسخة ثانية مرتَّبة ومنقَّحة، لا تحتاج إلا إلى دار نشر تتعهدها.

ذُهِلَت من نسيانها، ونظرت إليَّ بطريقة غريبة لم أفهمها، وحين أطلتُ سلام الوداع لم تفلت يدها، بل أفلتت منها كلمة شُكر، ربما لم تقصدها. ليتها لم تقل شيئًا وما ألقت عليَّ تلك النظرة الغامضة، لكنت أغلقت صفحتها وعُدْتُ لأيامي الرتيبة.

لست أدري لماذا لم أصدق أنها تراني دنيئًا، لعلها أرادت أن

تُشعِرني بذنبي فقط، ولم تقصد إهانتي، فنظرتها الأخيرة لم تُشعرني بالخزي.

أخر ما قلتُه لها قبل أن تدير لي ظهرها:

– حافظتُ على أوراقِك كما لو كانت وصيتي لولدي، صُنتُها كمخطوطة مقدسة، وستجدين بصْمتي في كل صفحة. عِديني بأنك إن صادفتِنِي يومًا في طريق، أن تردُّي عليَّ تحيتي، أن تذكريني.

كان جوابها بتلك النظرة نفسها، ولكن خالطها سؤال لم تُتَح لي الإجابة عنه، ثم أومأت برأسها بما يشبه الوعد، وغابت.

لم أحتمل فكرة وداعها، ألَّا أراها ثانيةً ولا أعرف مكانها، غير أني اكتفيت بنشوة لقائها، ودهشتي في تبيُّن ذلك الألق المريض في عينيها، كلماتها حين استقرت وجعًا لذيذًا في خاطري، كما لو كانت غزلاً متأخرًا، أو عتابًا أسكرته نبرة حُب.

وها أنا أعود لداري بخطوات واثقة، يغمرني إحساسٌ بالرضا، فقد أكملت مهمتي كما وعدتُ والدتي.

والآن أترككم مع سلمى ودُروب ذكرياتها، مع شيء من الأسف لأني لم أسألها عن اسمها الحقيقي.

(١٢)

لوعة الندم

(لا شيء يحظى بفرصة أخرى كالندم)

كارلوس زافون

رواية «ظِل الريح»

لعلَّكم تذكرون ما قرأتم عني في أول الفصول عن علاقتي بماهر، وكيف انتهت إلى طريق مسدود، بالعِناد من جانبه، واليأس من جانبي، لذلك لم نجد فرصة للعودة، بخاصة بعد اعتقاله وتغييْب أخباره، كما كان يجري لأشخاص كُثُر، تخفيهم السلطة أو تُجْهِز عليهم.

لا أدري لماذا عادت أطيافه مُلِحَّةً، ليس في المنام فقط، بل صار يخطر على بالي كأنه معي.

صديقتي أشارت عليَّ بزيارة معالِجة نفسية، وهكذا فعلت، وفي نهاية أول جلسة معها، قالت لي:

– العلاج ينبع من داخلك، أنتِ بحاجة إلى أن تفرشي ماضيك على بساط أبيض، وتفتشي عن الظلال القاتمة، فهناك فقط تكمن الملامة التي تُوجعك وقد تكون وهمًا من صنعك.

أجل لا بُدَّ أن أستعيد كل شيء من الماضي الذي يؤرقني.

بعد فترة من اعتقال ماهر نصحتني عَمَّتي فوزية بأن أسافر، فربما أتعرض إلى مثل مصيره، وإن كنت منفصلة عنه، وبعد تردُّد طويل اقتنعتُ على أمل أن تَلحَقَ بي. وكأقرب محطة، فكرت في دمشق، فهناك لي أقرباء وإن كانوا بعيدين، وصادف في ذلك الوقت إعلان الميثاق القومي بين العراق وسوريا، ما دفع أفواجًا من العراقيين إلى زيارة الشام، البلد المُحَبَّذ لديهم، وقد ضاقوا بسنوات العداء الذي اصطنعه السيد النائب صدَّام حسين، بدسائسه المعروفة.

بعد أن قضيتُ بضعة أشهُر في البحث عن عمل، وترتيب معيشتي، تسلمت رسالة من ماهر، يخبرني فيها بالإفراج عنه وبرغبته في أن يعود إليَّ، ويعتذر عما سبَّبه لي من آلام. لا أدري كيف توصل إلى عنواني، لكن بعضَ الحنين صَرَفني عن التفكير في هذه الجزئية.

لم يمضِ وقت طويل حتى علمت بوصول أخته إلى دمشق، بعد أن اتَّصلَتْ بي لتعتذر هي الأخرى عن مقاطعتها لي، ولِتُبدي رغبتها في زيارتي.

في ذلك الزمن من أواخر عهد الرئيس أحمد حسن البكر، كانت السُّلطة تغض النظر عن سفر كثيرين ممن لحقت بهم تُهمة اليسار، ربما للتخلص منهم كمعارضين، أو لتثبيط عزائمهم وإنهاء دورهم. وفعلًا كل الذين غادروا منهم انشغلوا بالبحث عن عمل، وتفرقوا في البلدان، وكلها كانت تطلب

تأشيرة، إلا دمشق، فتحتْ صدرها ورحَّبت بالمُهاجرين، والمُهَجَّرين فيما بعد، فلم يشعر معظمهم بالغُربة لِما بين العراق والشام من محبة قديمة. هناك تآلَفَ صيف دمشق مع لوعة القادمين، فكان أقلَّ حرارة، والناس في غاية اللطف، حتى إن بعضهم يحب اللهجة العراقية. لذلك وجد كثير ممن حَمَلوا حقائب سفرهم، الراحة القصوى بالنجاة من مخالب النظام.

أعود إلى قصة ماهر، فأنا لم أجد في نفسي ما يسُدُّ عليه طريق العودة، وما زال في قلبي نبضُ عاطفة، وذكرياتٌ من عهد البدايات، وإن كنت أختلف معه في أمور كثيرة، ولكن بما أننا سنعيش وحدنا من دون مُنغِّصات مِن وصاية الأصدقاء، فيمكن أن ننجح في بناء عَلاقة سليمة.

وهكذا وصلتُ إلى قرار بفتح صفحة جديدة معه، ومما سرَّع قراري هذا، أن عَمَّتي لم تستطع موافاتي كما وعدَتْ، بسبب مرض جدي، وهي التي شجَّعتني على العودة إليه، غير أني لم أكن متفائلة تمامًا بما ستأتي به الأيام مع ماهر، وفكرت كثيرًا في دوافعه، هو بالتأكيد محتاج إليَّ، ولكن ماذا عن الحب؟ كيف هي صورتي في أعماقه؟ بالطبع أنا لم أفكر فيه كرجل سيمنحني سعادة حقيقية، فهذه دُونَها ركام من تجارِبَ ومواقفَ مؤسفة، أخذَتْ من ماضي الحب بريقه، زاد عليها محنة السجن وقسوته، ما أريده وأتمناه هو شيء من حنين ومودة يملآن قلبي بالرضا.

بيتي كان صغيرًا لكنه اتَّسَعَ بفرحة اللقاء وما حمله من مشاعر لم أشُكَّ في صدقها. بدا ماهر مُتعَبًا، مقهورًا، مطفَأ

العينين، كان في بداية خمسينياته، وقد زادت السنون في محبسه، فكأنه قضى دهرًا، وما هي إلا بضعة أشهُر، ذاق فيها وجع التعذيب، ومرارة الفقدان، فقد قُتل أمامَه أخلَصُ أصدقائه (سليم)، ذلك الرجل الطيب الودود. بعد فترة قليلة غادرتنا أخته، وكنت رجوتها بإلحاح ألَّا تُخبر مدام معروف برقم هاتفنا، فوعدَتني على مَضَضٍ، ذلك لأنها على صلة وثيقة بها، وتُقدِّر ما قدَّمته لها من عون مَكَّنَها من تربية أولادها بعد وفاة زوجها.

لم تكن أمور عيشنا يسيرة، فقد استنفد ماهر كل ما عنده في العلاج من آثار التعذيب على جسده المُنهَك، ولم يكُن مُرتَّبي كافيًا لتدبير حاجات البيت، ولولا مساعدة عَمَّتي لكُنَّا في حَيْصِ بَيْصِ، كما أن الناس من جيراننا، وممن تعرفتُ إليهم، كانوا يعانون في معاشهم، وبعضهم يُضطر إلى أكثر من عمل. ومع ذلك تواصل إحساسنا بالرضا وشيء من السعادة، حتى وصلنا إلى العام الثاني من اجتماعنا، حينها كان ماهر قد تجاوز بعض معاناته، وتخلَّص من معظم آلامه، وبدا مُقبلًا على الحياة، مستعيدًا طموحَه وعزيمته، وهذا ما أسعدني، حتى إنه بدأ البحث عن عمل، وصار يكتب مقالات في مجلات أدبية واقتصادية مبتعدًا عن السياسة، تنفيذًا لتعهُّدٍ قدَّمه إلى سجَّانِيه بألَّا يقرب مجال السياسة، أو ينتقد النظام، وإلا فلن يعِيش أهله في أمان.

ولشَدَّ ما بلغْنَا من الاتفاق والسلام العائلي، فقد فكَّرنا في إنجاب طفل يزيد من ارتباطنا، خاصةً بعد أن وجد ماهر

ضالته في عمل مناسب؛ أستاذًا جامعيًّا، وصار له أصدقاء كُثُر، وبدا كأنه نسي كل ما مضى، وخُيِّلَ إليَّ أنه ما مِن أحد يمكن أن ينغِّص علينا استقرارنا.

لم تكن شهور حملي صعبة، وبقيت أعمل مترجِمةً في مركز للبحوث الاجتماعية إلى أخر أسبوع قبل ولادتي، كي أحظى بإجازة أمومة أطول.

ثم جاء اليوم الموعود، وبدأ المخاض العسير، ويا لها من ساعات عصيبة، هجمات الألم تُنذر بالنهاية، وتتصاعد الأنفاس مني في استغاثة للخلاص، وتُفلت من لساني لعنة للساعة التي فكرتُ فيها أن أكون أُمًّا، تتكاثر اللعنات ويصيب الزوجَ منها كثيرٌ، ثم يأتي الفرَجُ ويفلت المولود من ظُلمته ليعلن صرخة الاحتجاج على عالم كله ضياء: يا للرعب! أين أنا؟! ومَن هؤلاء من حولي؟!

الولادة وسام على صدر الأمهات، فلو أن الرجال تحملوا قليلًا من آلام الوضع، لقالوا إنهم أرسَوا الجبال وحفروا الوديان. سلامٌ عليكِ يا والدتي، أيُّ همَّة جعلتك أُمًّا لثمانية؟! الرحمة والطمأنينة لروحك السامية.

الذكريات كتاب لا تنتهي صفحاته، وكلما أستعيدها أشعر بالتعب كأني فعلًا أخرج من غرفة الولادة، هكذا حالي الآن، نوع من الهرب إلى الماضي والتشبُّث بمواسم طابت فيها الحياة، ألوذ بساحاتها قبل كل قرار صعب، فغدًا عليَّ أن أحسم أمري وأتوقف عن العمل، لم أعد أحتمل نفسي وحزني

وأنا في نهايات أربعينياتي، والملامة تضرب بأعماقي، فقد رحل الأهل والأحباب بدون وداع، كلهم كانوا في الوطن، داري البعيدة، إلا ماهرًا، كان قريبًا وبعيدًا، أحتاج إلى جوٍّ من الوَحدة كي أرى نفسي: كيف عشتُ سنواتي بعيدة عنه؟ ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ وهل قصَّرت ولم أسأل عنه قبل أن يميل به الحال ويتداعى جسده؟

غابة الفكر كثيفة، ونور الشمس في الأعالي لا يكفي للرؤية، لكني أحاول، وألتمس إشراقة ذكرى تُوْمض في خاطري. ها أنا أحتضن ولدي الجميل، وأتخيله يناغي ويحبو، ثم يمشي... وتمضي الأيام والأشهر خفيفة في ظلِّها، مزهرة بأحلى الوعود. ولدي يكبر ويطفئ شمعته الثالثة، ويستعد للقاء باقة من أقرانه في حضانة «دوحة البلابل»، هكذا مرَّ يومي زاهيًا بفرحة هاني، وأنا ألمحه يلوِّح لي ويدخل في عالمه الجديد. ليس هذا فقط، فقد تطور الحال بماهر وتوسعت دائرة أصدقائه، وصار معروفًا لدى الأوساط الأدبية، ومحل احترام كبير، ومع هذه القفزة زادت مواردنا فحظِينا بِسَعَة في العيش.

لكن الحلو لا يكتمل، كما يقولون. فذات صباح رنَّ جرس الهاتف، رفعتُ السمَّاعة ولم أسمع صوتًا، ومرة أخرى وما مِن ردٍّ، وحين ردَّ ماهر كانت مدام معروف على الطرف المقابل، تُلقي عليه التهنئة بسلامته، متأخرةً ستَّةَ أعوام. لاحظتُ على وجهه ملامح الاستياء، كان صوته باردًا جليديًّا في البداية، لكن الثلج بدأ يذوب تدريجيًّا بعد دقائق من المكالمة، لا أدري بماذا اعتذرَتْ إليه، لكنه بدا راضيًا، واسترخَتْ يمينُهُ كمن يريد دوام

الحديث، وبعد لغوٍ من جانبها ساعةً كاملة أو يزيد، نطق ماهر بجُملة جعلتني أغلي من الغيظ، قال: «أهلًا بك أنت والأولاد، البيت بيتكِ».

اللعنة! أهي هنا؟ بعد كل هذه السنين عادت تلاحقنا! وكيف له أن يرحِّب بها، بعد أن أهملته في أصعب ظروفه؟ لا بُدَّ أنَّ لها مصلحةً، سأرى.

أقبلتْ علينا زائرةً في رفقة ولَدَيْها، وكانت مُحملةً بالهدايا كعادتها، حاولت أن تكون لطيفة معي لكن نظراتها خانتها وأكَّدَت ظنوني في نِيَّاتها. ولتلميع صورتها، رَوَتْ لماهر حفنة أكاذيب عن ظروف منَعَتْها السؤالَ عنه أو مساعدته في أثناء اعتقاله، وأنها كانت مُلاحَقَةً من رجال الأمن هي وقريبها صاحب النفوذ والحَظوة لدى السلطة آنذاك.

كان زوجي يصغي إليها بلا نظرة شك، وفي لحظة تنبَّه وسألها:

– وما الذي منعكِ من التواصل بعد أن تحرَّرتُ من سجني؟

– لم أكن أعرف أي شيءٍ عن أخبارك، وتحاشيت الاتصال بأختك كي لا أُسبِّب لها المتاعب.

كانت ممثلة بارعة، واستطاعت أن تقنعه ببراءتها من الجحود ونقضِ الصداقة، حتى إنها بكت بحرقة، ولا أدري كيف استنزلَتْ دموعها.

شيء من القلق أعادني إلى حيث ما كنت عليه قبل سنين من قِلَّة الراحة، والإحساس بعدم اليقين في علاقتي بماهر، ولكن

ربما تخطئ ظنوني، فقد تغيَّر الحال وصار أبًا، ومن شأن هذا أن يزيده حرصًا على علاقتنا.

لن أطيل عليكم، وسأصل بحكايتي إلى نهايتها...

طاب المُقام للسيدة المُترفة، فأقنعتْ زوجها بالانتقال إلى دمشق، ومع الوقت عادت لتدخل حياتنا وتنتهز كل فرصة للتجاوز في حقي في إدارة بيتي، وتربية ولدي، وهناك ما هو أدهى، وقد علمتُهُ بمحض المصادفة... لم يكن ماهر معتادًا السهر خارج البيت، لكنه تغيَّر وصار يقضي أَمْسِيَةً طويلة في بيت صديقه معروف، وصاحبة البيت -كما تعلمون- لا تَمَلُّ من اختراع المناسبات، ودعوة الضيوف من مَشَارِبَ شتَّى، لتفوز بحلمها كسيدة صالون تحظى بإعجاب نخبة من المثقفين، وبعضهم من أهل الفن، وتُسعدهم بتقديم أفضل أنواع الشراب والطعام.

تتتالى الأيام والأشهُر، ومعها يتناقص رصيدي لدى الزوج، ويضعُفُ اهتمامه بولده، وكلما عاتبتُهُ يقول إني واهمة، وليس من جديد في سلوكه، سوى أنه متعب في عمله، ويحاول أن يُسَرِّي عن نفسه.

وتشاء المصادفة أن ألتقي سيدةً سوريَّةً في إحدى ندوات المركز الثقافي السوفييتي، ودار بيننا حديث، عرفْتُ من خلاله أنها ترتادُ صالون «المدام»، وأنها تأسف لما سمعَتْهُ من همسٍ بأن ماهرًا سيتزوج قريبَتَها، الشابة الجميلة التي طلقها زوجها لأنها لا تنجب، ويترك زوجَتَهُ أُمَّ ولده. بالطبع أنا لم أخبرها بِاسم

زوجي، وكعادة بعض النساء، صارت تحكي لي كل ما عرفَتْهُ من ثرثرات الضيوف وأحوالهم.

بعد حين وبحث طويل تحقَّقْتُ مما قالَتْه مُحدِّثتي، فالمدام جلبت قريبتها كطُعم لزوجي، فماذا أفعل؟! بقيتُ في حَيرة، وفضَّلت أن أتجاهل الأمر، وأترك ماهرًا يمضي في ظلاله، حرصًا على ولدي، فربما يفكر في انتزاعه مني.

ولكي تكتمل دائرة اللُّؤم، فوجئت ذات صباح برسالة محفوظة في ظرف أنيق، عنوانها «صالون البشائر»، وحين فتحتها سقطت صورة امرأة جميلة، كُتب خلفها: «هذه عروس ماهر، وقد زُفَّت له أمس». لم ينتهِ الأمر، ففي الظرف بقية، ورقة خُطَّ عليها سطر لئيم: «اليومَ أنجزتُ ثأري منك، تذكَّري كيف أهنتِنِي قبل سنوات أمام ضيوفي».

اللعنة! كيف يجرُؤ على خيانتي بعد كل ما قدَّمتُهُ إليه من رعاية وحنان؟! كنتُ له الملاذ في أيام مرضه وضعفه، حمَّلت نفسي أكثر من طاقتي وتعبت، لكني لم أَشْكُ، كي لا أُشعرَهُ بالحرج، لم أَشُكَّ في صدق مشاعره، والآن كل ذلك صار هباءً! هل أواجهه وأحرِمُه من فرصةً جديدةً للكذب؟ لا بُدَّ أنها أخفَتْ عنه ما أرسلَتْ. على كل حال أضمرتُ في نفسي قرارًا بالسفر، ولكن دونَ ذلك قِلَّة المال، فلا بُدَّ من شهور لأجمعه، وأُظهر طيبة أقرب إلى الغباء، كي أهضم أكاذيب زوجي.

أكاد أختنق كلما استعدتُ السنين الضائعة من عمري، أشعر بالنعاس، وغدًا عليَّ أن أُبلِّغ إدارة عملي باستقالتي.

أقبَلَ الغد مختلفًا بعض الشيء، شمس خجولة وغيوم بيضاء تُسرع بها الرياح فيظهر النور في الأعالي، لا بردٌ ولا دفء، كما هي روحي معلقةٌ بين الملامة والرضا. سألني المدير: «لماذا؟»، فقلت: «أدركني التعب، وأخشى ألَّا أُقدِّم ما تتوقعه مني»، لم يقبل، واقترح عليَّ أن أواصل وظيفتي من البيت وبالأجر نفسه فوافقتُ وشكرته، هذا ما كنت أتمناه ولم أفكر فيه، البُعد عن الناس والْتِمَاسُ الوحدة.

في تلك الليلة نعِمْتُ بنوم هادئ، ورجوت غدي ألَّا يُلقيني على عتبة الذكريات، لم يعاندني، وأمهلتني الأيام قليلًا.

وذات نهار فيما كنت عائدة إلى داري، لمحتُ رجلًا متقدِّمًا في السنِّ، يحمل غداء يومه وَهَمًّا تضيق به ملامحه، لا أدري لماذا نظر إليَّ كما لو كان يعرفني، لعله رجل وحيد يلتمس عطفًا ولو بنظرة، شعرتُ بوخزة في قلبي فحيَّيْتُه ومضيت، لكن صورته استراحت في خاطري، وصارت تُحدِّثني عن شخص قريب، لعله ماهر بعد أن ألقى به الزمن بعيدًا عن الأهل والأصحاب، وعرف كيف يدفع ضريبة الزهو مع زوجة جديدة تصغُرُه برُبع قرن.

في صباح اليوم التالي، بعد أن نجوتُ مجددًا من تداعيات الماضي، شاءت إمارة الحزن أن أرى ذلك الرجل، مُتَّكئًا على جدار قريب، ساعدُتُه على الوصول إلى بيته، وعرضت عليه إن أجلب له مِن السوق ما يحتاج إليه، فقال:

– شُكرًا لكِ، لديَّ ما يكفيني، ولكن لو وجدتِ من يبيع دواءً للوَحدةِ فأرجو أن تأتيني بقليلٍ منه.

دعاني إلى شُرب الشاي معه، فقبِلتُ إشفاقًا عليه، وشربتُه مُرًّا، كما الذكريات التي عادت أكثر مرارةً من أي وقت. لا أدري لماذا ذكَّرني بماهر مع أنه لا يشبهه وأكبر منه كثيرًا! ودَّعني بلطف وامتنان، ورجاني أن أزوره، فوعدتُهُ، كما دعوته إلى تناول الغداء في داري، ووجدت في الحديث معه بعض السلوى.

يؤلمني ألَّا أجد في واقعي ما يُعينني على النسيان، فلا يكفي أن أكون أُمًّا حنونًا، فالولد نفسُهُ يُذكِّرني بأني كنت زوجة مهجورة لرجل لم يحاول أن يفهمني، وأشكُّ في أنه أحبني.

بعد سنين من مُقامي في دمشق، اضطُررت إلى السفر إلى ألمانيا، فلِي صديقة عزيزة ورفيقة دراسة تعيش هناك. لم يكن سهلًا أن أغادر مدينةً أحببتُها، ورفقةَ ناس كانوا لي أهلًا ووطنًا، ولكن كيف لمُرتب متوسط أن يكفي متطلبات العيش الكريم؟ فالغلاء في ازدياد، والمؤجِّرون يواظبون على رفع كلفة الإيجار، كما أن واردات الأهل قد نضبت بعد أن صاروا بحاجة إلى مَن يعينهم في زمن الحصار، وهذا كان حال بعض العراقيين، ما دفعهم إلى الهجرة صوب الشمال الأوروبي.

الشوق كان يعيدني للشام فأفرح بلقاء من فارقتُهُم، ولكن الأمر اختلف في أخر زيارة فقد غِبت طويلًا عنها.

الوقت كان عِزَّ الظهيرة من نهارٍ تَمُّوزِيٍّ حارق، والحُزن يضرب بسِياطه في القلب، أنا وماهر فقدنا اثنين من أحب أصدقائنا في حادث مأساوي، كان ضِمن المشيِّعين يحاول تَجَنُّبي، لكني بعد حين توجهتُ إليه بالتحية، فردَّها كأنه لا يراني، لم يكن

هو، فقد بَدَا مُبتئسًا، ليس من حزن اللحظة فقط، لكنه الكرب وظلالٌ من الكآبة غطَّت وجهه. عجبتُ لحاله، ألم يكن سعيدًا مع زوجته الجديدة؟ ما الذي أصابه؟ شُغلت به، ليس من بقايا حُبٍّ تحجَّرت، بل من شعور بالأسى عليه. سألتُ عنه بعض الأصدقاء فجاءني الجواب صادمًا: يعيش وحيدًا في سكن متهالك، بعد أن طلَّقته الزوجة اللعوب، وأخذت كل ما عنده، حتى بيته؛ كان قد سجَّلَه باسمها.

ذهبتُ لزيارته وعرضتُ عليه أن أساعده، لكنه رفض، وذلك طبعُه لم يتغير، يتحمل أخطاءه كنوع من العقاب، فلطالما كان يردِّد «خير للإنسان أن يعاقب نفسه، بدل أن يقف ذليلًا معتذرًا أمام من أساء إليهم». حاول أن يقنعني بأنه مُعافًى، لكنه بَدَا ذاويًا، مطفأ العينين، يَشِي صوته برغبة في الخلاص من هذا العالم. تركتُه على وعد بالتواصل معه، فكانت منه نظرةُ شكر ولكن من دون كلام.

هاجس من خوف أَلَمَّ بي فأتعبني، ضباب من الفكر يأخذني بعيدًا إلى أرض خاوية، ليس فيها غير الحجر، كانت الدنيا نهارًا، فأظلمت؛ دخانٌ يملأ الأفق، أكاد أختنق فأصرخ، آهِ! يا له من كابوس مقيت! ليتني ما غفوت.

اتَّصلتُ به لأطمئن فرَدَّ عليَّ بصوت ليس فيه جفوة، توقعت أن يُنهي الكلام بسرعة كعادته، لكنه واصل وبلهجة مُحَبَّبة تشي بندم يُوشِك أن يُطِلَّ برأسه، شكرني على اهتمامي، ثم فاجأني باعتذار صادق، وبصوت كسيرٍ، لم أشُكَّ في أن دموعه كانت وراء كل كلمة، سألني عن ولده، وكرَّر رجاءه بألَّا أخبره بما

رأيتُ من بؤس حاله، ووعدني بأنه سيتغير ليمنح ابنه شعورًا بالفخر. كُنت أودُّ زيارته في اليوم نفسه لأشجعه على ما نوى فعله، لكنه قال:

– لا، تعالَيْ بعد غد، سأطلب إلى جارتي أن تساعدني على ترتيب البيت، كي يكون جاهزًا لاستقبالك، لا أريد أن تذكُريني كرجل مُقرف.

تفاءلتُ ومال رأسي لغفوة ثانية بلا أرق.

يقترب الغد وبعده، ويستعجل الشروق كما في أصْبَاحِ الصيف، أترك فراشي مبكرة لأستكمل ما حضَّرته لماهر، وجبةَ غداء وحلوى وكيسين من الشاي والقهوة، لم يبقَ غير الورد، سأشتريه في طريقي إليه.

المسافة بعيدة، تأخذ نصف ساعة في السيارة، وربما أكثر وسط فوضى المرور، وضجيج المنبِّهات. جلستُ أقلِّب هاتفي، وأردُّ على بعض الرسائل، لم أنتبه، أو لم أصدق عينيَّ وأنا أقرأ إحداها، المُرسِلة جارة ماهر، أمُّ محمود التي كانت تعتني به وتنظف له داره، تقول لي: «لا تأتي إلى البيت؛ أُصيب ماهر بنزفٍ دماغيٍّ، وأنا معه الآن في مشفى المواساة».

يا للحظ العاثر! لماذا في هذا اليوم؟ أما كان للمقدور أن ينتظر؟ أيُّ سهم ضالٍّ ذلك الذي يشقُّ قلب التائب؟! أهي حكمة الله؟ ترنيمة البائسين في ليل العزاء؟ أشعر بالمأساة تُسرع نحوي...

طلبتُ إلى السائق أن يأخذ الورد والزاد، ويوصلني إلى المشفى. قرأت الرسالة مرة أخرى فراعَني أن تاريخها صباح

أمس! يا لغفلتي! قلت للرجل:

– أسرع من فضلك فربما يفارق الحياة.

– هل هو قريبك؟

– زوجي.

استغرب وقال بغضب:

– آهٍ منكُنَّ يا نسوانُ، أنت مشغولة بالزيارات والورد، ورجُلُك بين الحياة والموت!

فوجِئْتُ بصوته المشحون غيظًا من النساء، وفي غمرة حزني، أنِستُ للهجته القريبة من العراقية، يبدو أنه من دير الزور أو من نواحيها فقلتُ:

– لا تظلمني يا أخي، فقد هجرني منذ سنين وتزوَّج بأخرى، وأنا لا أسكن في دمشق.

تغيَّر صوته وانكسر خجلًا، قال:

– لا تؤاخذيني يا بنت الحلال، أنا مكويٌّ من فعائل النسوان، الله يُكثِر من أمثالك يا طيبة، ويكتب له السلامة.

أخيرًا وصلتُ إلى المشفى ومددتُ يدي لأعطيه أَجره، فردَّني وحلف أيمانًا ألَّا يأخذ شيئًا.

دخلتُ والخوف يُسرع بخطواتي حتى وقفتُ على باب الردهة حيث يرقد ماهر –كما قالوا لي– لكني لم أجده، ولم أسأل من خوفي، قلت ربما هو في قسم العناية الفائقة، سألت عن حالته، فجاءني الجواب قاسيًا:

– عملنا ما في وسعنا، لكن الأمل ضعيف.

أشعرُ بالخذلان، ولا أعرف ماذا أفعل، سأنتظر إذا سمحوا لي.

بعد حين أطلَّت أمُّ محمود، فتنفستُ الصعداء، كأنها جاءت لتنقذني، عانقتني وبكت بحرقة وهي تناولني حقيبة صغيرة، قالت:

– أوصاني بأن أحافظ عليها وأُسلِّمها لك إذا ما حلَّ القضاء. كان في غاية السعادة وهو ينتظركِ ويُحدِّثني عن سنواته معك، وشوقه إلى ولده، عن غروره الذي أخذه بعيدًا عنك... كم كان كريمًا معي! أدعو الله أن يلطف به.

بكينا معًا وبقينا نراقب أنفاسه من خلف الحاجز الزجاجي حتى اللحظة الأخيرة، حين ودَّعَنا بنظرة تفيض أسًى.

رحل وترك في نفسي وجعًا لن أُشفى منه، وحسرةً لدى الجارَّة التي يبدو أنها أحبته، فهي أرملة وحيدة، وقريبة من سِنِّه. كانت تبكي بحرقة، وأنا ذاهلة عن نفسي، عاجزة عن أن أواسيها، ويرحل الفكر مني إلى ماضٍ بعيد، إلى حديث بيننا عن الوطن والرجوع المُرتَجَى. كنت أقول لماهر بلهجة واثقة:

– سأعود إلى العراق قريبًا، وألتقي أهلي، فما أحسب أن يطول عمر الطاغية، وأظنه يُسرع بحروبه نحو الهاوية.

كان ينظر إليَّ بِأسًى، ويُشفق على اشتياقي، ويقول:

– أنرجع إلى ما تركناه، أم نعود لنزور قبور أحبائنا؟ وهل سيبقى شيء؟

كنتُ ألومه على تشاؤمِه، وما حسبتُ حسابًا لما ستحمله السنون من أهوال وفقدان.

الموت يوقظ ما نام من جراح، ولا أدري كيف للعدم أن يُحيِي، لكن ما في الحقيبة دليل حياة، لعلَّه كتب لي ما لم تطاوعه نفسه على قوله...

بدأتُ أقرأ ويغلبني شعور بأن ما سأعرفه سيبقى عصِيًّا على النسيان:

(عزيزتي سلمى، هذه رسالة قريبة العهد بتوبتي، كتبتها في لحظة صفاء، وكنت واثقًا بأنكِ ستسألين عني، وتكون يومًا بين يديك، طويتُها بعناية ووضعتها في هذه الحقيبة، أتذكرينها؟ فأنت من أهديتِني إياها يوم تَسَلَّمْتُ وظيفتي أستاذًا جامعيًّا، وكلما مررتُ بيدي عليها ارتدَّتْ موجوعةً من الذكرى، سترين خطوط الزمن فوق جِلدها كما هي تحفر في روحي، وتُثنيني عن البوح.

قضيتُ ساعاتٍ من الليل وأنا أكتب، أتذكر وأبكي، كنت حينها أستعيد سنوات الأُلفة والرضا معك، عطفك ورعايتك لي في أصعب أوقاتي، تردَّدتُ كثيرًا في أن أخاطبك وإن كان الندم يعتصرني، ويُغريني بحديث معك، لكني خشيت موقف الذُّل أمامك.

أعرف أنك لن تشمتي بي، وستَقبلينَني بضعفي وألمي، أعرفك، كنتِ تتمنين بادرةً مني، لكني صَمَتُّ وتمسكت بعزَّة نفس زائفة، كأني أمام عدوٍّ. روحك البسيطة قابلتُها بعُقدي وأنانيتي، لم أقاوم رغبتي في امرأة جميلة، وزهوت بها كشاب في أول عمره، توهَّمت أنها أحبتني، ولِمَ لا؟ فطالباتي كُنَّ ينظُرنَّ إليَّ بدهشة مُحَبَّبة، زادتني إعجابًا بنفسي، وغالَيتُ

حتى نسيت أنني أبٌ.

أكاد أراكِ وأنت تقرئين رسالتي، فدعيني أقول -ولا أخشى عتابًا- فالراحلون لا يسمعون. يوم فارقتِنِي محزونةً بعد أن كشفتِ سِرِّي، لم أَلُمْ صديقتي على وشايتها، وأحسستُ بأن حملًا ثقيلًا زال عن كتفي، فلن أُضطرَّ إلى التبرير والبحث عن كذبة جديدة. اعذريني لصراحتي، فقلبك كبير، ولستِ الآن قاضيةً، ولا زوجة تنتظر زوجها ليعود من سفر غير بريء، أعترف أني عشت أحلى أيامي معها، جمالها ومكرها اللذيذ أطاحا بكل ذكرياتي، حُلوِها ومُرِّها، سنوات من الفرح تعادل عمرًا، وطاب للنهر مجراه بيننا حتى جاء من يُلقي به حجرًا ثقيلًا، لم أَقْوَ على رفعه.

ففي إحدى الأَمَاسِيِّ، شاء الحظ أن نلتقي رجلًا ثريًّا من المغتربين، حسَن الطلعة والهندام، وله اهتمام بالبحث العلمي، كان في زيارة قصيرة إلى دمشق بدعوة من وزارة التعليم العالي، لذلك دعته الجامعة لحضور حفلها السنوي بصفته أحد الداعمين والمموِّلين. وبالطبع كنت أول المرحِّبين به لِكَوني نائبًا لرئيس الجامعة، وما إن رأى زوجتي (النبيلة) حتى بدت عليه ملامح الإعجاب، وكان منها ما هو أكثر، ما أوقعني في الحرج، فاختصرتُ الحديث معه. وحين عدتُ إلى البيت، عاتبتُها بشدَّة، فاعتذرت برقَّةٍ متناهية وأقنعتني كعادتها.

لم يخطر على بالي أنها تبادلت الأرقام مع الضيف في أثناء انشغالي، وأنهما يتواصلان يوميًّا، وقد مدَّد زيارته وهو يضمِر أمرًا. ويومًا بعد يوم تجري مياهٌ غزيرة لتُغرق بيت السعادة

الذي توهَّمتُهُ، أجل إنه بيتي الجميل، كتبي ومقتنياتي، شرفتي التي شهدت أصْبَاحي وقهوتي، كان يحلو لي أن أصحوَ مبكرًا لمراجعة محاضراتي، فطوري الهَنِيءُ معها، وابتسامتها التي كانت تشعُّ حبًّا وإخلاصًا، كي تزيدني غفلةً وتجعلني أسخر من نفسي إذ خامَرَني الشكُّ فيها يومًا. أقول «بيتي» وأكره نفسي، فقد سجلتُه بِاسمها لأنها بكَتْ على صدري يومًا، وتفانت في خدمتي فخُيِّلَ إليَّ أنها الوحيدة التي تحبني، وكنت حينها قد نجوت من حادث سير مروِّع.

لن أطيل عليكِ، وأعلم أنك ستكرهينني لسبب واحد فقط، لأنني لم أترك لولدي شيئًا غير خاتم ذهبي كنتِ أهديتِنِي إيَّاهُ، ولوحتين ثمينتين أودعتُهما عند جارتي.

لن أكذب وأقول إني أحبك، فأنا الآن غريب حتى عن ذاتي، فكيف أُحب؟! وقد ذويت حتى غدوتُ خيالًا. أوَدِّعُك بقلب محطم، ورجائي أن تذكُريني بسلام ومن دون حقد كي ترتاح روحي.

بَلِّغي سلامي وحُبِّي لولدي، شوقي إليه في نفَسي الأخير).

طويتُ الرسالة وأعدتُها للحقيبة فلامستُ الخاتم، لم يكن باردًا، وحين قربتُهُ من ناظريَّ، توهَّج واختلط لمعانه بومضة خاطرٍ من نهار دمشقي بعيد، يوم احتفلتُ لأول مرة بعيد ميلاد ماهر بعد عودته إليَّ، فأهديته ذلك الخاتم.

كلماته زرعت في قلبي أشواكًا جديدة، كأنَّ ما يُشقيني ليس كافيًا، وصرت أضاعف الأسئلة، وأُرهق نفسي حين تعجز عن

الإجابة؛ لماذا لم أسأل عنه؟ هل أنا فعلًا -كما وصفتني عَمَّتي- رحيمة طيبة لا ينقصني سوى أن أصَلِّي؟ هل أنا صاحبة قِيَم؟ قد أكون كذلك فعلًا لكن ما كان ينقصني ليس الصلاة، بل أن أسامح، فلو كنت سامحتُهُ لأصبحتُ كما قال جدِّي، روحًا طليقة كما الطير في عليائه.

(١٣)

شُرفات للعشق في إسبانيا

لم يكُن قد أكمل عامه الثاني والعشرين حين وصل إلى إسبانيا ليبدأ دراسةً جدِّيَّة في كلية الطب، بعد أن أضاع ثلاث سنوات قضاها منشغلًا بمُتَع الشباب، وطموحات مبكرة إلى مكانة سياسية أملاها عليه شعور غير مُبرَّر بالعَظَمة، ربما لأنه تفوَّق في مرحلة الثانوية بنتائج باهرة، وكان شابًّا مليحًا وافر الجاذبية، ومع أنه حظي بمزايا كثيرة، فتحت له أبوابًا للسعادة مع فتيات جميلات في بغداد وبيروت، لكنه في مجتمع أوروبي وجدَ نفسه أميرًا للفرص المُتاحة، وتلك خاصية للرجل الشرقي الذي ينشأ في عائلة مُحافِظة فتأخذه الدهشة أمام ما تتمتع به المرأة الأوروبية من حرية تعبُر التقاليد التي درج عليها، ثم إن غياب الرقيب يُذيب الحذر ويجعله مأسورًا لأول لقاء بحسناء.

هكذا كان حال ابن عَمَّتي خالد مع معلمة اللغة الإسبانية «كاليدا»، تعلَّق بها بسرعة ومضةِ الضوء -حسب تعبيره- ومن أجلها أتقن لغة القوم أيَّما إتقان. كانت من عائلة ميسورة فحَبَّبَت إليه الزواج والسكن عند أهلها، وهذا ليس غريبًا لدى الإسبان، ربما لِما تركه وجود العرب في بلادهم من آثار قد

يحسبها كثيرون إيجابية. وكان لهذه العائلة الطيبة كبيرُ الفضل في إتمامه سنوات دراسته بنجاح والتخرُّج طبيبًا بامتياز.

لم يكن سهلًا عليه أن يقمع روحه المغامرة وينتظم في الحياة زوجًا مُخلصًا، وما كان يشكو قلَّةَ الحب والاهتمام، لكنه مطبوع على الرغبة في التغيير، أو لأن ذاكرته مشحونةٌ بصُور الغِيْد من زمن التفتح والفتوة، هو لا يحتمل فكرة أن تنظر زوجته إلى غيره، لكنه مؤمن بحقه في أن ينال سعادة مع أخرى، ربما لأنه متأثر إلى حدٍّ ما بأفكار عمِّه المتزوج باثنتين.

وصادف أن زارته في عيادته شابة حسناء، في البداية لم يُكن مُهتمًّا بها، ربما بسبب ضغط العمل، أو لأنها كانت متعَبَة، لكنه حين التقاها ثانيةً في حفل غابت عنه زوجته، شعر بميل إليها وتمنى لو يراقصها، كانت تراقبه ولديها الرغبة نفسها، فتآلَفَا في رقصة هادئة أتاحت لهما من القرب ما يرجوانه.

تواعدا وتتالت لقاءاتهما من دون أن يتسرب الشك إلى قلب الزوجة الطيبة، ولكن للحب رائحةً كما يقول الشاعر نزار قباني، فما لبثتْ أن تضوعت في أماكن عدَّة وشاع الخبر، فصار لا بُدَّ من مواجهة.

المؤلم أن تلك الطارئة الجميلة سلبَتْ خالدًا ما تبقَّى من حبه لكاليدا، فبَدَا مستعدًّا للتضحية بكل شيء من أجلها. روزاليندا الفاتنة لم يكن يَعنيها ما سيُلاقيه حبيبها من تشتُّت وصعاب، المهم عندها أن تفوز بحبه، وهكذا كان.

حلَّ الخصامُ محلَّ كل شيء جميل كان بين الزوجين، واضطُر الزوج المتمرد إلى دفع كل ما وفَّره لتعويض شريكته التي

أخلصتْ له، وقدَّمتْ كثيرًا من مالها وجهدها كي تجعل بيتها روضة تظلِّلها المحبة. تَفكَّر الطبيب العاشق في أمره، هل يبقى، أم يرحل إلى مكان آخر يمنحه السكينة وأمان العيش؟ فلم يعد أجرُه يكفيه في مدينة كبيرة كبرشلونة، ولا بُدَّ له من البحث عن مكان آخر للعمل، تكون متطلبات الحياة فيه أكثر يُسرًا، ضاحية أو قرية صغيرة، فكَّر أن يبتعد كي ينسى ذنوبه، فسار به قطار الهَجر إلى الأندلس، وهناك أقام كل سنواته المقبلة، وآنس لصحبة الناس وطباعهم ذات المسحة العربية، واكتشف شرفات جديدة للعشق، فالحب عنده لا نهائي وهو بهذا الوَلَه بالجمال كان يخال نفسه أكثر حظوة من رفاق له سكنوا إلى زوجاتهم وطاب عيشهم.

لم أكن أعرف بما رويته لكم عن خالد إلا بعد شهور طويلة من انتقاله مع روزاليندا إلى قرية جبلية في الجنوب الشرقي من إسبانيا، قرية «ميخاس بويبلو»، ليست بعيدة عن البحر، بيوتها البيضاء هانئة، تنام على السفوح المترامية، وشرفاتها الواسعة تطل على وديان فسيحة، هواؤها النقي ينعش النفوس المتعبة، ويَشفي من يسعى لنسيان ماضٍ عصِيٍّ، وهذا ما حبَّب لخالد السكن فيها.

وهناك في تلك الجنة الصغيرة، التقيتُ ابنَ عَمَّتي بعد فرقة طويلة، وكنت في رفقة والدته التي تناهت إليها أخبارُه غير السَّارة، فأرادت أن تطمئن عليه.

أكثر ما أذكره عن خالد طفولته الجميلة، فهو أصغر مني بست سنوات، ولعلكم تذكرون ما حكيتُه لكم عن عَمَّتي ذات

الصوت العذب، هي أمه وزوجُها يونس الذي كان يُسلِّيني بقصصه العجيبة، والذي كفكف دموعي حين بكيت يومًا لفراق عَمَّتي، ووعدني بأن يملأ حديقته بالأرانب التي أحبها، فكانت أمتع أوقاتي في اللعب معها بصحبة خالد، لذلك فرحتُ حين دعتني عَمَّتي إلى مرافقتها، فكيف كان الحال؟

وجدنا خالدًا غارقًا في الغواية مُتعَبًا يُكابِر ولا يُبدي أسفًا، وأنا كلما نظرتُ إليه كنت أشعر بأسًى يغالبه الحنين إلى ذكريات الطفولة وملاعبها، ويشقُّ عليَّ أن أراه وقد فقد السكنَّ الودود والقلب الكبير لزوجته الوفيّة كاليدا، ولا أدري لماذا امتلك خاطري هاجس غريب بالخوف عليه، ربما لأني كنت دومًا أراه أخًا صغيرًا، تصورته كيف سيبدو في مشيبه محزونًا، آسفًا على ما فاته، مع أنه ليس أول رجل يفارق زوجته ويبني أسرة جديدة.

يمر الزمن على العاشقَيْن النائيَيْنِ، وتتجرع روزاليندا من الكأس نفسها التي سقتها لغريمتها، تشتاط غضبًا لكنها بطبعها الميَّال إلى الكتمان والكيد، تحجب لوعتها وتتجاهل الخيانة، وتريد أن يتم زواجها بخالد في أسرع وقت وبدون مشكلات.

أنا لم أرغب في حضور حفل زواجهما، لكنه رجاني وأكثرَ، فما أحببتُ أن أخذله، وكنت حينها في دمشق.

المناسبة كانت بسيطة ومختصَرة، وعلى غير ما شعرت به في زيارتي الأولى، وجدت قريبي سعيدًا، واثقًا باختياره، يختال بعروسه التي يُباهِي بأنها أجمل امرأة، وهي حقًّا كذلك، لكني لم

أحبها وجاهدت كي أرسم على وجهي نظرة الرضا وأُبدي الفرح، حتى إني قدَّمتُ لها هدية ثمينة. والحق يُقال، كانت في غاية اللطف معي، ورجتني بصدق أن أغيِّرَ تاريخ عودتي لتُبقيني أسبوعًا آخر.

شجرة العشق وارفة الظلال، أحيانًا تعطي ثمارها لأيادٍ تحنو عليها وترعاها، تلفُّها بغطاء مخملي، وتظل تتأملها بشغف الأمومة والأبوَّة، وقد تسقط من غصونها ثمرة لا تحظى إلا بيد وحيدة، تتعهدها بمُضاعَفِ العطف، ولكن ليس من غير عناء، هذا ما علِمْتُه من قصة حب عابرة، مرَّ بها ابن عَمَّتي فأثمرت بنتًا لم تخبر عنها أمها إلا حين بلغت سن الدراسة، فقد تربت في حِضن جدِّتها. وقد تسنى لي بعد سنين طويلة أن أراها شابة فائقة الحسن، وأن أعرف كثيرًا عن أمِّها المكافحة، وجَدَّتِها الحنون، وكم تألمتُ حين التقيتُها ثانيةً وكانت محزونةً كمن فقدت حياتها وصارت تنظر إليها من بعيد، صورة قد لا يحتملها الخيال، لكني رأيتها رسمًا على مُحَيَّاها، جدَّتها كانت عمرها الذي مضى، ونبع الحنان، فلم تحتمل غيابها. أحبَبْتُ ميلينا لطيبتها ومحبَّتها لأبيها، مع أنها لم تعِشْ معه ونالها الأقَلُّ من اهتمامه، لكنها كانت بارَّةً به، حريصةً على رضاه.

يجوب بي الخاطر في دروب الذكرى فيأخذني إلى مدينة أَحببتُها، فيها من الجمال ما يُبهج النفس، ومن التاريخ ما يحكي قصصًا عن شعراء وعاشقين لم يكملوا مشوارهم، وشرفاتها تزهو بالورد والياسمين، مسجدها الجامع تحفة بهيَّة، اجتمعت فيه فخامة العمارة الرومانية، وفنون الخط

العربي في محرابه، وتالِيًا بهاءُ الكنائس وسحر شموعها، في باحته الفسيحة تصطف أشجار النارنج في وقفة جميلة، فكأني في بغداد حين تسطع شمسُ آبَ، والنهار في منتصفه، ومعي ابن عَمَّتي يتأمل الآثار ويسرح به الخيال فيرى نفسه في حضرة الزمان الأندلسي، وإلى جانبه خَلقٌ من المسلمين يؤدون الصلاة، يحدِّث نفسه بصوت عالٍ: «لماذا لا يسمحون لنا بالصلاة في هذا الجامع الكبير؟ تبًّا للإسبان!».

أما أنا فلم أعبأ بمن كانوا ومَن زالوا، ورأيت في ذلك الصرح الكبير شاهدًا على الجمال والذوق الرفيع، وأكبَرْتُ أياديَ شاركت في بنائه وتزيينه بِأَصَائِل الفنون. يخاطبُنِي غاضبًا فيقول:

– ليتهم ما ضيَّعوا مجدنا في الأندلس!

فأجيبه:

– بل قُل لهم شكرًا لأنهم تقهقروا وعادوا إلى بلادهم، وإلا كيف لك أن تنعم بجمال إسبانيا، وطبيعتها الخلَّابة؟

ثم عدتُ أُذكِّره بأنه لا يحب الأمويِّيْنَ فلماذا يأسف على ضياع مجدهم!

يضحك مني ويقترح عليَّ سهرة مسائية، فذلك اليوم كان بداية لمهرجان المدينة السنوي، وهناك يمكن الوقوف على تقاليد المدينة، والاستمتاع بموسيقاها وألوان أزيائها وصناعاتها اليدوية، وكذا تذوُّق أطعمتها اللذيذة، كل ما يُشعر بالبهجة وجدته هناك، لكن خالدًا أفضى لي بِسِرٍّ يُخفيه عن

أصدقائه الإسبان: هو لا يحب المهرجانات، وضحَّى من أجلي لأول مرة بأن يحضرها.

قرطبة الرائعة، شقيقة بغداد في حَرِّها، شمسها المستبدة وقت الزوال ونسمات ليلها المنعشة، لماذا أشتاق إليكِ يا قرطبة؟ هل لأنك الأجمل بين مدن إسبانيا، أم لأن فيك انطوى الحزن والفرح؟

يومٌ آخر يمرُّ على روزاليندا وقد جاوزت الأربعين من عمرها المريح المُترَف، وأَنَسَتْ إلى غيبة خالد فهو يعمل في مدينتين، ويكسب كثيرًا بعد أن تعمَّقت خبرته، وصار اختصاصيًّا في أكثر من فرع في الطب، ما زال العشق بينهما حاضرًا، لكن البُعد ولو لأيام في الأسبوع يخلق وقائع جديدة، وابن عَمَّتي لا يملُّ البحث عن الجمال، فإن صادف أن اجتمع مع طيبة القلب، ونبل الطباع، فإن فيه تعويضًا عما يعانيه مع زوجة متسلطة، يعشقها لكنه يحتاج إلى الشعور بحريته.

وهكذا جاء اليوم واكتشفَتْ روزاليندا أنها لم تعد الوحيدة في قلبه، فلم تسكت، بل أثارت عاصفة هزَّت عرش غرورها وانتهى الأمر بينهما بالفراق.

ولا أُخفي عليكم شماتتي بها وخوفي من أن يعود لها، فهي امرأة لا تستسلم بسهولة وتجيد اقتناص الفرص.

وبعد أشهر على انفراط عِقد المحبة بين الزوجين، أصبح خالد حُرًّا هانئًا مع صاحبة جديدة، هذا ما علمتُهُ من رسالته التي تَبَدَّى منها عطر الخلاص، قال عنها إنها امرأة ودودة راقية،

ذكية لمَّاحة. أليخاندرا تعمل مدرسة للموسيقا، التقاها في دار صديقه، وهي على عكس سابقتها، في طبعها سماحة ومَيل إلى الاعتماد عليه في كل شيء، والتسليم بكل ما يختاره لتنظيم حياتهما وعلاقاتهما الاجتماعية، حتى إنها تركت له كل ما يتعلق بتزيين البيت، فترى الجدران محتفلة بلوحات من الخط العربي، زاهيةً بأشعار (الخيَّام) و(حافظ)، وآياتٍ من القرآن.

سألتُهُ مرة وأنا أنظر إلى تلك التشكيلة:

- أما من أيقونة تشهد على تآلف دينكما؟

يضحك مني ويقول:

- هي لا تهتم بأمور الدين، ولا تفهم لُغتنا، يروق لها فن الخط، وتعجب كيف يطوِّع الخطّاطون حروفهم ويرسمون بها أشكالًا جميلة.

يُحيِّرني خالد، ما دام مرتاحًا مع صاحبته الرقيقة، فلماذا لا يتزوجها؟ أم تراه ما زال يعشق الأخرى؟ لا أدري، ربما فهو يرى -كما قال مرة- أن العشق مخاطرة، يأخذ الزواج منها بهجة الانتصار، ويا له من انتصار مكلِّف!

نسيت الأمر لأشهرٍ، حتى فوجئتُ منه بهاتف يقول:

- أنا وأليخاندرا اتفقنا على الزواج.

سرَّني الخبر، وقلتُ:

- هذه خاتمة المشوار، بعدها ليس من شرفات جديدة للعشق، ها قد استقر ابن عَمَّتي وطابت نفسه.

هكذا حسبتُ الأمر، ولم يخطر على بالي ما يُخبِّئه البحر من

أمواج تبدو هادئة، لكنها تتسلل إلى الشاطئ الآمن وتوشك أن تغرقه.

موقف طريف أدهش الزوجة الثالثة، فقبل تسجيل الزواج في البلدية أصَرَّ أخي على مغازلة الشريعة واصطحب عروسه إلى أقرب مدينة فيها مركز إسلامي. كنتُ معهما، وهناك سألهُ الإمام عن مقدار المهر، فالتفت خالد إلى صاحبته وسألها ضاحكًا عن المبلغ المطلوب، فثارت واحتجَّت: «هل ستشتريني؟ ماذا أصابك؟!». ثم انسحبت غاضبة والإمام يطلب الترجمة، ولما عرف سبب ثورتها صار يرجوها: «يا بنت الحلال المهر هدية، صلي على محمد!»، لم يتوقف خالد عن الضحك وهو يأخذ بيدها ويشرح لها الأمر حتى هدأت وعادت. وفي نهاية المشهد كتب على نفسه عشرة آلاف يورو مؤخرًا للصداق، وغمز لي: «تستاهل وعلى راسي»، ثم ناولها قرآنا صغيرًا كان يحمله في جيبه، كمقدَّم للصَداق.

هكذا عُقد الميثاق بينهما، وعادا لدارهما فرحَيْن بما أنجزا، وبدا خالد واثقًا يبشر أصدقاءه بمِسْكِ الختام، فهل انتهت حقًّا لعبة المخاطر؟

كان على أليخاندرا أن تنتظر طويلًا كي تعرف جواب السؤال، أن تُمضي الأجمل من سنوات عمرها مع رجل يحبها، لكنه يعشق الأخرى، يتفانى في رعايتها، وعيناه تَرنُوانِ للبعيدة، هناك الغواية وحلو الذكريات، الأمس وعنفوان الشباب. كل الناس يتغيرون إلا قلب خالد، ما زال أخضر مع أنه عبَرَ الخامسة والخمسين. المشكلة لا تكمن في طبيعته المؤرقة

دومًا، بل في أساس تفكيره بأن الرجل المسلم من حقه أكثر من امرأة، وأن التعدد لا يَشِينُه، وهذا ما رَشَحَ من سيل العاصفة التي هدمت بيته الثاني.

وعلى أيِّ حال فقد قضى خالد زمنًا جميلًا بعد زيجته الثالثة، لولا لعنةُ مَن قال «إذا كنتَ تروم السعادة فَعِشْ في خطر»(*)، ولأجل هذا سافرَتْ مراكبه إلى الشاطئ المتوسط من عمره المغامر، وتعانق العاشقان اللدودان من جديد، فيما كان الشكُّ يغزو قلب المرأة الطيبة، الصادقة في محبَّتها، وحين كاشفَتْهُ بظنونها، نظر إليها بوَلَهِ مُحِبٍّ يخشى صدود حبيبته، دامِعَ العينين، مصدومًا في شَكِّها. لم تكن لتصدِّقَه، لكن امرأة بمثل نقائها ونُبل مشاعرها، أرادت أن تمنحه فرصة أخرى، فالتقطها ليأمَنَ ثورة شَكِّها، وينتظر حتى تهدأ الرياح، ومن حُسن حظه أن أليخاندرا انشغلت بتنظيم الحفلة الموسيقية السنوية للمعهد الذي تدَرِّس فيه، وقد أخذت منها وقتًا طويلًا.

وهكذا عاد خالد لقاربه المرابط على الشاطئ، ليبحر إلى البرِّ الثاني. آهٍ وألفُ آهٍ من شواطئ العشق، كم تخدعنا وكم تروينا! لعلَّ هذه الجُملة هي التي كانت على لسان ابن عَمَّتي يومَ حلَّ السَّقامُ في جسده الذاوي، وحاصره الداء الخبيث، يداعب روحه الظامئة أملٌ في الحياة، لكن الألم يوقظه، يئن فلا يجد غير أليخاندرا التي أحبته أكثر مما استطاع أن يحبها، يهمس لها بصوت لا يكاد يُسمع: «حبيبتي سامحيني».

* الوصف مُستلهم من قول «نيتشه» بالمعنى نفسه.

تقترب منه وتشدُّ على يده، تُقبِّله وتغرق في نوبة بكاءٍ، تتوسل إليه أن يكفَّ عن الكلام، يغفو وفي عينيه رجاء يوشك أن ينطق.

كم يبدو المرء على حقيقته حين ينال منه الضعف والمرض! والقلب المرهف لا يعرف الحقد، ويبقى يمنح مهما كان الوجع، النهاية وشيكة، لكن شيئًا من السعادة قد يؤخرها، هكذا فهمت أليخاندرا رسالة عينيه؛ يريد أن يراها، روزاليندا، عشقه الساكن في أعماقه، مغفورة الذنب في كل ما فعلَتْ، كيف السبيل إليها وهو بين يدي امرأة تبكي حاله طوال الليل؟!

كنتُ معها أواسيها وآمل أن تخيب تقديرات الأطباء، ويعيش ابن عَمَّتي أطول، لكنها كانت واثقة بصحة تشخيصهم، وتعُدُّ الأيام بحسرة، تستحضر زمنًا أورق فيه شبابها، زمنًا مضى، سلب الحب بريقه وما أبقى منه غير الرحمة والغفران.

قالت لي وعيناها ترشحان بالأسى:

- إن كان يفتقدها فلا مانع لديَّ من استقبالها؛ أريده أن يكون سعيدًا في أيامه الأخيرة، وألا يَمضي وفي قلبه وجع، مرةً قلت له: «أعرف أنك تحبني، لكنك تعشقها»، وحينذاك عاهدني على ألا يعود إليها، لكنه عاد مرارًا وظل ينام في حضني.

(١٤)

ومضات من الذكرى

- ١ -

صديقاتي

في زمن مضى من أوائل تفتُّح الزهر وعهد الندى، كنت في بداية دراستي الثانوية أكتب رسائل كثيرة، لصديقة عزيزة سافرتْ، وأخرى زوَّجوها مبكرًا فغابت وأبقت في القلب وحشة، وثالثة غادرت البلاد مع عائلتها في نَوبة تسفير مبكرة، أبثُّ شوقي إليهنَّ، وحنيني إلى حكايات تشاركنا فيها، وعرفنا سعادات صغيرة، أغنيات جديدة، أسئلة عن الحب كلما أذكرها أضحك من بساطتي. مرةً سألتني رفيقتي أمينة بكل جد:

- ألا تحبين عبد الحليم حافظ؟

- أجل لا أحبه، ولماذا أحبه؟

استغربَتْ جوابي فقالت:

- هل تعيشين معنا في هذا العالم حقًّا؟ أنت غريبة فعلًا، ألم تشاهدي فيلم «الخطايا»؟ ألم يَرِقَّ قلبك لآلام الشاب

وأحلامه الضائعة؟ أين أنتِ من كل هذا؟!

لم تكن وحدها، فالأُخريات أيضًا صِرنَ يسخَرْن منِّي كأني جهلت كُروية الأرض أو زرقة السماء!

عجبتُ من أمرهنَّ، فهل عليَّ أن أحب عبد الحليم كي يحسبوني موجودة، أم أن شيئًا ما ينقصني حقيقةً؟ مثلاً إحساس بنبضة حب يسوقها لحن جميل، أو شعور بما يطرأ على جسدي من تغيرات تثير أسئلة.

تحيَّرتُ واستفتيتُ مرآتي، ثم سألت أخي، فقال:

– صديقاتك تافهات، لا تهتمي برأيهنَّ.

تذكَّرتُ الفيلم الذي وَصفنَهُ كأروع ما قدَّمت السينما المصرية، ما علق بخاطري منه أغنية حليم «جئتُ لا أعلم من أين، لكني أتيتُ...»، فكرت وتفكرت فوجدت نفسي على شيءٍ من قلَّة الإحساس، إذ كيف مررت بآلام شابٍّ يبحث عن أصله من دون أن أذرف دمعة؟ ألم أبكِ لآلام «أُمُّنا الهند» وللحب الضائع في «سانجام»؟ فما بالي لا أَرِقُّ لدمع العاشق الذي شغل الصبايا؟

ومن يومها صِرت مدينةً لعبد الحليم بألفِ دمعة، وسأستمع إلى كل أغانيه وأحفظها، وأكون سبَّاقة لمشاهدة أفلامه، فلستُ أقلَّ من صديقاتي، يا لغرورهنَّ!

- ٢ -

رُقيَّـة

ما زلتُ في مدرستي الثانوية، وقد وصلتُ إلى الصف الرابع العلمي الذي اخترتُهُ من دون تفكير، وفشلت في اجتيازه، لكني كسبت صداقة رُقيَّة، التي سبق أن أتيتُ على ذِكرها في سياق روايتي عن العمَّة وجيدة، فتاة أهدتها الطبيعة كل شيء جميل، وزادها ألقًا ذكاؤها الوقَّاد، لن أنساها. وكما روت لي، فقد أجبرها أبوها المتسلط على الزواج مبكرًا قبل أن تبلغ عامها السابع عشر، وكان قد اتَّفق مع العريس على كل متطلبات الزواج وتاريخه من دون أن يُعلِمها، ولم يخبرها إلا قبل يومين من العقد، فيما كانت تؤمِّل نفسها بأن تطول فترة الخِطبَة.

كانت معي قبل زواجها بشهرين، عندما ذهبنا إلى البصرة في رحلة مدرسية، يومها كان سيد البيت المتجبِّر في رحلة العمرة إلى الحجاز، فانتهزَتْ الفرصة لتشارك زميلاتها أجمل ثلاثة أيام من حياتها. تجمعنا في المحطة، فتيات في أحلى مراحل العمر، مطوَّقات بأربع من مُدرساتنا اللواتي أَحْسَنَّ دور الرقيب، وأكثرهنَّ تشدُّدًا حذرتنا من رفع أصواتنا لأن ذلك ينتقص من تهذيبنا، لم نبالِ، ضحكنا وتنفسنا نسائم الحرية بعيدًا عن قيود العائلات، عيون المسافرين تفحَّصتنا، وانتشينا بكَمِّ الإعجاب الذي حاصرنا، وهمسات الشباب من حولنا.

ووسط هذه الدائرة المفرحة، بَدَا غريبًا مني أن أفكر في الصلاة لأن القطار تأخر، وسيفوتني الفرض! قلتُ لرُقيَّة:

– سأفرش الجريدة وأُصلّي.

ضحكتْ وقالت:

– صليها قضاءً حين نصل.

لم أقتنع وصليت وحدي فيما العيون ترقبني وتسخر مني، لكني حصلت على ثناء مُدرسة اللغة العربية التي أحبها. وكنت متأثرة بنصيحة جدي بأن من الخير أن نصلي متى استطعنا وألَّا نؤجل.

يصل القطار فيفيض سرورنا، وتعلو أصواتنا كأننا طيور أفلتت من أقفاصها، ما نغَّصَ علينا أن المُدرسات كتَمْنَ فرحتنا ولم يسمحن لنا بالغناء، حتى لو أنشدنا للوطن!

أول فقرة في برنامجنا كانت جولة في الأسواق، مشينا كَسِربِ القَطَا، متحررات الرأس من ثقل العباءات، ففي مدينتنا كربلاء لا يُسمح لنا بخلعها، ليس من سُلطةٍ، ولكن من أهالينا، وكلما توقفنا لشراء ما يحلو لنا، يسألنا البائع: «مِن أينَ أنتنَّ؟»، نجيب فيعجب ويقول: «إذًا هي ثورة البنات، النصر لَكُنَّ»، وآخرُ يومئ لنا: «الله محيي بنات المدارس»، وثالث يهتف: «تحيا الحرية!». الكل صار يعرفنا، فصدر القرار الظالم من المشرفة على الرحلة بألَّا نعود للسوق ثانيةً.

اليوم الثاني قضيناه في غابات الأَثْلِ، ونَعِمنا بظل أشجارها وشمس الشتاء اللطيفة، مرح ولعب وأغانٍ، انطلاقة ما حظيت بمثلها في سابقات سنواتي، ورفيقتي المخطوبة زادت عليَّ

بابتهاجها، وفاجأتني بصوتها الجميل، غنَّت وأطربتنا، حتى إن مُدرستنا ذات الحاجبين المتقاربين فاجأتنا وابتسمت لأول مرة، وشجعتها لتغني أكثر.

في غمرة نشوتها القصيرة، همستْ لي بكلماتٍ لن أنساها:

– تذكري عزيزتي، هذه أخر فرحة لي، فحين أعود سيمنعونني من الدراسة، ويجهزونني للعريس الذي لا أعرفه، ويكبرني بعشرين عامًا، رأيتُ صورته فقط، وليتني لم أرها، كتلة من القباحة.

– لماذا لا تهربين؟ تعالي أُخبِّئك في دارنا، أو اتَّصلي بخطيبك وصارحيه.

كانت خائفة وتنظر إلى أبيها كما لو كان سلطانًا في هيئة غول! قلتُ لها:

– سأساعدك وأنقل لك كل الدروس، لا تحزني وتعالي نمرح.

تسابقنا في لعبة الكرة الطائرة، ولم تسمح لنا المشرفة المتدينة بلعبة ورق بريئة، وقالت:

– لنسمع سناء (مطربة المدرسة) ستغني لنجاة «أيظنُّ».

صفَّقنا لها وأصغينا كما لو كنا في حفلة غنائية. وحين وصلت إلى المقطع الأخير: «ما أحلى الرجوع إليه!»، صاحت نوال (سمينة الصف): «ما أحلى الطعام! أكاد أتضور جوعًا»، فجاوَبَتْها المشرفة: «الله يلعنك عكرتِ انسجامنا». لِيَكُنْ، أنا أيضًا كنتُ جائعة، مائدة كبيرة اشتركنا في مَدِّها، مَن يراها لا يشكُّ في أننا لم نأكل في حياتنا.

بعد شهرين زُفَّت رُقيَّة إلى سعيد الحظ، وسافرتْ معه إلى مدينة السماوة جنوبَ العراق، رسالة واحدة وصلت إليَّ منها، وبعد ذلك انقطعت أخبارها.

ومرَّت سنون طويلة من دون أن أسمع عنها، حتى فوجِئتُ برحيلها، وعلمتُ من أختها أنها ولدت طفلين كفيفين، وأن زوجها كان مصابًا بالزهري، فأصابها الداء وماتت بِعِلَّتِه.

ما زلتُ أذكر دعابتها الرقيقة، فذاتَ امتحان عصيب، كانت تجلس قريبة مني، وفي غفلة من المراقِبة، كتبت لي:

- باستنَّى منك كلمتين مش أكثر (من أغنية لأم كلثوم).

لم أكن أعرف الجواب، فكتبتُ:

- إنتِ فين والحب فين؟

يا لأيامنا! كم تفاءلنا وكم تلاعبتْ بنا الأقدارَ!

ـ ٣ ـ

حين ارتاح الليل من أَرَقِي

ذات ليلةٍ جفاني النوم، وضاق صدري بصرخة توشك أن تُبدِّد الصمت، كأن هاتفًا خفيًّا يناديني: «نَحِّي عنكِ الغطاء وتأملي، ثمة روح هائمة ترنو إليكِ، تود لو تعانقك، حاذري أن تفزعيها بفرحة طائشة». وكما لو كنتُ أسير في حلم، أزحت الستارة وأرسلت بعيد النظر إلى الجوار الغارق في الظلمة، فما لاح لعينيَّ بارق، ولا نجمة أومضت، طال وقوفي في انتظارها حتى هدَّني التعب وتهالكت على مقعد ألقيت عليه ملابس النهار، وما عرفت متى انطبقت أجفاني، ورحت في رقادٍ كأنه السجود في حضرة آلهة باهرة، لا أدري هل طافت عليَّ تلك الروح التائهة، أم هو حلم لم يكتمل.

أقبل الصبح حاملًا تعب السهر، يُغريني بأن أواصل نومي ولا أفكر في شيء من قلق الأمس، طاوعتُهُ فليس أطيبَ مِن الغفْوِ بعد يقظة مبكرة، فربما يصدق الهاتف وأرى ما يسُرُّني، ويا لها من خيبة! فقد عاودني الكابوس المقيم: الامتحان، وأنا أسابق الريح للوصول إلى المدرسة! لكن لا بأس عليَّ في أن أسرع فلديَّ موعد.

أشياء كثيرة شغلت يومي فنسِيتُ كل ما انتابني ليلة أمس، وعجبتُ مما أحسست به من خوف، وما لبثتُ أن تذكَّرتُ

حكايات جدتي عن أرواح المُحبين، كيف تحوم حول ديار أحبابهم، تطمئن عليهم، وتترك علامة في حلم، أو شرودًا في يقظة، فالليل يجلو الأرواح ويطلقها حين تسكن الأبدانُ ويصفو الخيال. أتُراها روحه وقد شاقها الغياب؟ وهل ستجود بها ليلتي؟ ليتها تلامس وجهي كنسمة، أو أراها كخَطفة شهاب.

ما زلتُ أحتفظ بذكرى منه، عِقدٍ بنفسجي، واسِطَتُهُ قلبٌ يضم صورته، سنوات طويلة كان يعاودني طيفه، آنسُ إليه ويسكنني خاطر عجيب يحدِّثني بأنه لم يرحل، وبأني سأراه يومًا، تلحُّ عليَّ الذكريات وأحلاها ما كان من عهد البراءة.

كانت أمه تدعوه «طير الذهب» لشُقْرَته وحلاوة ابتسامته طفلًا، هكذا قال لي يوم أطلت النظر إلى عينيه، وتساءلتُ «كيف أبدعَتْ أمُّك في صنعك؟!».

التقيتُهُ في بداية عامي الجامعي، شاب بادي الحسن والأناقة، مهذب الطباع حَيِيُّ النظرة، كان قد خطف انتباهي ذات يوم شتائي مشمس، وقف ليس بعيدًا عن تجمع للطالبات كنتُ معهنَّ في ساحة الكلية، لمحتُهُ وعيناه العسليتان تختلجان من شعاع الشمس، تضطرب أجفانه، ويستحيل الضوء ألَقًا باهرًا فوق جبينه، تمنيت أن أحيِّيَه، لكني فضَّلت الانتظار حتى يكون وحده، وهكذا كان، تحية عابرة لا غير، ففي العام الأول من الجامعة تختلط المشاعر بين الدهشة والفرح بأجواء الحرية، وبين الحذر المرصوص في وصايا الأهل وأحاديثهم عن مساوئ الاختلاط، وأنا ما كنت ميَّالةً إلى المبادرة، ربما بسبب طفولتي المنطوية، وافتقادي رفقةَ الأطفال، ثم إن عددنا في الصفِّ

يتجاوز الثلاثين، ولم أكن أحظى بفرصة البقاء في الكلية بعد الدوام، تلافيًا لما كان يثيره أبي من عواصف عند كل تأخُّر.

«هاني» كان الأشقر الوحيد بين زملاء كُثر، بِيضٍ وسُمرٍ، ومنهم شديدو السمرة، طُلاب عرب أفارقة، وما كان يميزه أكثرَ اجتهادُهُ ودماثةُ خُلقه. إحدى زميلاتي وصفته أحلى وصف، قالت:

– عندما يمر قريبًا مني أشعر كما لو أن غيمة أمطرت عطرًا!

تلك الطالبة ذات المنشأ الريفي، كانت تَنْظُمُ الشِّعر تأثرًا بوالدتها الشاعرة بالسليقة، أحبَّتْ هاني، لكنه لم يلتفت إليها.

مع أواخر الصيف في بغداد تفتح الجامعات أبوابها، وتنتشر على صفحة أيلول أزهار المدارس، دفء الخريف كان يُنسينا غضب الشمس واستبدادها، ويمنحنا شعورًا بالأمان، ثم يكتمل الرضا معي بمصادفةٍ أهدتني لقاءً معه في نادي الكلية، كان وحده على غير عادته، ومِن دون قصد رفعتُ رأسي فلَحَظْتُه ينظر إليَّ، ابتسمت له، فقام من مكانه ليُحيِّيني وقد شعَّت ملامحه بالسرور، دعوته إلى الجلوس فأشرق وجهه بابتسامة عذبة.

هذا كان لقاءَنا الأول، بعد سلسلة تحيات عابرة تضمر الأشواق. ثم تتالت بعده لقاءاتٌ وحدَنَا أو بصحبة صديقتي شيماء وخطيبها سلوان. دام السعد إلى نهاية العام، وكان الأجمل بين فصول حياتي.

واليومَ كلما فكَّرتُ فيه، وجَرَتْ سيرته في أحاديثي مع صديقتي، يصل إليها صوتي مُثقلًا بنبرة تَشِفُّ عن حزن دفين، تهوِّن عليَّ صديقتي وتقول:

- لماذا كل هذا الأسى؟ إلى كم من الأعوام تحتاجين للنسيان؟ وقد مضى منها كثير، أأَنتِ من تسبَّبَ له في ذلك الحادث الذي تركه أسير الفراش، وسلبَهُ الأمل فرفض أن يراكِ؟ ثم إنه استسلم لرغبة والدته في تزويجه بابنة خالته، كي يُرضيها ويعيش بسلام، وحتى لو ضحَّيتِ وعِشتِ إلى جانبه، هل كنت ستضمنين دوام الحب؟ ألا ترين ما حلَّ بنا أنا وزوجي بعد قصة حب تعرفينها جيدًا؟ هل خطر على بالك يومًا أننا سنفترق وتحلُّ الغربة بيننا؟

لم أَشُكَّ في أن ما قالته شيماء هو الحقيقة، لكني - بعد حين ولسبب أجهله تمامًا- صرتُ أَشُكُّ في ما أخبرتني عن رحيل هاني، بعد أن خضع إلى عملية جراحية معقدة، لا أدري ما الذي تخفيه عني، وتحاول أن تساعدني لأنساه، فالموت يبدِّد الآمال. وعلى كل حال فإنها لا تجيد الكذب وسأعرف منها حقيقة الأمر مهما اجتهدَتْ في إخفائه. وقد يكون كل ما قالته صحيحًا، لكني ما زلت أحتفظ بالعِقد، وأفتح واسِطَتَهُ لأطالع صورة هاني فتنزل دمعة تعيد لي بريقَ عينيه يوم ألقَت الشمس بضيائها فوق صُبح مُحيَّاه.

- ٤ -

نظَّارة أمين

قد يكون حلمًا، أو شيئًا من عذوبة الذكرى، أو بقيةً من زهو ربيع مضى، لا أدري كيف تشابكت الرؤى ورسمت لوحةً مبهجة جعلتني أَتِيهُ في مفاتنها، وأصحو كأني نمتُ دهرًا وخلَّفت أحزاني...

كلهم كانوا هناك في مركب يبدو صغيرًا لكنه احتوى عديدًا ممن صادفتُهُم في حياتي وتركوا فيها أكثر من عنوان للفرح، الوقت حيَّرني، صيفيٌّ لكن النسمات لطيفة لا تحمل وهج تمُّوزَ ولا غضب آبَ، والشواطئ تُلوِّح لنا في انحناءة جميلة من نخيلها كأنها تُحيِّينا. لا ندري أين نحن وقد أسلمنا مصيرنا إلى مجاديف أمين وسعد، طالِبَيْ كلية الآداب؛ التي تجاور بنايتها مبنى كليتنا أنا وسهام، الغريب أني فقدتُ خوفي المزمن من نَزَق الأنهار، وشعرت كما لو كنت أسير في طريق تَحُفُّه حقول القمح.

في تلك الأيام من عهد الشباب، راجت أغنية لـ«حسين نعمة» كان أمين يحبها، رجانا أن نُغنِّيها فغنَّينا، وطاب النغم برقيق الكلمات إذ تقول:(يا عود ياللي شتالك عايش بفي النخل، يا ترف وفراق طبعك، يا طبع كلك زعل). عَلَا صوت أمين وحَادَ بالغناء صوبَ شكواه، مُردِّدًا آهاته، مع أن الكلمات

لا آهَةَ بينها، بكى لفراق حبيبته التي هجرته إلى آخَرَ أوفرَ حظًّا منه، فبكينا معه في توليفة ودودة من فرح الصداقة، وتباريح عاشق مهجور.

وبينما كان العاشق يواري دموعه الهاربة، ويبحث عن منديله، سقطت نظارته في الماء وارتبك فاهتزَّ المجداف في يمينه، صاح «منهل»:

– اللعنة على حبيبتك ستُغرقنا!

جَفَلَ أمين واعتدل معاوِدًا التجديف، ثم نسي مَن بكى مِن أجلها، فلديه الآن مشكلة: من أين سيأتي بالنقود لشراء نظارة جديدة؟ ربما علينا أن نتدبر الأمر، فهو صديقنا، وله مواقف طيبة معنا جميعًا.

وبينما كنا نُفكِّر في نظارته، إذ به يستعيد مِزاج الطرب ويشدو بصوته الحنون: (نخلُ السماوة يقول طرّتني سمرة، سعف وكرب ظليت ما بيه تمرة).

يلتفت إلينا ويقول:

– أنا مثل حال النخيل بلا ثمر، لكني مُصمِّم على البحث عن السعادة، ولتذهب سمر وصاحبها إلى الجحيم.

فرحنا لصحوته وصرنا نُسلِّيه بأغنية راجت في تلك الأيام: (ما أريد اللي ما يريدوني، ولا أحب اللي ما يحبوني، الحب مو مذلة، الحب أسمى وأغلى).

ساعتان من البهجة لم نحظَ بمثلهما بعد أن تفارقنا كُلٌّ إلى سبيله.

يؤلمني رحيل بعض من كانوا معي في ذلك الزورق السعيد؛ سهام غيَّبَها حادث سير، ومنهل أُعدِمَ بتهمة الانتماء المزدوج (الانتماء إلى حزب البعث وحزب آخر)، أما أمين فقد سافر وانقطعت أخباره، لكن ما زال في السماوة نخلٌ قد يكون يستظلُّ بسعفه والسعادة في طريقها إليه.

- ٥ -

حديث مع السيد ريتشارد

لعلَّكم تذكرون ذلك الرجل الذي صادفتُهُ في الطريق، وساعدته على الوصول إلى بيته، وأظن أن اسمه ريتشارد، وكان قد لبَّى دعوتي إلى الغداء في بيتي، بعد أن تواصلَتْ لقاءاتنا كلما ذهبتُ إلى عملي.

كان مُمتنًّا لنا أنا وولدي عَلَى حُسن استقبالنا له وإصغائنا إلى حديثه الطويل عن مؤلفاته الموسيقية، وعملِهِ أستاذًا في الكلية الملكيَّة للموسيقا في لندن، التي تُعتبر مجتمعًا من الموسيقيين الموهوبين من بلدان شَتّى.

في حديثه يبزغ عُمرٌ بهيج، وتنفتح أبواب على بيوت تُزهر فيها السعادة. بدا لنا كأنه صمت دهرًا ولم يجد أحدًا يستمع إليه. كم يُذكِّرني بزوجي الراحل، ليس لأنه بَدَا سادرًا في حُزنِه مثله في سنواته الأخيرة، ولكن لما يجمع بينهما من الزهو والإعجاب بالنفس إلى حد تجاهل الآخرين مهما كانوا قريبين منه، هكذا فسرتُ الأمر حتى قبل أن أعرف قصة ريتشارد.

واصل ضيفي حديثه، وبينما كان يُسهِب في تفاصيل حياته، تملَّكتهُ روح قويةٌ باهرة، فأشرق شبابٌ في وجهه، وعلت نبرة صوته، فكأنه يخطب في جمعٍ من المعجبين بفنِّه. وبعد ما

يقرب من ساعة توقف قليلًا ليرتشف مزيدًا من القهوة، فبادره ولدي بسؤال لم يكن من الحكمة أن يوجِّهه إلى رجل ظلَّ يزهو بماضيه، وحاضرُهُ لا يشهد له، قال:

– شوَّقتنا إلى عالم الموسيقا، أتمنى أن أحصل على بعض مؤلفاتك، ولكن ماذا عن حياتك، عائلتك وأصدقائك؟

نزل السؤال على السيد ريتشارد كما لو أن حجرًا تداعى من فوق جبل ليسقط على رأسه، صمت ثم تجمدت ملامحه وأمسك بكتاب كان قد جلبه معه وكاد أن يمزقه، لولا أني أشرت إلى هاني بأن يتوارى، واعتذرتُ إليه:

– لا عليك، ولدي فضوليٌّ، فقد أحبك ويريد أن يعرف كل شيء عنك.

هدأ الرجل وتنبَّه لما شَابَ صورَتَهُ من غرابةٍ وغضبٍ، وبصوت آسف قال:

– أنا لستُ غاضبًا من ولدِك، أرجو ألَّا تتأثَّرا بلحظتي العابرة، فأنا إنسان متوازن، وليس لديَّ أسرار، وستعرفاني أكثر لو تكرمتما بزيارتي.

قلت له:

– هذا يسعدنا.

في بيته حلَّ سكونٌ بهيج، وتناهى إلى سمعي صوت موسيقا من ألحان «نينو روتا»، أحسب أن السيد ريتشارد يسمعه كل يوم لأنه يوافق روحه الحزينة.

كنتُ مع هاني أنتظر مضيِّفَنا المشغولَ بتحضير الشاي،

فيما انشغلنا باكتشاف ما حفلَتْ به غرفة الجلوس الفارهة من لوحات نادرة وأثاث أنيق ونفيس، رائحة المكان تُخبر عن امرأة جميلة غادرت لتوِّها وأبقت عطرها، لكن ليس ثَمَّةَ ما يشير إلى وجودها، فالرجل وحيدٌ، وأول جملة قالها حين التقيته أول مرة «ليتهم يبيعون السعادة».

لوحة أغرتني بالوقوف أمامها مبهورة، فقد قرأت قبل سنوات أنها تساوي مبالغ طائلة، وأنها سُرقت من أحد المتاحف، إذًا كيف وصلت إلى هنا؟ لعلها نسخة مُقلَّدة.

السيد ريتشارد يقترب من الغرفة، فيما يهمس لي هاني:

- اجلسي كي لا يلحظ انشغالك باللوحة المسروقة.

- وهل تعرف قِصَّتها؟

- سأحدِّثك عنها فيما بعد، إنها قصة معقدة.

كان سعيدًا بحضورنا كأننا من أهله، راغبًا في أن يسمع منَّا ولا يتحدث عن نفسه، ونحن لم نبخل عليه بالتفاصيل، أنا أخبرته عن كثير مما مرَّ في حياتي، وجئت على ذكر عابر السبيل، وكيف صار حالي معه، فقال لي كأنه يعرفه:

- يبدو رجلًا نبيلًا! لا تُضيِّعيه، فالحب لا يأتي دائمًا.

وما إن نطق بكلمة «الحب» حتى غامت عيناه وبَدَا كأنه يستحضر مشهدًا ضاربًا في عمق شبابه، ثم التفت إلى هاني وقال:

- كنتَ سألتَنِي عن حياتي، ولم أُجِبك، وأنا مدينٌ لك بالاعتذار، لم أكن أعرفكما جيدًا، وفكرت أن ما أبديتُماه نحوي

مجرد شفقة على إنسان بائس، لذلك صدَّعْت رأسيكما باستعراض أمجادي الماضية كي أبدو قويًّا. أما اليوم فأنا أشعر بصدق اهتمامكما وممتنٌّ لكما.

تنهد ريتشار وصار يشرح لنا كيف استجاب لغواية إحدى تلميذاته حين كان يعبر الستِّين من عمره، وكيف تمادى معها، معتمدًا على ما كان يظنُّه من غفلة زوجته، قال:

– ما حسبتُ أن زوجتي وأول حبي قد كشفتني منذ البداية، لكنها طَوَتْ أحزانها وأبدت الرضا كما لو أنني ما زلت ذلك الرجل المخلص الذي عرفته منذ ثلاثين عامًا. بقيتُ أكذب عليها منتشيًا بأوهامي بأنها لا يمكن أن تشُكَّ فِيَّ، وحتى لو مسَّها هاجس ما فإن قلبها الكبير جاهز للغفران دومًا.

وأنا في نشوة الحب الجديد، ما كنتُ ألاحظ كيف ذَوَى عُودها، وأَنهك الوجعُ جسدها، كما لم أفتقد روحها المرحة، وحركتها الدائمة في البيت، كنت غارقًا في الغواية، حتى أخر قطرة من إحساسي.

وذات مساء عدتُ للدار بعد سهرة فاحشة مع تلميذتي الحسناء، مخمورًا أردِّد أغنية فرانك سيناترا «غريب في الليل»، ولا أدري كيف دارت على لساني، لم أُغيِّر ملابسي ونمتُ على الأريكة لساعات طويلة.

وجاء الصباح وأقبل معه نذير الشؤم، هناك من يطرق الباب ويكاد يحطمه، ليس واحدًا فقط، أسمع صياحًا وشتائم، أسرعت كي لا يخلعوا الباب، فتحته ويا لهول ما رأيت! زوجتي

مغمضة العينين، يحملها جاري الرجل الضخم الذي يعمل حارسًا في حانة قريبة، شتمني بأفظع الألفاظ، وقال: «زوجتك ماتت فيما كُنتَ تعربد! أنت معدوم الإحساس»، آخَرُ لا أعرفه كاد يوجِّهُ إليَّ صفعة لولا تدخُّل رجل أمسك بيده، سألته ما الذي جرى لها فأشاح بوجهه.

إلى هنا سكت ريتشارد وحاول أن يُواري دموعه، لكنه حين التفت إلى وجوهنا المتسائلة، أضاف:

-بعد أن هدأتْ العاصفة، وأخذتُ نصيبي من اللوم والتجريح من كل جيراني الذين أحبُّوا زوجتي وآلمهم رحيلها، وجدتُ نفسي وحيدًا إلى جانبها وهي ممددةٌ على سريرها، جميلة كما عهدتها، نائمة على ضَيمٍ وقد تعبَتْ من انتظاري، تمنيتُ أن تسمعني لأعتذر إليها، بكيت كأني أبكي أمي، دموع تنهمر كما المطر في ليلة ظلماء، كنتُ محتاجًا إلى شربة ماء تُطفئ نار الأسى في قلبي، وبينما كنت أرفع الكأس عن الطاولة الصغيرة، وجدتُ رسالةً منها، الظرف كان منتفخًا، ما زاد من خوفي... أعتذر؛ لا أستطيع أن أروي لكما ما كتبَتْهُ، فكلماتها لم تفقد حرارتها، قاسية مُوجعة، حرَّرتني من غروري، وألقت بي في غَياهب عالَم غريب عني، فبعد قراءتي لها أصبحتُ شخصًا آخر، وأسلمت نفسي إلى يأس قاتل دام سنوات، لم يبقَ لي صديق وما عاد لوجودي معنًى، بِتُّ منبوذًا مِن كل مَن حولي بعد أن نشرَتْ صحيفة محلية تفاصيل ما جرى في بيتي.

هكذا رأيتِني سيدتي سلمى حين صادفتِني أول مرة، بائسًا يستثير إشفاق المارة كما لو كنت شحاذًا، أما الآن فإني أشعر

بشيء ما قد تغيَّر في حياتي، تساءلتُ «ما الذي دعا هاني للسؤال عن حياتي؟ هل بقِيَ مني ما يستجلب الاهتمام؟ أصدقائي الخُلَّص ما عادوا يكترثون لِأمري، بل يتحاشون حتى إلقاء التحية عليَّ، فما بالُ شاب في أول عمره يسأل عني ببراءة وبنبرة صادقة؟ شعرت بأني نلت نصيبي من العقاب، وخطر لي أن أعود إلى رسالة زوجتي للمرة الثانية بعد أن تعمدتُ إهمالها لسنين، قلت عَلِّي أجد فيها جوابًا، فماذا قرأتُ؟ جُملًا طويلةً لم أتبيَّنها في ذلك اليوم العصيب، وقد أعماني خوفي وفيض دموعي: (وأخيرًا أقول لك يا ريتشارد العزيز، وبكل ودٍّ، أنا لم أنسَ أجمل سنواتي معك، وأعلم أن كلماتي ستؤذيك، لكني كرهت الصمت وراعني أن أرحل عن هذه الدنيا وأنا موجوعة من طول ما تظاهرتُ بالرضا، فلستَ وحدك من كذبت، فلو أني صارحتك لتغير حالك، وربما وجد كلٌّ منا ما يرضيه، لم أجرؤ على المواجهة، واحتفظت لنفسي بدور القدِّيسة المتسامحة، أعترف بأني كنت أنانية. والآن وأنا أقترب من نهايتي، أختم رسالتي هذه التي بدأتها منذ شهور... وحين أغادر بيتي الذي أحببته وعشت فيه بدايات العشق، لن أضع المفتاح في جيبي كعادتي لأنني لن أعود. سأزور جارتي وأبقى عندها، لأنني أخشى أن أموت وحيدة. أُوَدِّعك وأرجو أن تعتني بنفسك كي لا نموت معًا، ويموت مَعَنَا ذلك الحب القديم، فليس في قلبي حقد).

قد تسألونني لماذا رَوَيتُ لكم قصة السيد ريتشارد، ذلك لأنني قرأت قبل أيامٍ نعيًا له، كتبَتْهُ مُدرسة في معهد موسيقيٍّ، وعلمت بعد حين أنها تلميذته ومعشوقته التي أخبرني عنها.

(١٥)

في بيت الخالة جُوريَّة

أحاديثُ في الحب والسياسة

لم أَرَ خالة أبي، فقد تُوفِّيتْ قبل ولادتي، وكنت أسمع عن بناتها الثلاث اللواتي لم يتزوجن، ولم يُسمح لهن بإكمال تعليمهن، ولا أدري إن كان بيتهنَّ ما زال مضيئًا، أم إن أنوار الحياة فيه قد انطفأت. أسماؤهنَّ بدت لي غريبة في طفولتي، فالكبرى نَوَاهِلُ، وجُهَينَةُ هي الوسطى، أما الصغرى فَسَمَّوْها لُبَابَة. وفي مراتٍ كثيرة رافقتُ عماتي لزيارتهن، لم أكُن أحتمل جوَّ الكآبة في باحة الدار الفسيحة، وخاصة وقت الغروب، وأكره ذلك المصباح الذي لا يكاد يضيء مِن حولنا.

ومع مرور السنين صِرتُ أفهم لماذا لا أرى في وجوههن فرح الشباب، غير أن كُبراهنَّ أظهرت في أحاديثها ذكاءً ووعيًا أكثر من شقيقتيها، فقد أكملتْ الثانوية بنجاح باهر، لكن عمها منعها من التقديم للجامعة، أذعنت لقراره وصارت تعوِّض حلمها بمزيد من القراءة.

تغيَّرتْ الأحوال بعد أن حصلن على ميراثهن، وانتقلنَ إلى بيت جديد، صالته فسيحة وجدرانه مطلية بلون سماوي بهيج،

سقفه أبيض ذو زوايا مزخرفة، الأثاث أنيق وبسيط عَدَا المرآة الثمينة الفخمة التي تتوسط الواجهة، وهي إرث من جهاز الجدة الكبيرة. لذلك لم أعد أضيق بمرافقة عَمَّتي وجيدة لزيارة صديقتها الأعز نواهل وأَنَسَتُ لأحاديثها، أحببت فيها روح الرفض للتقاليد، وأشفقت عليها لتردُّدها في الخروج عليها، وكم كان ممتعًا أن أسمع منها ما كان يدور بخاطري من أفكار في سنواتي المبكِّرة، فحين سألَتْها عَمَّتي عن سبب امتناعها عن الخُطَّاب الكُثُر، قالت كأنها تصوغ نظرية في الحب:

– وهل أعرف أحدًا منهم كي أَقبل به؟ هل يُسمح لي أن أخرج معه، أعرفه مِن قُرب؟ الرجل عندي أجمل حين يبقى خيالًا، لا أريده ظلًّا ثقيلًا أتحمله مدى العمر، الحب هو ما سيدعوني إلى قبول أي رجل، فهل تَرَيْنَ هذا متاحًا لي؟ يقولون لي تزوجي لتكوني أُمًّا فتجدِين السعادة، ولكن ماذا عن سعادة القلب؟ شعور الاكتفاء العاطفي؟ بهجة الروح حين يمنحها الحب جناحين تطير بهما متى شاءت ثم تعود جذلى، فيحلَّ الرضا في ثنايا الجسد، ويمنح بسخاء، لا كما تَمنح أكثرُ نسائنا بحكم الواجب؟

وتضيف نواهل وقد شَابَ صوتَهَا رنينٌ حزينٌ:

– أنا أُحبُّ جسدي وأقدِّسه، فلا أبذله إلا لمن أحب، أنا لست أداة لإمتاع أحد تحت عباءة الزواج، ولا ساحة لاختبار الخصوبة، يقولون «تكاثروا»، وقد فعلوا، فهل أحبوا؟ هل تآلفت نفوسهم؟ لن يسعدني طفل أجد نفسي غريبةً عن أبيه، ومطلوب مني أن أشاركه السرير.

عَجِبَتْ عَمَّتي من خطابها، ولم يخطُر على بالها ما سمعته، فمع أنها من أول المعلمات، وتربَّتْ في بيت يحترم المرأة، لكنها مسكونة بالحياء المبالغ فيه، ذلك الذي يُراد للأنثى أن تتمسكَ به كما الإيمان، لذلك لم تجد من الكلمات ما يسعفها، إذ تذكَّرتْ تجربة زواجها القاسية، وكيف تأخَّر طلاقها لأنها أنِفَت التصريح للقاضي بسبب نفورها من زوجها، سكتت وفي السكوت بلاغة في مثل حالها، أمَّا أنا فأثنَيت على كل ما قالته نواهل، ووجهتُ حديثي إليها بحماسة:

– لو بُنيت كل البيوت على الحب لما نشبت حروب، ولا تسيَّد حكام ظالمون لم يجدوا في طفولتهم من يحنو عليهم ففجَّروا عُقَدَهم في شعوبهم.

وتقديرًا لمقولتي العصماء فُزتُ بنظرة إعجاب منها فامتلأتُ فخرًا.

نسيتُ أن أخبركم عن مثال ساقته في حديثها، قالت:

– الرجل كالقمر، على البُعد يبهرنا نوره، ولكن حين يقترب خاطبًا لا أعرف معه أيَّ بداية، تَخفتُ الأنوار وتحضر الحقيقة بكل وضوح، قادِمٌ يَنْشُدُ متعة دائمة ومضمونة، وأولادًا يكفلون بقاء اسمه، يأسرني بالزواج، ويبقى طَليقًا يحظى بكل الحقوق، ويمنحه القانون فرصًا للخيانة بعيدًا عن منزل الزوجية، أو من خلال حقه في زواج ثانٍ أو حتى ثالث ورابع، ثم لا يتكلَّف غير قول «طالق» ليتحرَّر من «الميثاق الغليظ». لذلك يا عزيزتي وجيدة، أُفضِّل أن يبقى القمر بعيدًا، يطرق باب الحلم، وحبذا حبٌّ يُولدُ في غفلة من الحراس، فلا اعتراض حينذاك،

ولتذهب الذات الرقيبة إلى وادٍ سحيق! أنا أثرثر كثيرًا، أما شقيقاتي -من تَزَوَّجن ومن بَقِين- فيكتفينَ بالصمت والوقار.

تابعَتْ عَمَّتي حديثَها، وعَلَتْ وجهها ملامح الدهشة، فقالت:

- لو لم أكن أعرفك جيدًا لقلتُ إنكِ تنطقين عن تجربة، إنها الكُتب التي تقرئين؛ تُفسد عليك راحة البال، لا سامحَ اللهُ «سيمون دي بوفوار» التي سلبَتْ عقلكِ.

لم ترُقْنِي ملاحظة العمَّة، لكني تفهَّمت دوافعها وخوفها على قريبتها من الضياع بين واقعها وأحلامها بالتحرر، لكني لا أرى نواهلَ امرأةً حالمةً، بل إنها قوية، سألتُها في محاولة لفهم شخصيتها المُرَكَّبة من نقيضَيْ التمرد والتسليم، قلت:

- كيف يستبدُّ عمُّكِ بمصيركِ، ويرفض حتى أن تدخلي كُلية البنات؟

هنا قاطعتني عَمَّتي وأضافت:

- وفي الوقت نفسه يتسامح مع أخيكِ الذي جلب نادلة من حانة في برلين، وجعلها زوجة له! لماذا لم يُثِرْ عاصفةً بوجهه كما فعل حين تقدَّم موظف بسيط لخطبة جُهينة، لمجرد أن إحدى قريباته ذاتُ سمعة سيئة؟

لم تُجب نواهل، لكنَّ جُهينةَ انتفضت وعَلَا صوتها فدعت على عمها بحرقة شديدة:

- أسلمتُه إلى المنتقم الجبَّار، إلهي لا تجعله يهنأ بحياته وماله!

صارت تبكي وعَمَّتي تواسيها، وتعتذر إليها لأنها ذكَّرتها برجل كانت تتمنى لو تقضي العمر معه، فهي ليست كأختها في بحثها

عن الحب، كانت تأمل فقط أن يُتيح لها الزواجُ فسحة من الحرية.

بعد حين هدأَتْ وجفَّتْ دموعها، فأكملَتْ نواهل حديثها وأسهبت:

- معظم الرجال في مجتمعنا ذَوُو وجوه متعددة؛ يفرضون العفَّة على نسائهم وبناتهم، ولا يعِفُّون عن معاشرة بنات الهوى، عَمِّي أَسَرَّ إلى زوجته ذات يوم أنه تردَّدَ كثيرًا على دُور الدعارة في شبابه، وعبَّرَ عن استيائه من قرار الحكومة بإغلاقها بعد ثورة تمُّوز في العام ١٩٥٨م، وكان يقول: (لا بُدَّ من التضحية ببعض النساء من أجل حماية بنات العوائل من تطاول العابثين بالشرف)! تسألينَنِي عن زوجة أخي؟ بصراحة أنا أحبها وأرتاح لشخصيتها البسيطة، أحب وضوحها البعيد عن نفاق نسائنا، وهي التي شجعتني لأخرج عن صمتي وأعبِّرَ عن رأيي. حدَّثتني مرة عن ماضيها الذي يعرفه أخي جيدًا، قالت: (عرفتُ عددًا من الرجال، وتعلمت كثيرًا منهم، خَبِرتُ سذاجتهم في العلاقة، وميلهم إلى تصديق كل ما تُبديه المرأة من نشوة غير حقيقية، فقط لأن ذلك يُرضي غرورهم، وأظن أن أغلبهم لا يُبدون رغبة في معرفة الحقيقة، أكثر ما يهمُّهم أن ينتهي المشوار بلا مقاطعة! أحدهم كان مختلفًا، تعطلَتْ علاقته الزوجية لسبب لم يكشف عنه، وصار يبحث عن أخرى، فكنتُ من نصيبه، كان طيبًا ودودًا، لكنه ثرثار، يلاحق تفاصيل تافهة ويُسهب في شرحها حتى يجِفَّ ريقه، والأصعب أنه لا يجيد الإصغاء، ويستعجل الرد قبل أن يفهم المُراد، كما لم يُبدِ رغبة في

مناقشة أي فكرة، مكتفيًا بالتمدد فوق السطوح. قد تستغربين كلامي لأني لم أحظَ بفرصة لإكمال تعليمي، لكني قرأت كثيرًا والفضل في ذلك يرجع إلى جارنا الرجل الطيب، صديق والدي، كان يجلب لي قصصًا للأطفال، وهذا ما خلق عندي عادة القراءة. لا أنكر أني أحببت ذلك الرجلَ المِهْذارَ في البداية، فهو لم يستغلَّ فقري كَغَيرِه، كان يحترمني، لكني اكتشفت أنه يخفي قناعاته الحقيقية خلف ستار من المجاملة واللطف، كان زائرًا منتظمًا للكنيسة، كاثوليكيًّا متعصبًا، مع أنه اِدَّعى مرارًا أنه بروتستانتي لِيُسايِرَني، وأنا ما كنت مهتمة بالدين أصلًا، لكني لا أحب الكذب، والأدهى من ذلك أن علاقته بزوجته قوية، وليست معطلة كما وصفها. لم أعد أراه كما كنت، وفقدت اشتياقي إليه، كان أخرَ رجل قبل أن ألتقي أخاك الذي أحببته لصفتين فيه: قوامه الجميل، ونُبل طباعه، ولن أخفي عليك هو أيضًا يسهل خداعه، لكني لم أفعل، وكنت صريحة معه في كل شيء، تجاربي منحتني اليقين بأنه الرجل المناسب، وأنا واثقة بحبي له، صدِّقيني لا سعادة للمرأة مع شريكها ما لم تكن مرَّت بتجارب سابقة، حتى لو كانت بائسة).

صراحةُ تلك المرأة الأوروبية أخجلَتْ عَمَّتي والأُختين، مِن دون أن تؤثر على درجة إصغائهنَّ، ولعلهنَّ كُنَّ ينتظرن مزيدًا لولا وصولُ أبي وانشغالُ بنات الخالة بالترحيب به.

مرَّت أعوام طويلة لم تَمْحُ من ذاكرتي أَمَاسِيَّ الصيف في حديقة دَارِهنَّ، والأخيرة كانت في أوائل أيلول من العام ١٩٧٣م، قبل سفر بنات الخالة. وما زلت أتذكر حديثهن الممزوج بالقلق

والتوجس، ففي ذلك الزمن من السبعينيات، كانت بيوت بغداد في حالة ترقُّب قصوى، والخوف يلفُّ أرجاء المدينة الكبيرة، عصابة نشرت الرعب بعد سلسلة من الجرائم، كانت توقِّع على ضحاياها باسم «أبي طبر». استعانت بنات الخالة بحارسٍ شديد البأس، جلبنه من الريف، لكن عمَّهنَّ أصَّر على أن يصطحبهنَّ مع عائلته إلى مدينة الشامية، إذ هناك مزارع العائلة والدار الفسيحة. ومن الغريب أن نواهلَ وحدها لم تعرف الخوف، وتحدَّت عمها لأول مرة، رافضة فكرة السفر، لكن «أبا طبر» كان له رأيٌ آخر، إذ تسلَّل إلى أجمل أحياء بغداد، وارتكب جريمة مُروِّعة في بيت تاجر، لا يبعد كثيرًا عن بيت مسؤول كبير، وقريب من دار البنات، حينذاك كفَّت نواهل عن المعارضة وحزمت حقائبها لِغَيبة طويلة.

كل ذلك حدث قبل حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م، وحالَ قيامِها وما رافقها مِن زهوٍ عربي بانتصار الجيش المصري، نسِيَ الناس أخبار العصابة، ومَن هاجروا إلى المحافظات، عادوا لبيوتهم في بغداد. وهكذا طُويت صفحة السفاح الغامض بعد أن منح السلطة مبررًا قويًّا لتفتيش البيوت، واصطياد المعارضين وضبط الأسلحة، عبر إجراءات لم تشهد مدن العراق مثيلًا لها.

ومثل غيرهن من ضحايا الخوف، عادت بنات الخالة إلى بيتهن الجميل، وعدنا لزيارتهنَّ، أنا وعَمَّتي وجيدة. وكانت مناسبةٌ للقاء قريبات لنا جئن للتهنئة بعيد الفطر، وبالطبع لم نجد مِن حديثٍ غير مفاجأة العبور الباهرة، وبطولات الجيش المصري، فيما اكتفت محدثتنا السابقة بالترحُّم على أرواح

الشهداء ولاذت بصمت قصير.

وخلال جلستنا تناهت إلى أسماعنا أنغام الأناشيد الحماسية من راديو العم غضبان، حارس البيت، ما دعا نواهلَ إلى الخروج عن صمتها، والقول بسخرية:

- لقد ضاع النصر وابتلعته «الثَّغرة»، لعن الله الخائن وسلَفَهُ الأحمق.

التفتتْ كل الوجوه إليها، وبعضها بانَ عليه الاستياء، سكتت الحاضرات في انتظار ما تقوله عَمَّتي، وهي الكبرى سنًّا بينهنَّ، والمعلمة التي تحظى بكل توقير، وكان واضحًا أنها ستسأل السؤال الذي خطر على بالهنَّ، قالت:

- ألا أوضحت يا عزيزتي، قبل أن تطلقي لعناتكِ، مَن قصدتِ؟

ضحكتْ والحسرة ترشح من صوتها:

- «مِن المُعضِلات توضيح الواضحات» هكذا قالت العرب قديمًا، وقالها المتنبي «وليس يصِحُّ في الأفهام شيء *** إذا احتاج النهار إلى دليلِ»، أَبعدَ كل ما حصل تسألين عمن يستحق اللعنة؟ أليس هو من توعد إسرائيل بإلقائها في البحر، فألقته في بحر الهزيمة؟ «ناصر عروبتكم» و«حبيب الملايين»، هل نسيتم؟ أليس هو من جعل السادات نائبه وأبعد كل الأَكْفَاء المخلصين؟ فماذا كانت النتيجة؟ ضاعت جهوده المتأخرة، وطُويت صفحة الشهداء في حرب الاستنزاف. السادات عقل خبيث، لم يكن صافي النيَّة في قرار الحرب، بل ساعيًا لمجد شخصي يُسَهِّل عليه التقرُّب إلى الغرب، وإبعادَ الاتحاد

السوفييتي عن مصر.

هنا تدخلَتْ جُهينَة، التي نادرًا ما نسمع صوتها، فقالت مُحتجَّة:

– ما لك تدافعين عن السوفييت وأنت تكرهين الشيوعيين؟ عجبًا!

تغيَّرتْ ملامح نواهل، وأطلقت ضحكة عالية، وقد توسعت عيناها كأن سرَّاءَ مسَّتْها، وهتفت:

– مَرحى يا أختي العزيزة! أخيرًا تكلمتِ، لعلك هجرت روايات نجيب محفوظ وجُرجي زيدان.

لُبَابَةُ هي الأخرى لم تسكت، وبنبرة غضب قالت لنواهل:

– لا تسخري منها، ودَعِيكِ من التعالي علينا بما تقرئينه من كُتب السياسة والفلسفة.

تأزم الحال بين الأخوات، وكاد يتطور إلى خصام، لولا تدخُّل الخالة نجيبة بأسلوبها الجميل، وعذوبة صوتها:

– صلِّينَ على النبي يا بنات، اليوم عيد.

حلَّ السلام مجددًا، وأرادت عَمَّتي أن تُخفِّف من الحرج الذي أصاب نواهل، وكانت تشاركها الرأي في عبد الناصر، لكنها لا تذم السادات، فسألتها عن «الثغرة التي ابتلعت نصر أكتوبر»، حينها اعتدلت بنت الخالة المثقفة وعادت لصوتها نبرته الواثقة:

– صدِّقْنَنِي، لن يمرَّ وقت طويل حتى تنكشف كل أسرار الحرب، وكيف استطاعت قوات شارون أن تفتح تلك الثغرة،

وتطوِّق الجيش الثالث، ليس عندي شك في أن حروب حُكامنا ضد إسرائيل جرحتها الخيانة باستثناء حرب الاستنزاف، وهذا ما يُخفِّف كُرهي لعبد الناصر الذي سحقه تأنيب الضمير فشنَّ تلك الحرب بإخلاص، علَّ الله يكَفِّر عنه سيئاته حين ترك آلافًا من شباب مصر في هجير سيناء، تحصدهم نيران العدو.

طال الحديث الجاد، وتململت بعض الحاضرات، فسكتت نواهل بعد أن عَلَا صوت النشيد من راديو العم غضبان بصوت آسِرٍ لوردة الجزائرية وهي تشدو «وأنا على الربابة بغني، ما املِكش غير إني أغني واقول تعيشي يا مصر، ما املِكش غير غنوة أمل للجنود...».

كلنا أصغينا وتفاعلنا مع حرارة الصوت وصِدقه، فما أحلى الأوطان في عمق النشيد، وحتى الإيمان يزهر مع النغم، هكذا قال جدي حين استمع إلى صوت أم كلثوم وهي تشدو بقصيدة «حديث الروح»، فسلامٌ على روحه الطيبة.

(١٦)

هذا ما عرفتُهُ عن أمل

كانت قد استودعتني دفتر يوميَّاتها، ورجتني أن أنشرها، لكني تأخرت، وأذكر أنها طالما كرَّرتْ طلبها وناشدتني أن أُسرع بالنشر كأنها تخشى نهايةً وشيكةً من دون أن تبوح بآلامها. في صوتها أنين ناي حزين يحكي ذكريات آلاف النساء ممن شاركنها رحلة العذاب في سجون العراق.

وأنا إذ أخطُّ هذه السطور الموجعة، أُشفق على قارئاتي وقُرَّائي فأختصر كثيرًا من التفاصيل.

قالت لي بسخرية بهيجة، بعد أن تعبت من سرد البدايات:

- ستسمعين مني ما يضحك، مع كل ما يجلب الخوف والهلع.

وضعْتُ أوراقها على مكتبي، وبعد أن طال انتظارها عاتبتني صديقتي، فكتبتُ، وشاءت المصادفة -والمصادفة لها مشيئة ظالمة أحيانًا- أن يكون تاريخ النشر في شهر نيسان، فكيف تزامن الربيع بأزهاره البديعة وقمره المنير، مع أسوأ حادث عرفه تاريخ العراق؟! ذلك هو مولد صدَّام حسين، وقد أعقبه مولدٌ عاثرٌ آخرُ هو انبثاق «حزب البعث» من ركام القبائل العتيقة،

كأنه نُبوءة ببدء عصر الشرور.

أعود الآن لصديقتي الرَّاوية، وأنا سمَّيتُها أمل، لكثرة ما أحسنَتْ ظنَّهَا بالمُقبل من الأيام. قالت:

– من الصعب أن أصف لكِ خوفي وهم يقتادونني إلى غرفة التحقيق الرهيبة، فلم يكن خوفًا ما شعرت به، بل حالة من التلاشي التام، كانوا يجرُّونني في ممر طويل فقد عجزتُ عن المسير، حتى وصلتُ إلى وكر الضباع. أجلسوني على كرسي عتيق وَخَزَتْني مساميره الناتئة، وسرى في جسدي تيار كهربائي جعلني أهتز بعنف وأصرخ، وخُيِّل إلى أحدهم أن الروح قد فارقتني فأوقف الصعق، لكني فقدت الوعي قبل ذلك بثوانٍ، ولم أَصْحُ إلا بعد أن ألقوا على رأسي سطلَ ماء بارد جدًّا، كانوا يضحكون ويتبادلون كلمات نابية جعلتني أشعر بالعار، ولم يتوقفوا عن بذاءاتهم حتى دخل علينا محقق تبدو عليه الهيبة، خاطبهم بلهجة آمرة: (دعوا هذه البائسة، وركزوا على أصدقاء زوجها الخائن، فقد كانوا معه في جولاته، لا ترحموهم، ولا بأس أن تأخذوا هذه المرأة لتشهد عذابهم، فربما تُخفي شيئًا).

وأنا أسمع صراخهم كادت تنقطع أنفاسي ولم أقوَ على المسير، فأمطروني بالسباب في طريق عودتي إلى غرفة السجينات، وهناك فكَّرتُ في الانتحار كي أنجو من جولة تحقيق أخرى، فتناولتُ ما وجدته من أقراص مهدئة كانت تخفيها سجينة قريبة مني، تجرَّعتها وأنا على يقين من نهايتي، ولا أدري مَن التي تسببَّت لي في حياة جديدة، فقد أيقظني من موتي الطارئ صوت رفيقتي وهي تدعو لي بالسلامة، وتمسح

العرق عن جبيني، كانت تُهدهِدُني بدعاء طالما سمعتُه من والدتي بأن يفرِّج المولى كربي، ويشملني برحمته، وألَّا يطيل في ابتلائي. طربت لصوتها الخاشع واستغفرتُ ربِّي، وكدت أغفو على نغمة دعائها، تلك المرأة لم يفارقني طيفها كلما رقدت وطويت أوجاعي، كانت تهمتها الانتماء إلى «حزب الدعوة» بسبب وشاية من صديقتها. ولن أنسى ذلك اليوم الأليم، حين أخذوها إلى حتفها، ومعها ثلاثة من رفيقاتها، كُنَّ يَصِلن الليل بالنهار في صلاة ودعاء، فكيف جارت عليهنَّ الأقدار وهنَّ يناجينَ الرحمن في لحظة انفراط الروح؟

كان عددنا في ردهة السجن قرابة ثلاثين سجينة، بعضهن يدخنُ بشراهة، فطلبتُ إلى السجَّانين أن ينقلوني إلى غرفة الغسيل، وقد علمت بعد حين أن المعتقل يقع في مديرية الأمن العامة في ساحة الأندلس. وفي هذه الأثناء وصلت تعليمات بألَّا يُسمح لنا (أنا وقريبات زوجي) بأن نختلط بالمعتقلات لأن قضيتنا ما زالت في مرحلة التحقيق، ولأن زوجي المغضوب عليه كان متقدِّمًا في حزب البعث.

وفِيما أنا أستمع إليها ابتسمَتْ وقالت:

- سأحدِّثكِ عن قصص طريفة حصلت لي ولرفيقاتي في السجن، ثم أعود لمأساتي!... «أمُّ نبيل» قضت في السجن سبع سنوات وكانت تُقسم أيمانًا بأنَّ يدًا تمتد إليها وتدلُّها على الموضع الذي وصلَتْ إليه في قراءة القرآن قبل أن يفاجئها النوم!

ومرةً كنت أدعو الله أن يفكَّ أسري، فإذا بحمامة ترتطم بجهاز التبريد الخارجي وتسقط ريشة منها على كتفي، اعتقدت أنها بُشرى بالخلاص وبأن جناحين سينمُوان على كتفيَّ. ومرةً حلمت بأن السجَّان سيجلب لنا كيس سكر ومأكولات طيبة، وفي اليوم التالي جاءت لنا زائرة ومعها كل ما تمنيناه. أظنكِ ستستغربين، لكن صدِّقيني فالسجن والمستشفى يجعلان من الأكل أهم الأحداث!

كانت معنا سجينة ممسُوسة، تَدَّعي أن الإمام العبَّاس يطوف عليها في المنام فتتنَّبأ بالغيب، كانت تُهمتها الشعوذة. قالت لنا: (لن تخرُجْنَ -أنا وقريباتي- بل ستُجرى لَكُنَّ محاكمة، ولن يفرجوا عنكنَّ إلا بعفو خاص)! والغريب أن هذا ما حصل فعلًا! فبعد أن قضينا عامًا في مديرية الأمن، انتقلنا إلى «سجن الرشاد»، ثم أطلقوا سراحنا بعد شهرين بموجب عفوٍ عام.

«أُم علاء» كانت تعتقد أن الأئمة يكفلون لها السلامة إذا ما كتبت أسماءهم على ذراعيها، وأنهم سيحجبون صورتها عن نظر المحققين، وكان هؤلاء كلما ضربوها تسألهم: (هل تَرَونني؟)، فيضحكون منها ويواصلون الضرب.

من الأمور الطريفة أن أصغر قريباتي اللواتي رافقنني في السجن، ولم ينلها أي ضرب أو تعذيب، كانت تحسب نفسها في فندق! فتقضي في حمَّامنا الوحيد البائس مدة طويلة، فيتعالى صراخ السجينات ويُنْذِرنها بإبلاغ السجَّان عنها.

قصة عجيبة حصلت لسجينة كانت تعمل في تجارة السيارات لحساب شخصيات بَعثِيَّةٍ، كانت وَاجِهَتَهُم في معاملات غير قانونية، ويبدو أنها اختلفت معهم فَوَشَوا بها. تفننوا في تعذيبها حتى اعتلَّ قلبها، ثم قرروا أن يُسَمِّمُوها، لكن الغريب أنه كلما حقنها المُمرض ارتدَّ عليه السائل السام ولا يدخل في جسدها! وهذا التكرار جعل المحقق يشتاط غضبًا ويصفع المُمرض ثم يأمر بإطلاق سراحها. وقد تكوَّن لديَّ اعتقادٌ بأن سر نجاتها هو أني قرأت لها آية الكرسي مرات عديدة حين جاءتني تستغيث وتقول لي إنهم سيعدمونها!

إحدى المعتقلات كانت صديقة لطه الجزراوي نائب صدَّام، وجاؤوا بها إلينا بتهمة إدمان المخدرات، وكانت جميلة جدًّا.

سجينة أخرى من عائلة بعثية، كان أخوها ضابطًا، وأبوها يعمل في ديوان الرئاسة. اتهموها بشتم صدَّام، والحقيقة أنها ذهبت لزيارة جرحى الحرب وتأثرت لمصابهم فصارت تبكي وتقول: (لو أن الرئيس يتنازل عن الحُكم وتنتهي الحرب!)، وقد سمعها صديقها فوشى بها. عذبوها بقسوة بالغة وعلمتُ بعد حين أنهم أعدموها. كم تألمتُ لرحيلها! كانت تلجأ إليَّ وقد نصحتها بالصلاة والصوم لتُكَفِّر عن لحظة قنوطٍ ووجعٍ جعلاها ترمي القرآن الكريم.

أعود لقصتي، كانوا يجلبونني للتحقيق كلما استجدَّ أمر في تحركات زوجي وكلما استغرق في حماقاته، وأنا من فرط خوفي ما إن أقف أمامهم حتى أصاب بالإسهال.

وفي يوم استدعوني لأَمثُل أمام مبعوثين من ديوان الرئاسة، سألني أحدهم عن العشيرة التي أنتمي إليها، وسأل آخر عن سبب انتظاري الطويل لزوجي الهارب، وكان جوابي له: (ليس كل امرأة في حياتها أكثر من رجُل). وقد استاء منِّي وقال: (لا يحق لك أن تقفي مع «الماجِدات» في طوابير بيع البيض والدجاج)، فقلتُ له: (أنا لا أحب الدجاج)، فغضب مني وقال: (أنت إمَّعَة). كان بينهم رجل أمن ذو ملامح قاسية، يدعونه «أبا محمد»، سألني: (لماذا تزوجت ذلك الخائن؟ ألف رجل أفضلَ منه يَتَمنَّاكِ). وأمرني بكتابة رسالة إلى زوجي أُخبره فيها بأنَّ عفوًا خاصًّا ينتظره وبإمكانه أن يطمئن ويرجع، كما أن أمه بحاجة إليه.

وبعد أيام أخذوني إلى بيت عائلة زوجي، وجاؤوا بابنتي التي كانت مع والدتي، ظنًّا منهم أن الغائب سيعود بسبب الرسالة، ولما لَم يتحقق ذلك أعادوني إلى السجن. كانت ابنتي تظن أن هؤلاء الرجال من أصدقاء أعمامها، وفي الطريق إلى البيت سألتْ أبا محمد: (عمُّو، لماذا لا تأخذني إلى مدينة الألعاب؟) فابتسم هذا الرجل المتجهم المخيف وقال: (مدينة الألعاب مغلقة الآن، سآخذكِ في المرة التالية)؛ بكتْ بُنيَّتي حين أعادوها لدار والدتي، وتوسلت إليَّ أن أبقى معها، ظلَّت تنتحب وتشدُّني إليها، حتى إن أحد عناصر الأمن صار يبكي معها ويحاول أن يواسيها.

كانت فترة السجن قاسية لكنها زوَّدتني بطاقة هائلة، وعلمتني الصبر، وإن بدوتُ أمامكِ عليلةً، فإن قلبي ما يزال

سليمًا، وفي نفسي تطلُّع إلى حياة أفضل. ما يؤلمني إن الصبر -وإن قالوا عنه جميلًا- فإنه أحيانًا يدمِّر الذات، وهذا ما حصل معي، فقد صبرت على زوجي ولم أطلب الطلاق، وعاندت قناعتي بأن كل ما حصل لي ولأهلي كان بسببه، ولا بُدَّ لي من أن أطرح همومي، وأخلعه كما أخلع ثوبي حين يتَّسخ. لكني رفضت فكرة الطلاق على أمل أن يعود وقد انصلح حاله وهذَّبته المحن. ولطالما تعرضتُ لضغوط من جهات أمنية كي أُقدِّمَ طلبًا إلى المحكمة للطلاق منه مقابل مَنحِي دارًا وسيارة، وتحريري من الرقابة الأمنية، وإعادتي إلى عملي، لكني رَفضتُ بكل غباء.

عند قولها هذا سكتَتْ مُحدِّثتي فقد بدأ مفعول الدواء الذي يهدِّئ بعض أوجاعها ويسلمها لرقدة تطول أحيانًا.

عرفتُ أمل طفلةً، وفارقتُها شابةً جميلة، ثم تباعدت بيننا الأوطان، وصار لي وطن في الغربة، حتى تهيأت لي فرصة لقائها في بلد عربي حيث كان يعمل عمُّها. أعوام تفصلني عن ذلك اللقاء المفعم بروح الصداقة والمحبة، وما زالت صورتها تعبر بخاطري كلما تذكَّرتُ الأهل وما حلَّ بهم من مصائب لا أقوى على استعادتها معكم، وأخشى أن توجعكم تفاصيلها كما أوجعتني، وإني لأتخيل نفسي وقد مررتُ بمثل ظروفهم، هل كنت سأحيا من جديد؟ لا أظن ذلك، فحروب صدَّام وفنون قسوته جعلت من الحياة ضريبة باهظة، واللواتي دفعنها وعِشْنَ طويلًا كُنَّ ذَوَات عزيمة وصبر قَلَّ نظيره، وأنا لذلك أَسخَرُ من نفسي أحيانًا حين أشعر بالأسى لأسباب تتعلق

بمطامح لم أبلغ بعضها، أو لِعشقٍ ضلَّ طريقه فصار يعبث بالذاكرة.

«الرضا نعمة»، كلمة طالما ردَّدتها أمي، ويكفيني أن أتذكر كيف نجوتُ من مصير غاشم كدت ألقاه يوم غادرتُ بغداد ولم أحمل معي إلا متاعًا خفيفًا كي لا يلحظوا هربي، فقد كان ماهر سجينًا آنذاك، وربما كانوا يرصدون تحركاتي حسبما ظننتُ، لكنهم غفلوا عني، وهذا ما أكَّد لعَمَّتي قوة دعائها وكيف يستجيب المولى لنجواها، فقد كانت تسأله أن يشملني بعنايته ويحفظني من كل شر: «اللهم أَعْمِ أبصارهم عنها واختم على قلوبهم»! هكذا قالت لكل الأقرباء، فصاروا يلتمسون دعاءها في كل ضيق.

(١٧)

عندما يصحو الحنين

كان جاري في المبنى الذي سكنتُ فيه قبل سنوات، رجلٌ بَدَا لي غريبًا في ملبسه وطريقته في تصفيف شعره الكثيف، لكنه لم يكن يخلو من أناقة فريدة، خمَّنَت أنه فنان، لم يكن متصنِّعًا في هيأته، وعجبتُ من أنه يحرص على السلام عليَّ كلما صادفني، لأن بعض الجيران لا يُسلِّمون، حتى إن إحدى الساكنات نظرت إليَّ باستغراب حين حيَّيتها مرة.

ومع مرور الوقت تعرَّفتُ إلى السيدة كاترين مالكة الدار التي يقيم فيها جاري، وهي امرأة بسيطة طيبة تجاوزت الستين من عمرها وتسكن في البناية نفسها، ميَّالة إلى التعارف والحديث، لا تكتفي بالتحية والابتسام بل تبادر بالسؤال عن صحتي وعملي وكيف قضيت يومي، وأحيانًا تدعوني إلى بيتها لتناول فنجان قهوة أو شاي، كانت تسهب في الإطراء على مستأجر بيتها، وتُثني على خلُقه الكريم واحترامه للنساء، وعلمتُ منها أنه عربي يتمتع بشهرة واسعة كنَحَّات، ويقيم معارضه في عواصم كثيرة، وقد حضرْتُ واحدًا منها ودُهشتُ بما أبدعه من منحوتات تكاد تحاكي الواقع في جمالها ودِقَّتها، وحين توقفتُ

طويلًا عند تمثال أعجبني، خطر لي أن وراءه قصة فقلت لأعرض عليه شراءه وكنت واثقة بأنه لن يبيع، وهذا ما حصل فقد اعتذر بلطف وصار يشرح لي ما تعنيه له تلك القطعة الباهرة، قال:

- كيف أتخلى عنها وهي أجمل ما صنعتْ يداي، وفيها اجتمعت أحلى أيامي؟ صاحِبَتُها رحلت ولا أريد أن أفقد صورتها.

مرَّتْ فترة طويلة بدون أن أُصادِفه، وأخبرتني كاترين أنه كان مريضًا وسافر لاستكمال علاجه في أحد المنتجعات.

حين عاد احتفلَتْ بسلامته وَدَعَته إلى العشاء في بيتها، ثم جاءت لتزف إليَّ الخبر وتدعوني كي أشاركهما الأُمسيَّة. كانت فرصة طيبة لتبادل الأحاديث عن فن النحت ومشاهير النحاتين ومعاناتهم، وعن الفن التشكيلي. وأنا كنت مستمعةً لقلة معلوماتي في هذا الشأن، فيما انهمكت كاترين في نقاش مع الفنان عن بعض مدارس الفن، كالمدرسة الكلاسيكية والواقعية والتكعيبية، وعبَّرت عن فهمٍ وتجرِبةٍ، لذلك استغربت من كم معلوماتها، إذ لم تكن تتحدث عن هذا الجانب من شخصيتها. حكت لنا عن موهبتها في الرسم وكيف حالت ظروف عائلتها دون أن تمارس هوايتها فطوتها مع الزمن الصعب بعد وفاة أبيها.

توثقت عَلاقتي بهذه السيدة ذات الإحساس المرهف، وتشكَّلت بيننا صداقة أسعدتني، فقط كنت أخشى على شعورها حين أقطع استغراقها في الحديث، فلو تركتُها

لصادرت كثيرًا من وقتي. وصرتُ -بفضل حكاياتها- أعرف تفاصيل مهمة عما يجري في بيت جاري، وأن أمه ستزوره قريبًا، وأن ذلك قد يضايقه لأنه لا يستطيع أن يستقبل حبيبته طيلة بقائها، وربما أطالت الإقامة عنده.

بعد أشهر من معرفتي بذلك الفنان وتلك السيدة الحنون، اضطررتُ إلى البحث عن دار جديدة لأن المؤجر راغبٌ في بيع داره وأنا لم يكن بوسعي شراؤها. عَزَّت عليَّ الجيرة الطيبة ولكن لم يكن لديَّ خيار.

أطلت عليكم بهذه المقدمة لِمَا سيليها من أخبار ذلك الجار وما آل إليه حاله، ولأني عرفتُ كثيرًا عنه فقد صار يعنيني كأنه من أقربائي...

بعد أن عدتُ من سفري الطويل زرت السيدة كاترين فوجدتها محزونة على غير عادتها. سألتها عن صديقها الفنان فلم تجب لكنها أخرجت أوراقًا من صندوق صغير، وقالت:

- هذا ما وجدتُه في غُرفته، في سلة مهملاته، ولم أكن أعرف ما يجري في غرفته الفسيحة التي جعلها متحفًا صغيرًا لأعماله.

أمسكتُ بالأوراق وصِرتُ أقرأ بصعوبة لِمَا كان في الخط من فتور وانقطاعات غريبة، وها أنا أضع مخطوطة جاري بين يديكم قُرَّائي وقارئاتي:

(من يطرق الباب؟ ليس لي باب إلا في محبسي، في غرفتي هذه، أقسمت بمحبَّتِها ألَّا يدخل داري أحد، فقد محوتُ كل ما يدل على وجودي، وسيطول مقامي في جوارها، علَّها تسمع

نحيبي وهمس رجائي، أعلم أنها لا تريد أن تسمعني أو تراني، وقد أغلقتْ عينيها على دمعة بحجم ذنوبي، لكني جمعتُ كل براءتي وحنيني إليها، تذكَّرتُ حِضنها ورائحة ثوبها، راحتيها المسكونتين بطيب الطعام، بكيتُ جلال صمتها وأسلمتُ روحي لحالة من الضعف والهُزال، فلا أقوى على لقاء كل مَن يحبونني، أصدقائي وصاحبة بيتي الفاضلة التي عرفَتْ أمي وأحبتها يوم اهتدت إلى عنواني، وجاءتني زائرة تحمل عذاب السنين وهي تبحث عني، ولطالما شكَتَ إليها عقوقي ولا مبالاتي، نزق الفن في عروقي، وسياحتي في عوالم لا وقفة فيها لهاتف أو سؤال عنها. لا أطيق رؤيتك يا سيدتي كاترين، مُمتنٌّ لكِ لكني لا أحتمل لومكِ. وأنتَ يا صديقي القريب، اغفر لي وقاحة تجاهلي لطَرقَاتك اللهفى على بابي، ولك أن تطمئن، فأنا لم أمُت بعدُ، فما زلت أستَنْطِق ملامحها، وأخشى أن تفوتني لحظة رضًا منها، تكاد تراني لولا أن يديَّ ارتجفتا حين أبدعتْ عينيها، فأغمضْتُهُمَا؛ أشفقتُ على نفسي من نظرة منها تعاتبني.

آهِ يا أمِّي! يا صرخة الضمير في أعماقي، يا وجعي ودوائي، آهِ من كل ما أنا فيه من تيهٍ! لم يعد يعنيني أي شيء.. نجاحي، شهرتي، حديث الناس عن دماثة خُلقي، حُلو الأمَاسِيِّ والمِلاح، وكل ما كان يُبهجني، فأنا الآن كائن يُصلِّي لينسى تاريخ ميلاده، وُجودَهُ كله.

لم يعد لي غير أمل ورجاء أن تُعِيرني لحظة انتباه، لكنها ما زالت نائمة، متعبة كما كانت في بيتنا القديم، يُرهقها يومها الطويل بين الطبيخ والغسيل، ومَطالب أبي التي لا تنتهي،

وفوق ذلك أطفال يتسلقون صبرها كالقردة، وما إن تميل الشمس عن عرشها وتنعقد خيوط الظلام، حتى تزحف إلى فِراشها غير مصدِّقة أنها سترقد إلى الفجر كي تواصل تعب يوم جديد. سأنام بجانبها، أسمع أنفاسها ويُغريني يقين في أعماق توبتي بأنها راضية عنِّي، ولا ينبض قلبها إلا بمحبتي، أشرُدُ في الخيال وآملُ ألَّا يطرق الباب أحد فيوقظها أو يوقظ سكرة النسيان منِّي.

أجلس عند قدميها، أتأملهما، كم من ملايين الخُطى مشيتِ في مسيرك المحفوف بالأخطار، تحملين الزاد لولدك المناضل خلف القضبان، الحالم بعصر جديد يحكمه الفلاسفة، الخارج بعد حين يباهي بصموده، يحزم حقيبته لسفر طويل، يغيب وينسى وجهكِ ويدكِ المعروقة تمسح عرق جبينكِ، شالك المغبر تعبث به رياح الصيف. لا أعرف كم من الأيام أمضيت جوار قدميها، أتلمس تمثالها الذي سكبتُ فيه بعضَ رُوحي، ورويته بسخِيِّ دمعي، بقيت مخلصًا لسجني حتى تواشج النهار والليل، وطال تكرارهما بدون وعي مني، وقد تسلل الخدر إلى أطرافي، فلم أكن أخرج إلا لجلب قليل من الماء وفقيرِ الزاد، لم أدفع إيجار مسكني، وتكفل أصدقائي بكل أعبائي.

وفي يوم فريد مسَّني وَهْمٌ جميل أغراني بالخروج من غرفتي لغير حاجة، أفقت من ذهولي وكدت أعود لسابق رُشدي لولا أن الهاتف ألَحَّ بالرنين، فكانت أختي على الجانب الآخر، عاجلتني بصرخة وقعت على قلبي كسهم من نار، قالت: «ماذا فعلتَ بأمي؟ لماذا عذبتها وأبكيتها؟ لماذا خيَّبت ظنها؟ كانت سعيدة وهي تتهيأ للسفر إليك، فكيف قابلتها؟ أهملتها وأظهرت

استياءك من فكرة بقائها عندك، كسرت قلبها الضعيف بفرط زهوك بنفسك وأنانيتك؛ عادت إلينا محزونة تكتم الشكوى وتواري دموعها كي لا نلومها. أحبتك أكثر منَّا جميعًا لأنك الصبي الوحيد، والأمل المرُتَجَى، تِهْ في غرورك يا أخي الجاحد وانعَمْ بوَحدَتك».

الصدمة سرقت مني صحوتي، ما قالته صحيح عن أنانيتي وانشغالي، لكن حزني قاطع كالسيف، أشعر بالنزيف في داخلي، بلوعة لا ينطفئ حريقها.

سأعود لغرفتي وأسأل أمِّي هل ندمَتْ على حُبها لي، أنا لا أذكر أني عارضتُ بقاءها عندي، هُراءٌ ما قالته أختي، إنها تغار مني، تبًّا لها!

عُدتُ فوجدت أمي نائمة كحلم جميل يتوسل الصبح أن يتمهل بخطاه، ستجيبني بعد حين مهما طال انتظاري، هي في العين مِنِّي، ولن أكُفَّ عن النظر إليها حتى يسيل الضوء في عينيها.

صمتٌ جليل بوسع الندم ورِقَّة الحنين، يزاحمه فرح غريب خاطف، حملته نسمة عابرة أنعشت صدري المتعب، من أين هبَّت وقد أغلقتُ شُبَّاكي منذ ذلك اليوم؟! لا أعرف كيف امتدت يميني لتفتح الباب الذي أوصدتُهُ بوجه كل مَن يحبني، أتراه الخوف من نهاية وشيكة، وتَوق الروح إلى النجاة، أم هي المحبة التي تصرخ في أعماقي: «كَفَى، لِتَلْقَ أحباءك وتطمئنهم بأنك ما زلت حيًّا، كل ذنبهم أنهم يحبونك، وأنت مَن أنتَ حتى تتركهم نهبًا للقلق؟ فما أدراهم بأنك عبرت أسوار اليقين لتغرق في بحر أحزانك؟ وكيف لهم أن يتخيلوا الساكنة في جوارك

وأنت رهين عزلتك؟ كفاك رحيلًا فلا نهاية لسماواتك غير الجنون، هيا افتح بابك المقدس...».

يدي ترتجف وأوشك على السقوط، الخوف يعصف بي فأعود لها لأتَيَقَّنَ من أن الطَّرقَاتِ المُلِحَّة لم تُفزعها، أراها في نومها العذب، وبسمةُ الأمس على شفتيها، عاتبتني وأسهبت لكنها ألبستني ثوب الرضا ونامت من جديد. غمرتني نشوة خاطفة كأنها عمر جديد، فتحت نافذتي فمسَّني برد طفيف أنعش روحي، وحملها بعيدًا إلى حيث لا أرى أي نهاية).

مرَّتْ الأيام واشتَكَى باب الدار كثرة الطارقين، وتمنى كل طارق لو ينطق بما يخفيه وراءَه، الأصدقاء لم يَمَلُّوا الوقوف وألَحُّوا حتى أطلَّت كاترين بهيأتها الحزينة، وقد تجمدت نظرتها من هول ما رأت، قالت:

– تأخرتم كثيرًا، أعلم أن التعب نال منكم، والآن لم تعد لديه القوة ليمنعكم أن تشاركوه أحزانه.

تردَّدُوا وتباطأت خطواتهم، وبين مصدِّق ومكذِّب لما جال بخواطرهم من خوف ورهبة، كانوا أمام مشهد فيه من الجلال ما يغري بالسجود، وَحدة الموت والحياة، الأمُّ كما أبدعتها يد الفنان كأنها في نوم عميق، والابن جالس عند قدميها وقد انحنى ليُقَبِّلهما فطال انحناؤه، وغارت أنفاسه.

(١٨)

وقفة أخرى مع العابِر

ها أنا أصل إلى نهاية مسيري وراء أخبار سلمى، مُخلصًا في تتبُّعها، باحثًا عن إشارة تدلني عليها ولا أدري هل في مُقبِلِ الأيام فرصة لِلِقاء ما، أم ستبقى صورتها رهن الخاطر.

دعوني أُلخِّص لكم كيف أمضيتُ يومي بعد حديثي معها، وأظنكم تذكُرون كيف كنت مضطربًا يعصف بي التوق إلى النظر إليها، ويخذلني ما رأيتُ في عينيها من ملامة جارحة.

بقيتُ أودِّع آخر خطواتها قبل أن تنعطف إلى شارع فرعي، وكتمتُ رغبة ملِحَّة في أن أتبعها كي لا أصغُر في عينيها أكثر. لاحظتُ أنها تسرع في مسيرها كأنما خمَّنَت ما يجول بخاطري، أو لأنها تريد أن تكتشف ما حلَّ بأوراقها، ولماذا صار ملفها أثقل حملًا، أو في أسوأ الأحوال، كان السرور يعجِّل بخطواتها كي تُنهي قصة المتطفل الذي سطا على أسرارها، وتنسى حتى أنها صادفته يومًا، ذلك أنا مَن ابتُلِيتُ بفكرة وجودها في حياتي، وتوهَّمت بأني أحبها، وقد لا يكون وهمًا، فما زلت أبحث عن المعنى في مسار نظرتها الملغَّزَة.

بعد حين حملتني قدماي وراءها في ذلك الشارع بعد أن تيقَّنتُ من غيابها، وواصلتُ سيري منتشيًا ببقايا من عطرها حملته نُسَيْمات لطيفة.

فرحتُ بما أنجزتُه كما وعدتُ أمِّي وقصدتُ دارها لأُبَشِّرها. بقيت لفترة طويلة أمرُّ في ذلك الشارع الذي شهد لقاءنا الأخير، علَّ الحظ يجمعني بها، أو يتلطف أكثر فيهديني جلسة إلى جانبها في مقهى، أو حتى وقفة وسلامًا، لكن شيئًا من هذا لم يحصل.

تتوالى الأيام مثقلةً بالتكرار والملل، يزيد عليها ما أصابني من جزع لفقدان صديق عزيز في بغداد حُكم عليه بالإعدام. كأن هذا لا يكفي لتبدأ أمِّي محاولات جديدة لإقناعي بالعودة إلى زوجتي وابنة خالتي، مع أني قلت لها مرارًا إن انفصالنا كان عن اتفاق، وإنه لا جدوى من العودة.

يقصر النهار شتاءً في هذه البلاد، والغيم نادرًا ما يفارق سماءها، فتكتمل لوحة الكآبة بليل تطول ساعاته وترهقني بهدوئها الرتيب، إلا من هاتف من ولدي يُؤنس وحشتي ويتمنى لي نومًا هانئًا.

بَشَّار كائن لطيف مزروع في قلبي، يختصر كثيرًا من ضجري، يجعل لحياتي معنى ويمنحني بعض السرور. لست سعيدًا ولا مقتنعًا بعملي، ولولا ولدي لذهبت إلى عُمان، فلي صديق هناك يلِحُّ عليَّ كي أنضم إليه وأعمل في الشركة التي تعاقد معها. ساعة الأيام تسرع بوتيرة لم أعتدها، فينجلي شهر نوفمبر

ويأخذ معه رياحه الباردة ورماد غيومه.

اليوم أول ديسمبر، شهر المسرَّات والأنوار، وُعودٌ صارت تموج بخاطري، وشيء من الفرح يعتادني كنسمة تداعب غصنًا مائلًا، ما الذي يجري في أعماقي؟ ما السر في خفقات الفؤاد؟ وهل من سبيل إليها بعد أن مضت شهور كادت تأخذ مني ملامحها لولا أن صوتها الواهن ما زال يسكن مسمعي كنغمة ناي حزينة، ويدي ما انفكت تُذكِّرني بلمسة يدها يوم توادعنا؟ غريب كل ما أحسست به حيالها، ليس كما قال أمل دنقل: (أحسُّ حيالَ عينيكِ بشيء داخلي يبكي، أحسُّ خطيئة الماضي تعرّت بين كفيكِ...)، لا يا شاعر الحنين، فما أصابني مختلف، فأنا مذ رأيت عينيها صار لي قلب يغني، أسأل نفسي «لماذا كل هذا التعلق؟» فلا ترسل جوابًا غير ومضة خاطر.

تطوُّر جديد في عملي جعلني أكثر حيويةً وثقة، ذلك أن مدير القسم الذي أعمل فيه، الرجل الفظ المتعجرف، أُقيل من منصبه لتسبُّبه في خسارة كبيرة للشركة. وتسلَّم الإدارة بعده آخر كُفْء، منح كل الموظفين ما يستحقونه من اهتمام، وأصلح ما أفسده سلفه، وبذلك توفرت لي فرصة لتقديم أفضل ما عندي.

وذات مساء دعتني زميلتي «ديانا» إلى مرافقتها إلى حفل موسيقي، لتعبِّر لي عن امتنانها لما قدَّمتُهُ لها من مساعدة في عملها. لاحظت منها نظرة ودٍّ خجولة، تواريها كلما أحسَّت بانتباهي لها، فسَّرتُ ذلك ببساطةِ مَن لا يريد أن يفهم، وكنت أرتاح لصُحبتها بلا أي رغبة في التقدُّم ولو خطوة واحدة.

في تلك الأُمسيَّة الفريدة وفيما كنت أُفتِّش بين الحاضرات عن سلمى -كعادتي في كل جمع- غمرني إحساس بهيج من الدهشة، حتى ظننتُ أن عينيَّ اتَّسعتا لتُبصرا العالم بأسره، ها هي أمامي وبجانبها شاب بهيُّ الطلعة، يصغرها بسنوات ليست قليلة. يا للحظ العاثر! تبدو على غير ما عرفتها، أتراه حبيبها وقد أصلح ما في نفسها من صدوع فما عادت تأسى على ماضيها؟ ربما، وأنا الغافل مشغول بها، على كل حال سأواصل النظر إليهما عَلَّها تلتفت إلى حائر يرنو إليها.

وما هي إلا دقائق حتى تحقَّق ما رجوتُ، فقد تركتْ مقعدها وصارت تبحث عن شيء ربما سقط منها، ثم التفتت باتجاهي فالتقت عيوننا، ويا له من لقاء تداعى له كل كِياني، ولم أعد أشعر على أي أرض أقف!

لم تكن بعيدة، ما سهَّل عليها تبيُّنَ ملامحي، ابتسمت بعذوبة ورسمت إشارة السلام. آهٍ من القلب حين تسرع دقاته ويُذيبه شوق إلى القرب كيفما جاء. ما عادت جفوني ترفُّ خشية أن تضيع مني التفاتة أخرى.

لاحظَتْ ديانا ما اعتراني، أو ربما كانت تراقبني، فسألَتْ بفضول:

- هل تعرفها؟

استأتُ من سؤالها ولم أجب مكتفيًا بهزة من رأسي.

بدأت العازفات يأخذن مكانهنَّ، والعازفون، كلهم في حُلَلٍ زرقاء باهية موشاة بمطرزات ذهبية على الصدور والأكمام،

وها هو نجم الحفل سامي يوسف يطل علينا بزيِّه الخمري وابتسامته اللطيفة، كنت متشوقًا إلى سماعه، وأنا ممتنٌّ لزميلتي لاختيارها هذا، وقد ظننت في البداية أنها دعتني لنستمع إلى موسيقا موزارت أو فيفالدي، وهما المفضلان لديها. سألتها: «هل تروقك الألحان الشرقية؟»، فأجابت بأنها تسكن بجوار سيدة من أذربيجان، تعيش وحيدة إلا من صوتها الذي يصدح أحيانًا بأغنيات تحمل مَن يصغي إلى أنغامها على التأمل في الحياة، فيها شيء من الحزن ورائحة أرض بعيدة، لا يعرفها سوى من فارقوا أوطانهم، «هكذا كانت تقول جارتي برلنت، وفي بيتها استمعت إلى سامي يوسف، وقد أهدتني بعض تسجيلاته».

ساد صمت مهيب وبدأت رحلة الأصوات في انسجامها البديع، شعرت حينها بأن روح الألحان تخفق بجناحيها وتُحيل المكان إلى سماءٍ تفيض منها الأنوار. لا أدري هل كان هذا لإحساسي بحضور سلمى، أم لرقة الشدو وتناغم العازفين والعازفات. لم أكُفَّ عن الالتفات صوبها، حتى شعرتُ بثقل رأسي فاستدرت إلى جهة مرافقتي لأجدها تبتسم بشيء من الإشفاق والسخرية المهذبة.

يقترب الحفل من نهايته، وتسرع دقَّات قلبي، خشيت أن تغادر سلمى قبل أن تتوفر لي فرصة الحديث معها، ومعرفة من يكون الذي معها، بدا عليَّ اضطراب كالذي يعتري مراهقًا يصادف فتاة لأول مرة، وأسرعتُ المرور بين حشد الحضور، غير مبالٍ باعتراضاتهم، حتى وصلتُ إليها، وبهيئةٍ تغلب عليها

سكينة من ينتظر قرارًا يفصل في مصيره، مسحتُ العرق عن جبيني، وحيَّيتها بصوت واهن، فيما كانت تمُّد يدها لتصافحني وهي تتمعن في ملامحي المضطربة. ابتسامتها الخالية من أي تصنُّع طمأنتني وأطلقت لساني بسؤال لا يحتمل التأجيل:

– أين الشاب الذي كان معكِ؟

أجابتْ بسؤالٍ مُقابل:

– وأين الشابة التي جلستْ بجوارك؟

تلاقى السؤالان وتأخَّر الرد، حتى قالت:

– اذهب وابحث عن صديقتك، رأيتها تغادر، وعُد لأجيبك عما سألت.

وفعلًا لحقتُ بزميلتي لأعتذر إليها، لكنها لوَّحت لي من بعيد، وأشارت إلى ساعتها، ذلك أن أباها كان بانتظارها عند محطة القطار.

عُدتُ لسلمى يحملني الفرح للقائها، والخجل من ديانا التي انشغلتُ عنها. غمرتني دهشة مُحَبَّبة لما أبدته من حفاوة بي إلى حد أنها دعتني إلى العشاء في مطعم قريب، يبدو أن مرافقها سبقها إليه ليحجز طاولة، فقبل أن نصل اتَّصلت به وقالت:

– احجز لثلاثة، معي ضيف.

جلستُ مقابلها كطفلٍ يشعر بالامتنان لأمه لأنها اصطحبته إلى السينما أو مدينة الألعاب، ولو كانت معي مرآة لرأيتُ أن ابتسامة عريضة ظلت مرسومة على وجهي، ولم أنتبه إلا حينما

أحسستُ بتعب في طرفَيْ فمي، فيما كانت سلمى تسألني عن طبقي المفضل، ولما لَم أجب، أعادت السؤال، وضحكَتْ بصوتٍ عالٍ:

– هل تبتسم دائمًا؟ يا لك من سعيد!

ارتبكتُ، لكني استعدتُ توازني بعد أن عرفتُ أن الشاب الجميل هو ابنها، عرفت ذلك حين قال: (آسف يا أمي لن أبقى معكما، صديقتي تنتظرني)، ثم سلَّمَ عليَّ وغاب مسرعًا.

تركنا غير مأسوف على مغادرته، فأنا تمنيتُ أن أراها وحدها، لم أكن أشعر بالجوع، بل بالظمأ لحديثها، وأتطلع إلى رأيها في شخصي، بعد أن اطَّلعَتْ على ما بذلتُهُ من مجهود لإخراج التفاصيل من يوميَّاتها المبعثرة.

يبدو أنني مغرور، لستُ أنا من كتَبَهَا، ولو عرفَتْ بما يجول بخاطري، لأخرجَتْ محفظتها وأعطتني مقابل ما صحَّحتُ ورتَّبتُ.

نسيتُ أن أخبركم بأني حين سلَّمتها «الأمانة»، كانت مرفَقَة برسالة اعتذار، شرحتُ فيها دواعي احتفاظي بأوراقها، وكيف كنتُ أمينًا عليها لا سارقًا كما قالت في عتابها الجارح. وها أنا أنقل لكُنَّ ولكُمْ سطورًا من بدايتها:

(عزيزتي سلمى، اسمحي لي أن أُخاطبكِ بهذا الاسم، لأني لا أعرف غيره، وقد أحببتُه لطول ما انشغلت بصاحبته، لا أشكُّ في أنك ستذكُرينني لما سبَّبتُه لكِ من أذى، لكن رجائي ألَّا تضعيني على الرفوف المهجورة من ذاكرتك، تعلَّقتُ بكِ

تعلُقًا ربما تحسبينَه أشبه بوهمٍ عارض، لكنه حقيقي وصادق، ولا أبالغ إن قلتُ إنك أهديتِني أوقاتًا سعيدة حين سافرتُ مع كلماتك إلى حيث كنتِ طفلة وصبيةً وامرأة، كما منحتِنِي فرصة لأستعيد نشوة الخيال التي فارقتني طويلًا، تخيلتُ حديثًا جرى بيننا، خلافًا واتفاقًا ورحلة اكتشاف ممتعة جعلتني أعود لنظم الشعر، وإن قال عنه بعض أصحابي ما لا يسرُّني. أحببتكِ! ستعجبين وتسألين: «لماذا؟»، فأقول: «لا أدري، ليتني أراك ثانيةً فأعرف أي سرٍّ فيكِ»).

كانت تصغي إليَّ بطريقة ودودة، تُوحي بالرضا، ما دعاني إلى الثبات في مكاني، ونزع التكلُّف عن هيأتي، فما أشعر به نحوها حقيقي وصادق في دوامه، سألتها بلا تفكير:

– لماذا دعوتِنِي إلى هذه الأمسيَّة؟ لا بُدَّ أني لم أعُد لصًّا كما وصفْتِنِي ذات يوم، وسلبْتِنِي حلو المنام لياليَ لم أُحصِها.

أجابتني وقد عاودتها ابتسامة حزينة:

– أنا مُمتنَّة لك، وآسفة لأني سمحتُ لغضبي أن يسبقني إليك، فقلتُ ما قلت، أنت نبيل ولست سارقًا، فاللص هو من يحتفظ بملك غيره، لا من يحفظه ويتعب في إصلاحه. أشكرك من كل قلبي.

لم أُصدِّق! واستعدتُ موقفي أمامها قبل أشهرٍ حين خاطبتني والأسى في عينيها: (لقد آذيتَنِي)، يومها بكيتُ وعاودتني كل أحزاني. كنتُ آمل أن تغفر لي فقط، فإذا بها تُثني على صنيعي، يا لجميل خُلقها!

أطلتُ النظر إليها من دون حرج، وطار من فمي سؤال:

- هل تلومينني لأني قلتُ (أحببتُكِ)؟

لم تجب ولم تعبِّر ملامحها عن استغراب أو نُكران.

كان النادل قد أقبل بوجبتينا فسكت الكلام ليمنحني فرصة التقاط أنفاسي بانتظار الجواب.

قالت بنبرة منغَّمة:

- لا أظن أن اسمك «عابر»، يهمني أن أعرفك، مَنْ أنت؟

أسعدني سؤالها، وحسبتُه ردًّا على ما بُحتُ به لها في رسالتي، يا لي من شاب يثير الاهتمام! أجبتُها:

- أنا «وضَّاح»، هكذا سمَّتني أمِّي مدرسة اللغة العربية، تيمُّنًا باسم الشاعر العاشق «وضَّاح اليمن»، ذي الوجه الصبوح، كانت متفائلة بأن ابنها سيحظى بالمعجبات لحُسنه.

رمقتني بنظرة آسرة، وقالت:

- وما الخطأ في تفاؤلها؟ أنت كذلك، لكنك لا تدري.

شكرتُها وأنا أشعر بخجلِ مُراهقٍ مسَّه غزل رقيق، واحتارت الكلمات على شفتَيَّ فسادَ صمت للحظات، حتى قالت:

- كلمة (أحببتُكِ) كما قلتَها ببساطة، لا تستدعي العجب، لكن ليس قبل أن تعرفني. تحدَّث ولا تختصر، فكما قرأتَ أوراقي وبحثتَ عنِّي بين سطورها، دعني أراك كما أنت، تبدو صادقًا في ملامحك ونبرة صوتك، فماذا عن شخصك غير ما أخبرني به عابر السبيل؟

فكرتُ أن أقول لها كل شيء، لكني تريَّثتُ كي لا أبدو متهافتًا، وحتى تتكرر لقاءاتنا وأجد مادة للحديث. قلتُ:

– أعيش هنا منذ سنوات، وأعمل محاسبًا في شركة للمواد الغذائية. تركتُ العراق بعد نهاية حرب الثمانينيات، وقد فُجعت بإعدام أحد أقربائي، وتعرضتُ لضغوط كبيرة من رئيسي في العمل، كي أنتمي إلى «حزب البعث»، زادت مخاوفي، وبدعم من أخي الكبير استطعتُ تدبير مغادرتي بسلام. لم أكن منتميًا ولا مقتنعًا بأي حزب، وكنتُ أستمع باهتمام إلى أحاديث أبي عن الحزب الوطني الديمقراطي وعن الأجواء السياسية في فترة العهد الملكي وبدايات الجمهورية، كان يسخر من البعثيين ومن شعارهم «أُمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، يتساءل عن أي أُمة يتحدثون، ومَن أكثر منهم تدميرًا للأمة المزعومة! ولم يستَثنِ الشيوعيين من سيف لسانه، مع أن له أصدقاء مقربين منهم، فهو لم يقتنع باتِّفاق الجبهة الوطنية الذي جمعهم مع أضدادهم، وفسَّره بذائقته القانونية، بأنه عقد إذعان سيعقُبه إعصار يطيح بالحزب الشيوعي، ذلك أن قيادته لم تمتلك الوعي المطلوب للتفرقة بين العلنية والشرعية، فكشفت كثيرًا من تنظيماتها وكوادرها، ما أفقدها القدرة على حمايتهم من مكر النظام.

كان بوسعي أن أُطيل الكلام عن أبي الذي رحل قبل مغادرتي بغداد، لكني انتبهتُ لنظرة سلمى وقد خالطها شيءٌ من عدم التركيز والتساؤل، فما كانت تنتظر مني حديثًا في السياسة، وربما تصوَّرَتْ أني أهرب من تقديم أوراق اعتمادي!

سألتْني عن ذكرياتي في بغداد، عن ظلالٍ من حبٍّ أو تعلُّقٍ قديمٍ، عما أفتقده هنا، وما أتمناه، عن عائلتي وعَلاقتي بولدي، فأجبتُها بكل ما عندي من صدق، قلتُ:

– ما أفتقده هو الحب الحقيقي، فيما مضى، خُيِّلَ إليَّ أني وجدته كطائر حلَّقَ ذات يوم فوق شرفة جارتي، حين رمت إليَّ بورقة ملونة، كتبت فيها كلمة واحدة: «أحبكَ». وأنا أحببتها، تواعدنا ودام مسير الوعد أعوامًا تجمَّع فيها السرور ألوانًا، حتى ظننَّا بأن السعادة مِلك أيدينا، وما حسبنا للطارئات حسابًا. وفي يوم تكاثرت غيومه واستبدت رياحه، افتقدتُ إطلالة نوال وطال انتظاري، لكنها لم تظهر فقلت في نفسي ربما سافرت مع عائلتها. لكن شيئًا من الخوف انتابني في صباح الغد فقصدتُ دارها، لاحظتُ ستائر غرفة الطعام مُشرَعة، وقد صُفَّت الأطباق عليها، والزاد على حاله لم يمسَسْهُ أحد، سألت الجيران والبقال فلم يجبني أحد، كررت السؤال فراعني صمت الوجوه ورهبة العيون الخائفة. حملت خيبتي وقصدت بيتي ففوجئت بامرأة طاعنة في السنِّ زال عنها الإحساس بعالَمِ الحذرِ، صاحت بصوت غير هيَّاب: «اللعنة على الظالمين! أخذوهم إلى حتفهم. الله معكِ يا أم سعد يا جارة العمر...». انعقد لساني وبقيت حينًا بلا حراك، وتذكَّرتُ سَعدًا شقيقَ وفاء، وأشفقت عليه مما سيلقاه في محبسه. انتبهت لمجموعة من رجال الأمن يجوبون الشارع فواصلت مسيري مسرعًا على غير هدى، مرتعدًا كأن يدًا ثقيلةً أجهزت على كتفي الضامرة، ولا أدري كيف وصلت إلى داري، وكم مرةً

درت حوله ولم أهتدِ إلى عتبته. بقيت أيامًا لا أكلم أحدًا، أتوسل دمعة تسكب أحزاني وتريحني، حاولَتْ والدتي أن تخرجني من حالة القنوط والصمت، فصارت تحدِّثني عما شاهدَتْهُ يوم داهمَتْ عناصرُ من قوات الأمن دار نوال، وكيف أخرجوها وكل أفراد عائلتها بكل غلظة، واقتادوهم كأنهم مجرمون، قالوا عنهم إنهم «تبعية» ولم أكن أعرف حينذاك ماذا تعني تلك الكلمة. رجتني أن أخرج عن صمتي، أن أصرخ، أبكي، أكسر طوق الصمت. قالت مواسية: (كم تمنيتُ أن أفرح بخطبتك لنوال فقد أحببتُها كابنتي، وكم يوجعني غياب جيران العمر! لستَ وحدكَ فالوجع يسري بيننا، وأخشى أن تكون المقبلات من الأيام أقسى وأمَرَّ. فلتكن قويًّا يا ولدي...). كلمات والدتي كانت بلسمًا لجفاف روحي، بكيت بحرقة وارتميت في حضنها.

بدت سلمى في غاية التأثر وسألتني:

- ألم تبحث عنها؟

- فعلتُ ولم أهتدِ إلى خبر إلا بعد سنوات طوال حين عرفتُ بما حلَّ بعائلتها وهي تجتاز حدود الوطن المنكوب، وتعبُر أرضًا مجهولة تُدعى «سربيل زهاب» مزروعة بالألغام، احتلَّها الجيش العراقي في حربه مع إيران. خطف الموت نوال، فيما نجت أمها وأختها الصغرى، ولم يُعرف مصير شقيقها، أما أبوها فقد عجز عن مواصلة المسير بعد دفن ابنته في تلك البقعة الموحشة.

انتبهتُ لغيمة الحزن التي نشرتُها فوق لقائنا الذي انتظرتُهُ طويلًا، فاعتذرت إلى سلمى وسكتُّ للحظات، فإذا بها تفاجئني وتشدُّ على يدي قائلةً:

– لماذا تعتذر؟ أحترم حزنك وانتظارك، والكلام عن عذاباتنا يريحنا، ولكن قل لي، كيف نجوت من اليأس وروضت آلامك؟

– الفضل يعود لأمي التي حاولَتْ أن تكون طبيبة، فَدَاوتني بعقار تجيد الأمهات صناعته، حاصرتني بفكرة الزواج، وصرفَتْ كل ما عندها لتساعد ابنة أختها كي تغادر العراق، وحين وصلت وجدتُها شابة جميلة ذات جاذبية وشخصية واثقة، لم أكن أنتبه لها في زياراتي إلى بيت خالتي؛ كانت خجولة تكتفي بالسلام عليَّ ثم تنزوي في غرفتها. التقينا وصرنا نستعيد ذكريات طفولتنا لأكتشف أنها كانت تحبني، أمّي لم تترك وسيلة لتحثني على الاقتراب منها، والاعتناء بها، وأنا لم أتردَّد وكانت النتيجة أن اقتربنا أكثر فأكثر، ووصلنا إلى وضع لا يحتمل غير الزواج، اندفعنا بسبب قِلَّةِ تجربتنا، وعنِّي.. كنت أَنشُدُ النسيان، وأتعلق بشيء من السعادة.

ظلَّتْ سلمى تتابعني بإصغاء يشوبه حزن دفين، وحين توقفتُ للحظات، قالت: (أكمل)، فعاودتُ الحديث، مستذكرًا مَشاهدَ عَصِيَّة على النسيان:

– ذات مساء من أواخر الصيف جادَ عليَّ صديق ببيته، فكانت ساعة سَعد جمعتني بنوال، لأول مرة بعيدًا عن عيون الرقيب، كنا نلتقي دائمًا تحت خيمة العائلة فلا نملك أن نبث أشواقنا، ولا أن نستجيب لهمسات إحساسنا. وشاء لنا الحظ أن ننعم بفرصة أخرى فقد سافر صديقي لبضعة أيام واستودعني بيته الصغير. كثيرة هي ومضات الذكرى، وكم يسعدني أن أحظى بمُستمِعَة مثلك.

مرَّ وقت طويل قبل أن أنتبه لأن الساعة قاربتْ منتصف الليل، حينها أدركتُ كم أنا منشغل بالماضي، وكم تماديتُ في استعادة صُوَره، مع أنني في الواقع غارق في صورة هذه المرأة التي منحتني وقتها وأصغت إليَّ مِن دون أي بادرة ملل، بل إنها ألهمتني شعورًا بأنها تهواني، فحين أرسلَتْ شعاعًا من لِحاظها قبل أن تتهيأ لوداعي، قالت كلماتٍ عادية، لكن عينيها قالتا شيئًا آخر لا يصل إليه خيال تُرجُمان.

تساءلتُ في سِرِّي (هل نترك المصادفة لتجمعنا ثانيةً، أم أتجرَّأ وأدعوها للقاء جديد؟)... لم أنتظر لعبة الخاطر وسألتُها:

– هل من لقاء في مُقبِل الأيام؟ أريد أن أسمع منكِ، أن أَعرفكِ أكثر مما قالت سطورك التي حفظتُها.

تبسَّمَتْ ولم تحدِّد موعدًا، بل ناولتني ورقة كتبَتْ عليها عنوان مَقهاها المفضل، ورقم هاتفها، ثم قالت:

– اتَّصِل في أي وقت تشاء.

ويا لغفلة فؤادي المضطرب فلم أكتب لها رقم هاتفي.

فاض السرور في قلبي وخِلْتُها آخر كلمة منها قبل أن تودِّعني، لكنها أضافت بنبرة مَرِحة:

– قَبل أن نفترق عليك أن تُخرِجني من «أوراق سلمى»، فأنا أُوشك أن أُودِّع أمسي، فقد تعبت من الذكريات، أنا الحاضر الآن وفي قلبي جَذْوة أمل أحاول أن أُبقيها في اشتعال، أنا «دُنيا» كما أرادت عَمَّتي أن تسمِّيَني وما وافق أبي، ألا تعرف ماذا تعني هذه الكلمة في قاموسها؟

– كيف لي أن أعرف؟

قالت وقد راقَ صوتُها وأصابني منه بعض الحنين:

– إنها «المَحَبَّة»، كانت تقول عن كل مُحِبٍّ أو مُحِبَّة أن لديهما دُنيا...

تجرأتُ وسألتُها وأنا أتابع ملامح الشوق في عينيها:

– هل تعذرينني لو قلتُ إني وجدتُ دُنيايَ بالقرب منكِ؟

– تَريَّث، ما زال الصبح في أوَّلِهِ، دعنا نعِش أوقاتًا سعيدة فأنا كلمةٌ بين «دنيا» تمنيتُها، و«سلمى» عِشتُها.

لم أتوقف عند عبارتها، وتمسكتُ بِاسمها الذي أشرق في خاطري، ولم أسأل نفسي: هل تَراني «عابرًا» كما هو اسمي المستعار؟ كل ما بَلَغَني أنها منجذبة إليَّ.

غادرتُها وفي نفسي بهجة بلغت مَداها، ففي تلك الليلة رأيتُ أقمارًا في سماء غائمة، وسمعتُ همس الأنغام من عهد بعيد، روح لطيفة حلَّت في كِياني، حملتني إلى حيث لا أدري فكِدتُ أطير وإذا بي أسقط على حافة نهر، ويا للحظِّ حين يُنْتَشَلُ أمثالي من الحالمين؛ كان أحد السكارى يسير خلفي، وحين رآني أُوشك على الغرق، أطلق صرخة أيقظتني فصحوتُ، وأدركتُ كم تأخر بي الوقت وأنا أسير في شوارع خالية إلا من دهشتي بلقائها واستجابتها.

لا بُدَّ أني أسرفتُ في الشراب، وإلا لما كان في وسعي أن أُحدِّث سلمى بكل تلك السلاسة. على كل حال لن أكرر هذا المشهد، أريد أن أعيش تجرِبتي الأجمل معها، بكل ما فيها من

غموض وفرح وترقُّب. في الغد عَليَّ أن أعتذر إلى زميلتي ديانا وأؤكد لها أنني لم أتعمد إهمالها بالأمس، بل كنت أسيرًا لشوقٍ لم أستطع مقاومته، صداقتي معها تهمني، وأتمنى أن تغفر لي سلوكي الأخرق.

هكذا فعلتُ، وانتقيتُ من لغة الاعتذار أكثرَهَا تودّدًا، لكن ملامحها لم تفصح عن رضًا، بل قبول على مضض لما بيننا من احترام والتزامات عمل. أحسست حينها بوخزةِ مَلامة، وتخيلت حالي لو أن سلمى لم تنتبه لانشغالي بها، ومضت من دون أن تلتفت!

هنا لا بُدَّ أن أذكُر أن ديانا مثقفة من طراز رفيع، فقد اعتادت أن تتحدَّث عن رأيها، من دون أن تسبغ عليه لُغة الحقيقة، أو تدَّعي اكتشاف ما لا يعرفه أحد، كما يفعل زميلنا ثَامِر الذي يُتحفنا كل يوم بنظرياته الخرافية. تفاجئني دائمًا بِسِعة أفقها، وتَنوُّع معارفها، ما يجعلني أشعر بالحرج أمامها أحيانًا، مع أني قارئ جيد، ومكتبتي غنية، لكني غير مثابر ولا أقوى على متابعة الموضوع حتى نهايته.

هنا لا مفرَّ من التصريح بشيء عن شخصيتي، وهو أني أشعر بصعوبة التعامل مِن قُربٍ مع أي امرأة مثقفة، ربما هي عقدة من طفولتي، فقد كنت ميَّالًا إلى أبي، وأذكُر أنه كان يعاني من تسلُّطَ أمي التي اعتادت معايرته بأنه لا يحمل شهادة جامعية، وبأن ثقافته محدودة، والحقيقة غير ما كانت تدَّعي، فأبي واسع المعرفة والأفق، أكبر أخطائه أنه كان متسامحًا أكثر مما يجب. لذلك لم أتقبل فكرة القرب من ديانا، حتى لو لم أكن مولعًا

بامرأة أخرى، وأحسب أن سرَّ انشغالي بسلمى أنني لم أعرف شيئًا عن شخصيتها الحقيقية، انجذبتُ إلى حُسنها وتابعتُ أوتار حزنها، خمَّنْتُ أنها تحتاج إلى قلب يستوعبها، وإلى يَدٍ تشدُّ على يدِها، وبهذا الإحساس تولَّد عندي يقين بأنها تحتاج إليَّ، شعور بالهيمنة يأخذني إليها... فهل هي حقًّا هكذا؟

(١٩)

في بيت سلمى

مرَّتْ أيامٌ طويلة انشغلتُ خلالها بمرض والدتي فلم أفكِّر في السؤال عن سلمى، وهي لا تعرف رقم هاتفي، فقد أعمتني دهشتي بلقائها عن أن أكتبه لها كما فعلَتْ. وما إن صفا بالي حتى هاتفتُها مرارًا وفي أوقات مختلفة لكنها لم تُجِب.

وبينما أنا أفكر فيها، تذكَّرتُ مقهاها المفضل، ذلك الركن الساحر في بساطته وما يمنحه للنفس من هدوء وأمل متواضع، توجهتُ إلى مكانه وقرَّرتُ أن أنتظر طويلًا حتى يغلق أبوابه، الكل هناك يعرفني لكثرة ما تردَّدتُ عليه، شربتُ وأكلتُ ومللتُ، حتى وصل مؤشر الساعة إلى السادسة، وأحسستُ بوجع في ساقيَّ من طول الجلوس... وإذا بها تطلُّ وتشرق بابتسامة عذبة حَالَ ما رأتني.

أقبلَتْ ومدَّت يدها لتصافحني، لكني لم أحتمل شدَّة سروري وما شعرت به من عنفوان الشوق، عانقتُها وأَطَلْتُ، لم أُصدِّق أنها سكنت بين ذراعَيَّ لثوانٍ ليست قليلة، خطفةٌ من السعادة لا مثيل لها.

جلسَتْ تحدِّق في عينيَّ وتتساءل بصمت «ماذا فعلتَ أيُّها

العابرُ الجَسورُ!»، بريق عينيها يزيد من تولُّهِي، يدفعني إلى تخيُّل حالة من الهُيام يحيلها إلى جزء مني، يذيبها في كِياني، أتوغَّل في ذاتي فأصحو على كلمة حلوة منها، وابتسامة ماكرة:

– أحببتُ جرأتك، وأحسب أنك اتَّصلتَ كثيرًا ولم تجدني، فقد ضيَّعتُ هاتفي.

– كنتُ واثقًا أني سألقاكِ هنا، لكن من سوء حظي أن المقهى سيُغلق بعد قليل.

– وهل أقْفَرَتِ المدينة؟ لنذهب إلى مكان آخر.

يا لها من سعادة وأنا أسير بقربها وتكاد كتفي تلامس كتفها! سألتُها:

– إلى أين المسير؟

– إلى بيتي.

حقًّا أم أنا أحلم؟! هل أصبحتُ مقبولًا لديها إلى هذا الحد؟! حلَّق بي الخيال وأمَّلت نفسي؛ إذًا هذه ليلتي، سأبلُغُ المنتهى، وستكون لي.

قطعَتْ عليَّ شرودي وقالت:

– لا بُدَّ أنك مرهقٌ مثلي من تعب النهار والانتظار.

– أنا كنتُ أنتظركِ، فَمَن كنتِ تنتظرين؟

– صديقةً ودَّعتُها في المطار، تأخرَتْ طائرتها فبقيتُ معها حتى سافرت، ولولا أني نسيتُ كتابي هنا لما رأيتك.

عدتُ إلى شرودي وانهالت عليَّ توقعات شتّى تشبه انتظار المطر في صيف حارق، ناورتُ بين الاحتمالات، وتيقنتُ من

الفوز بما أتمناه، وفجأة تغيَّرتْ الرياح وانخَذَلَ شراعي، فها نحن أمام دار سلمى، تقرع جرس الباب فيفتح لنا ابنها هاني، ويستقبلني بترحيبٍ طُفُولي جعلني ألوم نفسي لأني استغرقتُ في خيالٍ متهافت لا يرقى إلى نُبل إحساسي بأُمِّه، غير أني بقيتُ مبهورًا بفكرة وجودي في بيتها، متعة اللقاء وانسياب الأحاديث، والموسيقا النادرة المنبعثة من تحفة الفونوغراف، ويا لها من أنغام تثير ما في الفؤاد من هوى وشكوى وأنين، حين يشدو سيد درويش: (أنا هويت وانتهيت، وليه بقى لوم العذول، يحب إني أقول يا ريت الحب دا عني يزول...)، كنت أستمع وأردد في سري «كيف يزول عني هواها؟»، لم أنتبه لحركة شفتيَّ وربما لاحظت سلمى ما اعتراني، عيناي تعلَّقتا بقُرص الغرامافون الأسود، كان يدور وتدور في رأسي الرُّؤى ويلمع البوق الذهبي فوق صندوقه المسحور، تُرى كم يخبئ من أسرار العاشقين؟ وكم يبثُّ منها؟

سِحر اللقاء أخذني فنسيتُ قصة السيد ريتشارد الذي أهدى سلمى هذا الجهاز كما أخبرني هاني، ولم أذكُر ما سطَّرته حبيبتي في يوميَّاتها عنه، قد يكون صديقًا للعائلة، وحتى لو كان معجبًا بها فلن يهمني أمره، المهم أنها تحبني.

مضتْ ثلاث ساعات، تناولنا خلالها عشاءً خفيفًا مع قارورة نبيذ، لم تكفِنا فطلبنا أختها، وثالثة أخرى، حتى ثملنا وطاب مجلسنا بعد أن استأذنَنَا هاني ليذهب إلى سهرة مع أصدقائه.

حديثنا صار أكثر صمتًا، وفيما أنا غارق في ضياء عينيها، ونظراتها تتلوَّن وتُحيِّرني، تذكَّرتُ أغنية لفيروز، ردَّدتها بهدوء

بهيج، بعد أن دنوتُ منها: (لشو الحكي، طالل علينا قمر، خلي النظر للنظر يشرح هواه ويشتكي...)، غنَّتها معي حتى أخرها فتعب النظر منها ومِنِّي ومالت نحوي لتستريح على كتفي، لكنها أضرمتْ نارًا في داخلي ما عرفتُ كيف أطفئها. أشعر بأنفاسها تُجيب دقَّات قلبي المسرع، ويغمرني فرحٌ بالقرب فلا أبالي باشتعالي.

بقيتُ ساكنًا كي لا أُوقظها، حتى غلبني النعاس، وما صحوتُ إلا وقد طلع النهار ولامس ظلَّ ابتسامة على وجهها الصبوح. يبدو أن التعب قد نال من شوقها إليَّ، فيومُها كان مرهِقًا فعلًا، هذا ما عرفتُهُ بعد حين، فصديقتها التي ودَّعَتْها كانت ذاهبة لعلاج مرض خبيث، وقد بكتْ كثيرًا خوفًا عليها، فكان لقائي بها في ذلك اليوم خير سلوى.

تأملتُ حالة العشق بيننا وعتبتُ على الزمان، فلو كانت في عشرينياتها، هل كانت ستغفو وتتركني أتلظَّى باشتياقي؟ تجاهلتُ كم أفنيتُ من السنوات وزاد عتبي عليها. وضعتُ رأسها على الوسادة وغطيتها بِشالها الخمري، ثم وجدت نفسي أنحني وأُقَبِّلها مِن دون تحكُّم من إرادة كأني سائر في حلم.

غادرتُ وفي نفسي تتزاحم مشاعر متناقضة، تناهبتني وجعلتني أنفصل عن ذاتي المشتاقة الوَلهى، وهجُ الشوق لم ينطفئ، بل صار أكثر صفاءً، وأدركتُ كم هي المسافة طويلة بين الرغبة العاصفة وحالة الحُب.

سؤال وقحٌ قطع عليَّ هدوئي: بماذا كنت سأشعر لو أني فزتُ بجسدها، وقضيت معها ليلة مكتملة مُشبِعة؟ هل

كانت ستبقى في سقف الأماني؟ وما الذي تعنيه ذروة القُرب حين يضعف الاختيار؟ كلانا بعثرتهُ الخمرة ودارت بنا دورتها اللذيذة، عن نفسي رأيت الثريَّا فوق رأسي، تتناسل أضواؤها وتنزل على الأرض، تفرشها وتُشيع الدِّفء في كل ناحية، وهي سألتني بلهجة واثقة: «هل رأيتَ القمر مكتملًا؟ أنا أراه يتسلَّل من خلف النافذة»، وبالطبع لم يكن هناك قمر، بل نور الشارع يتراقص خلف الستارة الشفَّافة. آهٍ كم كان مساءً مرِحًا وشائِقًا! أكيدٌ سأحظى بمثله، ما دمنا سنواصل الحديث، أحتاج إلى معرفتها أكثر.

وهكذا تكرَّرتْ لقاءاتنا وتَواطَأنا على وضعِ رغباتنا على رفوف بعيدة، كي تطول رحلتنا ويزهو مشوار الحلم، أعلم أن هذا صعب عليَّ، فاشتياقي إليها يذوب بين رموشها، فأَنْشُدُ منها ضعفًا يسعدني، لكنها في كل مرة تُوشك على الضياع بين ذراعيَّ، تفلت منِّي وهي في أشدِّ حالاتها توهُّجًا.

مرةً وصفَتْ حالنا بأنه نضال سخيف، لكنه يصدر عن عقل سديد! سألتُها:

– متى ننجو من هذا النفاق؟

– عندما نعرف ما يريد كل منا من الآخر، وحين لا نخشى أن تكشف الخمرة كل أسرارنا، ولا تبقى ذرة ندم على كل ما نبوح به، وما تُحدِّثنا به رغباتنا.١١١

بقيتُ صامتًا وأغمضتُ عينيَّ كي تواصل حديثها، لكنها فاجأتني بقُبلة زادت من وَلَعِي وتَوْقي إلى مزيد.

لم يكن لديَّ وقت للعودة إلى بيتي وتغيير ملابسي، فوصلتُ إلى محل عملي متأخرًا، ولسوء حظي صادفتُ المدير في المصعد فنابني منه نظرة ازدراء، وكاد يبتلع صوتَهُ حين ردَّ على تحيَّتي، غير أنه رجل طيب، فما إن قدَّمت له ملفًا كان طلبه، حتى سألني بلهجة تغلب عليها سخرية مهذبة:

– لا تبدو اليوم مهتمًّا بهندامك المعتاد!

ابتسمتُ وقلتُ:

– بالأمس كنت على موعد مع حسناء.

وأوشكتُ أن أضيف، لكنه قاطعني وقال:

– وهل صفعَتْكَ؟

وصار يضحك مني.

مضى يوم العمل سريعًا أكثر من المعتاد لغياب زميلي، وتحويل مهامِّه إليَّ، وفوجئت بأني كنتُ الأخير في المكتب، كلهم غادروا. وعجبتُ لهاتفي وقد امتلأ برسائل أمي، قلقتُ وهاتفتُها، لكنها لم تجب فأسرعتُ إليها. كانت تنتظرني هناك مفاجأة غير سارة، أقول ذلك لما أشعر به من مَسَرَّة طاغية، فلأول مرة منذ سنوات طويلة أجد نفسي في قلب امرأة، وما زلت أشمُّ رائحة الأمس في ما أتنفسه، وفي ثيابي، حتى إني لا أتذكر إن كنتُ غسلت وجهي، لا، مؤكدٌ لم أفعل، لأحتفظ بآثار قُبلاتها أطول وقت.

استقبلتني الوالدة هاشَّةً باشَّةً، وهمسَتْ:

– ابنة خالتك تنتظرك.

قلتُ باستياء:

– ماذا تريد مني؟

لم أنتظر جوابها ومشيتُ نحو غرفة الجلوس، سلَّمتُ ببرود وجلست بانتظار ما ستفصح عنه طَليقَتي، خامرني ظن بأنها تعرف شيئًا عن قصَّتي مع سلمى، بفضل أمي، فهي لا تنفكُّ عن التفكير والتخطيط لإعادة الحياة لزواجنا الفاشل.

أحاديث مُملة ومجاملات مطوَّلة، اتَّضح أن وراءها مطلبًا صعبًا، لكن لا بُدَّ لي من تلبيته، أمُّ ولدي ستسافر إلى العراق وتتركه معي شهرًا كاملاً.

ملامح المؤامرة واضحة بين السيدتين، فكرتُ في ولدي، أنا فعلًا مشتاق إليه، ولكن ماذا أفعل بأشواقي إلى سلمى؟ كيف سأشرح له علاقتي بها؟ ما زال صغيرًا ولن يفهم. تبًّا لكِ يا ابنة خالتي!

ولدي ميَّال إليَّ لأني أتركه على حريته، وأخفف عنه كثيرًا من قيود الأم والجدَّة، كان متحمِّسًا، وقال: «حبيبي بابا، سَأَبِيت عندك هذه الليلة»، احتضنته بكل شوق ونسيت كل ما فكرتُ فيه، أكيدٌ سأجد طريقةً ليستمر شعوري بالسعادة، فأنا لا أشكُّ في كرم سلمى، ستُقدِّر ظروفي.

إحساس لا يُعوَّض حين يحتضن الأب ابنه، تذكَّرتُ والدي وكم كنت أرتاح حين يغمرني بمحبته وحضنه.

حاولَتْ أُمي أن تبدو محايدة وتُبرِّئ نفسها من المكيدة، فصارت تشرح لي عن مرض خالتي وضرورة أن تكون ابنتها إلى

جانبها، وأنْ ليس عليَّ أن أقلق فبإمكانها أن تجلب حفيدها من المدرسة، ريثما أعود من عملي.

تظاهرتُ بتصديقها ولم أقل شيئًا، ثم ابتلعتُ لساني بعد أن تسلَّمتُ رشوة كبيرة منها، فقد دسَّت في جيبي ظرفًا متخمًا بالنقود، وناولتني كيسًا يكاد ينفجر بكل ما لذَّ وطاب من الحلوى التي أحبها، تذكَّرتُ طفولتي، فكلما كانت تعاقبني على سوء سلوكي وكسلي، تصالحني في اليوم التالي بكرمٍ يُغريني بتكرار ألاعيبي.

اليوم أنا أبٌ حقيقي، وما دامت الحضانة ستستمر شهرًا وربما أكثر، فلا بُدَّ من برنامج يُسعد ولدي، لذلك استجبتُ لرغبته في اصطحاب صديقه للذهاب إلى حدائق ريجموند، حيث تسرح الغزلان، ويطيب الهواء، وتنعم العيون بخضرة لا متناهية. وصادف أن تكرَّمت علينا شمس لندن فأسعدتني بإشراقتها وشعرت كما لو أن قلبي يتسع لكل الناس، تفاؤل ومرح ومشاعر لا أعرف كيف أصِفُها، فكرت أن أُشرك سلمى في كل ذلك الرضا، هاتفتُها فكانت أكثر حماسًا مني.

«بشَّار» يحب الطبيعة ويضيق بالأماكن المغلقة، وسنقضي معًا نهارًا جميلًا، وهي فرصة ليتعرَّف إلى سلمى وأكتشفَ من ملامحه البريئة ردة فِعله حين أقول له إنها صديقتي.

تأخرَتْ سلمى ولاحظ ولدي أنني أنظر في ساعتي، فسألني إن كنت أنتظر أحدًا، فأجبتُ:

– إنها صديقتي، وهي تحب الطبيعة مثلك، وقد دعوتُها

لتتعرف إليها.

سألني وقد لاح في عينيه سؤال تردَّد في توجيهه، لكنه تجرَّأ وقال:

- هل هي جميلة مثل أمي؟

- لا أعرف، أنتَ قُل لي حين تراها. لكن بيتها جميل جدًّا، تختفي في ظِلِّه حديقة صغيرة فيها شجرة كرز وأزهار وورد، ولديها أيضًا قطة مؤنسة ذات شعر طويل أسود، وعينين خضراوين.

وما إن ذكرتُ القطة حتى اتَّسعتْ عيناه وتحفَّز بسؤالٍ راقني:

- هل يمكن أن نزور صديقتك وأن ألعب مع قطتها؟ ما اسمها؟

ضحكت وسألتُه:

- القطة أم صديقتي؟

- القطة طبعًا!

حاولتُ أن أتذكَّر اسمها، وبقي بشار صامتًا ينتظرني بشوق، فلم أتذكَّر. صار ولدي أكثر اهتمامًا مني بوصول سلمى، وظل يسألني عنها.

أخيرًا أقبلتْ شاغلتي ومحبوبتي، وقد لبستْ أجمل ما عندها، ألوان ثوبها تُحاكي فرحة الربيع في روحي، ويطلُّ من بسمتها شوق يكاد يرتمي على صدري.

لحظة وصولها كان من حظي أن ولدي انشغل بحديث مع

صديقه الذي يحب الكلاب، وبدا أنهما يتناقشان في أمر مهم، ما أتاح لنا عَذب اللقاء وعناقًا أطرب قلبينا. جلسنا متقاربَيْنِ، نراقب الصديقين ونأمل أن تطول غفلتهما عنَّا.

قلتُ لها:

- كم اشتقتُ إليكِ! كأني بعُدتُ عنك عامًا!

- لا أحتمل غيابكَ، شيء ما يشدُّني إليك لا أعرفه، لكني أعرف أني أحبك.

كلماتها انسابت في خاطري كما الخمرة حين تلهو بإحساسنا وتغرينا بِحُلو القُبل، وما إن دنوت منها حتى أقبل ولدي ليفسد عليَّ مسار حلم كان سيولَد، إلا أنه أسعدني حين صافح سلمى بكل تقبُّل وبساطة، فأخذَتْهُ في حِضنها وقالت:

- إذًا أنت الأمير الذي أحبَّته سندريلا! أبوك أخبرني بأنك تشبهه، لذلك بحثتُ عن هدية أتمنى أن تعجبك أيها الأمير الجميل.

والتفتت إلى صديقه وأعطته هديته.

انشغل بشار عن التفكير بالقطة ولم يسأل سلمى عن اسمها، ثم أشار إلى صديقه كي يبتعدَا ليفتحا هديتيهما، ونحن عدنا لما كنا عليه من حنين واشتياق، لكن مشروع القُبَل تبدَّدَ، لأن ولدي وإن كان مشغولًا بهديته وسعيدًا بها، فإن عينيه تطيران نحونا بين حين وآخر.

حقًّا كان يومًا بهيجًا، تتالت بعده لقاءاتنا في بيت سلمى، وصارت القطة تأنَسُ لبشار وتنام في حضنه، كما أنه أحبَّ

سلمى إلى درجة أنه صارحني برغبته في البقاء معي حتى بعد عودة أمه، ما أثار غضبها وغَيرتها، غير أنها لم تستطع منعه من المبيت عندي في يومي السبت والأحد.

اليوم يصادف مرور عام على أول لقاء جمعني بحبيبتي، كنت آملُ أن نحتفل بذكراه، لكنها قالت:

- لا، عندما التقيتَني أول مرة كنت حزينة، دعنا نستَعِد اليوم الذي اجتمعنا فيه وكنا نستمع إلى أنغام شجِيَّة، ألا تذكر الحفل الغنائي؟

قلتُ لها:

- وكيف أنسى ذلك المساء البهيج؟!

وهكذا تمَّ لقاؤنا الأجمل حين تكسَّرت بيننا كل الحواجز، وانتهى زمن النضال -كما وصفته سلمى- فصرنا نفسًا واحدة وما عادت الرغبات فوق الرفوف، إحساس بالرضا لا نظير له. تساءلتُ: هل كان انتظارنا بلا معنى، أم كان سببًا لما ننعم به من انسجام؟

كنتُ مضطرًا إلى تركِها في تلك الليلة قبل وقتنا المعتاد، وحين ودَّعتني عند باب دارها قالت كلمات لم أجد لها تفسيرًا ولم أتوقف عندها، كما لم أفهم لماذا بَدَا ضوء عينيها خافتًا مع أننا قضينا أجمل ليلة، فكرتُ أنها ستفتقدني لأنني سأغيب عنها بضعة أيام بسبب عملي.

عدتُ إلى لندن بعد إنجاز مهمتي في فرع الشركة التي أعمل فيها بمدينة مانشستر، ولم يصل إلي من سلمى أي هاتف طيلة

غيابي عنها، وأنا ما حاولتُ الاتصال بها لكثرة مشاغلي. أول ما فعلتُ في الصباح أن هاتفتها مرَّاتٍ عدَّة فلم أسمع جوابًا، ما دعاني إلى الذهاب إلى دارها. طرقتُ الباب وانتظرت طويلًا بلا جدوى فأخذتُ طريقي إلى داري وأنا مثقل بمشاعر القلق والخوف، تُرى أين ذهبت؟

فكَّرتُ في ابنها هاني وهو يعيش في فرنسا، ربما سافرَتْ إليه، اتَّصلتُ به فقال إنه لم يتحدث معها منذ وقت طويل لخلاف حصل بينهما. زاد خوفي وخُيِّلَ إليَّ أن مكروهًا حلَّ بها.

بقيتُ أقصد دارها كل يوم وأُمَنِّي نفسي بعودتها، وفي عَتَمَة ظنوني وضجري، تذكَّرتُ كلماتها التي لم أتوقف عندها في تلك الليلة قبل سفري، قالت:

- تَذكَّر أنني أحبك مهما صدر مني.

ماذا كان قصدها؟ وهل تُخفي عني أمرًا ما؟

زاد انشغالي وكرهتُ تعاقب الأيام بلا أمل، حتى جاء يومٌ عبوسٌ، ترك في قلبي لوعة، وأسئلة ما زلت أنتظر جوابها، إذ لمحتُها مِن دون أن تنتبه، تسير إلى جانب رجل، تُعينه على ضعفه وتباطؤ خطواته وتنظر إليه بعطف واضح، وهو مأخوذ بها يُمسك بذراعها، بَدَا مَهيبًا، جميل الملامح، فيه كبرياءُ مَن فَقَدَ مجدًا قديمًا، رأيته يتحامل على نفسه ليصل إلى عتبة المقهى، مقهاها المفضل الذي شهد لقاءنا، ويا لعينيها حين كانت تنظر إليه وتحيطه برضاها وعطفها! ويا لي من حبيب حلَّت عليه لعنة الهجر! أحقًّا ستهجرني؟ لا لن أحتمل.

صِرتُ أبكي بحرقة، وبقيتُ هناك طويلًا، أتابعهما، تُرى هل تدرين يا سلمى بما أشعر به؟ أنت تُبدين الأسى عليه، قد يكون حبيبًا قديمًا، ولكن ماذا عني؟ ليتك تلتفتين وتبصرين أيَّ حبٍّ ضيَّعتِ، وأيَّ قلبٍ كسرتِ.

حين رأيتهما يتهيآن للخروج، أسرعتُ إلى داري لأدفن رأسي في وسادتي وألعن يومي، الغَيرة تعصف بي ثم تُميتُني، وأيام تمضي تأخذني في غيبوبة، صحوتُ منها ذات صباح فهاتفتُها، ردَّت بصوت مريض مبعثر الكلمات، بكتْ ورجتني أن أسامحها على غيبتها، ووعدتني أن تزورني بعد غد، حين تكون وحدها، سألتُها عن مرافقها، فلم تجب وعاودتْ البكاء، فمات صوتها وجعًا.

أقبل الغد، وانتظرتُ ما بعده بشوق يُخامِره ألمٌ يكاد يشُقُّ صدري، أسئلة صارت تطرق سمعي، تدَوِّي في رأسي، تُصدِّعني وتتركني في تيهٍ كمن أتعبه المسير في صحراء فارتمى على رملها يبحث عن قطرة ماء، وهل ينزل القَطْرُ؟ هل ستزورني كما وعدتْ؟

الشمس مالت إلى المغيب، وغاب معها الصبر، فما زلتُ أنتظرها والقلب مُلتاع، يرتجف من تخَيُّل الآتي، تُرى ما الذي ستقوله؟ مَن ذلك الطارئ الذي عبث بسعادتنا؟ رأسي مغلق تمامًا أمام أي احتمال، أنا خائف مرهق، لا أحتمل أن أفقد سلمى.

الساعة تشير إلى العاشرة، وجرس الباب يعلن وصول حبيبتي، ها قد وصلتْ وردَّت لي روحي. عانقتُها بقوة فراعني

نحولها وشحوب ملامحها، جلسنا صامتين لا نجد ما نقوله، حتى الأسئلة التي عذَّبتني نسيتُها، فليس إلا وجهها الجميل وعيناها الذائبتان في حزن عميق...

وأخيرا فرَّتْ الكلمات مني فسألتُها:

– ما الذي جرى؟ من ذلك الرجل الغريب؟ سكوتك يقتلني، تكلمي أرجوكِ.

– تقول إنكَ حفظتَ كل ما كتبتهُ في أوراقي، فلماذا لا تذكر ما سجلتُه عن أول حُبٍّ في حياتي؟ إنه هو، كان قد تعرَّض لحادث مميت في بداية عشرينياته، تسبَّب له في الشلل، ما جعله يستسلم للعُزلة، ويرفض رؤيتي خشية أن أشفق عليه، وبعد أشهر سمعتُ أنه تزوج بابنة خالته التي كانت تعشقه، ومستعدة للتضحية من أجله، ثم انقطعت أخباره تمامًا بعد أن سافر إلى لندن للعلاج.

– وما الذي جعله يظهر في حياتك من جديد؟

أجابتْ كأنها تُحدِّث نفسها وتنعَى حظها:

– صادفتُهُ في أثناء زيارتي لصديقتي التي تتلقى علاجًا طبيعيًّا في أحد المستشفيات، أقبلَ عليَّ بلهفة غريبة كأن الدهر الذي فرَّقنا كان أيامًا أو شهورًا قليلة. ومنذ ذلك اليوم لم يتركني، مع أني أخبرتُه بعلاقتنا، وقلتُ له إن الزمن لن يرجع بنا. بدا لي أنه لا يسمعني أو لا يَعي ما أقول، فقط يُردِّد أنه وحيد ومحتاج إليَّ، كان ذاهلًا عن الزمن الذي مَرَّ بنا، فأخبرني بفرحٍ أنه طلَّق زوجته منذ سنوات، ويريدني أن أبقى معه، وأن نتزوج!

أنا لم أعد أذكر ما كان بيننا، لكني أشفق عليه.

- إذًا ما العمل؟ أليس له أهل؟

- بلى، لهُ أخٌ يعيش في ضاحية بجنوب لندن، وهو ينزل عنده، وسيبقى هنا شهرين حتى ينتهي علاجه ويعود إلى هولندا حيث تقيم ابنته، وقد توسَّل إليَّ أن أراه كل يوم طيلة وجوده هنا وأن أفكِّر في عرضه.

نفد صبري فقلتُ:

- هذا غير معقول، وهل وافقتِ؟

- لم أُجِبْه، أوصلتُه ذلك اليوم إلى دار أخيه، بدون أن أعِده بشيء، إنه مريض جدًّا لكنه يُكابر، وتعلُّقه بي يُرهقني ويشقُّ عليَّ أن أجرحه.

سألتُها بطريقة لم تعجبها -عاتبتني عليها فيما بعد- قائلًا:

- ما دُمتِ لا تحبينه كما تقولين، فلماذا كل هذا النحول والشحوب؟ ألا يعني هذا أنك تتعذَّبين من أجله، وليس الموضوع إشفاقًا فقط؟

لم تُجبني، بل أصابني منها نظرة ازدراء، أنهت لقاءنا.

تمرُّ الأيام وهي ما زالت غاضبةً مني لحماقتي وسوء ظني، مع أنها كانت بحاجة إلى صدر حنون يحتوي آلامها. لا أعرف ماذا أفعل كي ترضى عني، فهي لا ترد على اتصالاتي، وما عادت تزور المقهى، عزائي أنها تحبني، ولا مفر مِن أن أقْبَلَها كما هي، بحُبها لي وإشفاقها عليه، بشوقها إليَّ وحزنها من أجله، فأيُّ جمال في الحب حين يخلو من الرحمة؟ شيء من الألم لا ينتقص من

المحبة. وقد تيقَّنَ لدَيَّ صِدقها بعد أن راقبتُها مرَّاتٍ عدة وهي ترافق ذلك الرجل إلى أماكن كثيرة، تصوَّروا أني طلبت إجازة من عملي كي أسعى وراءها وأُفسِّر نظراتها إليه! ملامحها كانت تَشي بالضَّجر والهمِّ.

وأنا في حَيرتي وتَوقي إليها لم أجد سلوى سوى ولدي، فقد تكرَّمَتْ أمه فسمحتْ له أن يقيم عندي كل أيام الأسبوع، حسبتُهُ كرمًا منها، لكني علمتُ بعد حين أنها تواعد زميلًا لها في العمل.

بشَّار كان دائم السؤال عن سلمى، اشتاقَ إليها وإلى قطتها، أعرف أنها تحبه، ولن تتردَّد في استقبالي من أجله، إذًا سيكون وسيلتي إليها، وحين أكون بقُربها لا يهمني حتى لو آلمَتنِي بعتابها، فلا شكَّ عندي في أنها تحبني، بل تعشقني، وكل شيء منها جميل.

المؤلفة في سطور

• أديبة وحقوقية عراقية، مُقيمة في بريطانيا منذ العام ١٩٩٢.

• تخرَّجتْ من كلية القانون والسياسة في بغداد، ومارست مهنة المحاماة لمدة ثلاث سنوات، بعدها انتقلت الى مجال البحث الاجتماعي والجنائي.

• بعد مغادرتها العراق في العام ١٩٧٩، لأسباب سياسية، عملت في مركز الدراسات الفلسطينية في دمشق لمدة خمس سنوات، قدَّمتْ خلالها العديد من الدراسات والأبحاث.

• عملتْ كمسؤولة للقسم الصحافي في السفارة اليمنية في دمشق.

• عملتْ في إدارة التحرير لمجلة النور، التي كانت تصدر في لندن، في الفترة بين عامي ١٩٩٧و ٢٠٠٣.

• في العام ٢٠٠٤ صدر لها كتيب عن قانون الأحوال الشخصية العراقي.

• في العام ٢٠٠٥ ساهمتْ مع مجموعة من الحقوقيين في تأسيس المركز العراقي للدراسات القانونية في لندن، الذي استمر عمله لمدة أربع سنوات، عقد خلالها العديد من الأنشطة والندوات.

• قدَّمتْ محاضرات في مجال القانون وحقوق المرأة، والتاريخ الإسلامي، في كل من لندن ولاهاي وكولن.

نُشِرت لها العديد من المقالات والقصص في صحف عراقية وعربية كالحياة والشرق الأوسط، ومجلة الطريق اللبنانية.

• صدر لها:

– غوايات الوهم: رواية. دار دلمون الجديدة، دمشق، ٢٠١٧.

– بين تلال الحنين: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٣.

• البريد الإلكتروني: bdourdadah@hotmail.com

شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net